الالوهية - النبوة - الأخلاق

اتجاهات جديدة فى تفسير القرآن الكريم

الأستاذ الدكتور

منيع عبد الحليم محمود

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة - جامعة الأزهر

نشر وتوزيع

مكتبة الإيمان القاهرة

٤ ش أحمد سوكارنو العجوزة

ت ٣٤٥٢٣٠٢

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م

رقم الإيداع ٢٠٠٤/١١٠٥٣

الترقيم الدولى .I.S.B.N
977-5260-40-X

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة. ت: ٤٨٢٧٨٥١

إهـــداء

إلى

سيدنا رسول الله ﷺ فيض من هديه، ونفحات من جواهر معرفته.

منيع عبد الحليم محمود

ولدى منيع

سلام الله عليك ورحمته وبركاته، وبعد:

فلعلك تعلم أني كنت أوثر أن لا أقدم لرسالتك هذه، ولا أن أنقدها: وذلك لأني إن أردت النصفة فسأقف منك موقف المادح المقرظ. وهو موقف يمنعني منه الحياء: لمكاني منك، ولذلك يكفيني بأن أحمد الله إليك: أن هداك لهديه، وجعلك من خدمة كتابه، والمحبين لكلامه، حتي آثرت علوم القرآن علي ماعداها من علوم، ثم وفقك أن تختار لرسالتك من بين روضات التنزيل روضة زينها الرحمن باسم كتابه، وختمها بوصف عباده.

أدعو الله أن يوفقك، وأن يمن عليك برضاه وهداه.

والدك: عبد الحليم محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا ومولانا محمد سيد الخلق أجمعين

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ
لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾

مقدمة الرسالة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلي آله وصحبه ومن اتبع هديه إلي يوم الدين.

«ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهئ لنا من أمرنا رشدا».

وبعد: فيقول الله تعالي:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

في ليلة مباركة هي ليلة القدر، والشرف، والرفعة، من شهر مبارك هو شهر رمضان العظيم نزل جبريل عليه السلام، مبشرا بابتداء فجر جديد للانسانية، وقد ابتدأ هذا الفجر بقوله تعالي:

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق . . . ﴾

وبهذه الآيات المباركة فى هذه الليلة التي تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، والتي: سلام هى حتى مطلع الفجر، كانت رسالة وكان رسول الله: كانت رسالة هي خاتمة الرسالات، وكان رسول الله هو خاتم الرسل ﷺ.

وعن هذه الرسالة الشريفة، وعن هذا الرسول ﷺ، تتحدث سورة الفرقان: إنها تتحدث عن الرسالة من حيث الالهية، ومن حيث الاخلاق، ومن حيث البعث، ومن حيث الاطار الذي احتواها، وهو كتابها المقدس: القرآن الكريم.

وتتحدث عن الرسول ﷺ، فتنفي عنه صلوات الله، وسلامه عليه، مزاعم المنحرفين التي واجهوه ﷺ بها.

ان رسول الله ﷺ، منذ أن بدأ الوحي في غار حراء، أخذ في الدعوة إلي الله، وبدأ بها في صورة طبيعية.

لقد تحدث بها إلي من يثق في طهارة قلوبهم، وكان أولهم استجابة تلك الطاهرة النقية التي تعرفه عن قرب، وتحبه علي بينه من أمره: السيدة خديجة رضوان الله عليها؛ لقد استجابت بمجرد سماع النبأ وقالت في فورية لاتباطؤ فيها:

«كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكْسِبُ المعدوم وتُقْري الضيفَ، وتُعين علي نوائب الحق».

وكانت بذلك أول المسلمين، وكانت أول المسلمات، وكانت جديرة بالمستوي الذي أنزلها رسول الله ﷺ فيه من قلبه: ثقة وحبا.

يقول رسول الله ﷺ: «لقد آمنت بي حين كفر الناس، وأشركتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقني الله ولدها وحرمني ولد غيرها»[1].

وأسلم أبو بكر رضي الله عنه بمجرد أن أخبره رسول الله ﷺ، بخبر نبوته.

لم يتلجلج ولم يتشكك، ولم يطلب معجزة أو آية، وكان أول من أسلم من الرجال، يقول صلوات الله وسلامة عليه: «ما دعوت أحدا إلي الإسلام إلا كانت عنده كبوة وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ماعكم عنه حين ذكرته ولا تردد فيه»[2].

وأسلم سيدنا علي وهو مازال بعد غلاما لم يلوث قلبه شرك، ولم تستعبده عادات الجاهلية.

وهؤلاء لم يطلبوا دليلا ولا معجزة ولا آية، وإنما كانت معرفتهم بالرسول ﷺ، أوثق دليل علي صدق مايقول.

ومرت هذه الفترة الاولي للدعوة هادئة.

ولكن الصراع بدأ منذ أن أعلن رسول الله ﷺ بالرسالة وجهر بالدعوة وكان الصراع في جميع ميادين المجتمع ومجالاته الروحية.

إنه صراع الإيمان ضد الشرك، وصراع الحق ضد الباطل، وصراع النور لتتقشع سحب الظلمة، وصراع اليقين ليقتلع جذور الشك.

وكانت أولي نقط الخلاف والأساس الجوهري للصراع هي ما دعا إليه الرسول ﷺ من عقيدة التوحيد.

لقد قال المشركون في سذاجه عنيدة.

«أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهاً وَاحِداً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ».

وقالوا في بلادة ذهنية واضحة:

---

(١) سير اعلام النبلاء.

(٢) عكم، أى تلبث، والحديث ذكره ابن اسحاق عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمى.

﴿ان نتبع الا ما وجدنا عليه آباءنا﴾.

ويقول لهم القرآن فى صورة من التهكم المنطقى اللاذع:

﴿أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾

ولقد استفاض القرآن استفاضة لاتكاد تحد فى اثبات التوحيد، وتحدث عنه فى صور مختلفة من الاساليب:

لقد استعمل أسلوب الإخبار التقريرى الموقن، وأسلوب السخرية التهكمية من الشرك، وأسلوب المنطق الإقناعى، وأسلوب المنطق البرهانى، وأسلوب الأخبار التاريخية، وأسلوب الردع الذى يبين الجزاء العنيف الذى أصاب من كذب بالتوحيد.

والإسلام دين التوحيد، والقرآن يثبت أن التوحيد هو مركز الدائرة فى رسالات الانبياء السابقين:

إن (لاإله الا الله) عقيدة خالدة ثابتة قبل خلق الكون، وباقية بعد أن تبدل الأرض غير الأرض والسموات؛ وقد تحدثت عنها سورة الفرقان في قوة، وتحدثت عنها منذ الآية الثانية مباشرة؛ إن الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴿٢﴾ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُوراً﴾[1]

وتتحدث عنه السور الكريمة فيما بعد:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ؟

قَالُوا سُبْحَانَكَ: مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُوراً.

فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْراً وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾[2]

(١) الآيات رقم: ١، ٢، ٣ منها.
(٢) الآيات رقم: ١٧، ١٨، ١٩ منها.

ويقول سبحانه أيضا:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾(١)

ويذكر سبحانه أن من صفات عباد الرحمن أنهم:

﴿لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾

ومع كل ذلك فإن الكثير من آيات السورة الكريمة تشير إلى التوحيد من قرب أو من بعد، فمثلا:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾(٢) ألا يشبه ذلك مثلا:

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾(٣)

وإذا تحدث الناس عن التوحيد، فإن ذهنهم ينصرف مباشرة إلى نفى التعدد فى الذات الإلهية، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

وهذا المعنى هو من معانى التوحيد، بيد أن التوحيد فى التوجيه القرآنى أوسع دائرة، وأعمق أثرا:

فالتوحيد الحق: هو إلقاء العنان كلية إلى الله تعالى.

القاء العنان فى الأمر: عملا، وأداء، واستجابة فورية، أو على مراحل حسبما يقتضيه الأمر.

والقاء العنان فى النهى: الامتناع الراضى عن كل مانهى الله تعالى عنه.

إن ممايصور التوحيد الحق فى النظرة الإسلامية قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

إن العبادة لله وحده، وإذا كانت العبادة لها معناها المعروف، فان فى مفهوم هذا المعنى، إذا نظرنا إليه بصورة أعم وأشمل، أن كل ما يستعبد الإنسان فيخضع له الانسان ويطيع، فهو معبود، والخضوع له عباده، ان الله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾(٤)

---

(١) الآية رقم: ٥٥ منها.

(٢) الآيات رقم: ٥٢، ٥٣ منها.

(٣) الآية رقم: ٦١ من سورة النمل.

(٤) الآية رقم: ٤٣ منها.

فالهوى اذا أطاعه الإنسان، إله.

ومن الناس من يستعبده حب الثروة، أوحب الجاه والمنصب، أوحب الملذات، فتكون إلهـا ويكون هذا الحب والخضوع، والطاعة، والجرى وراء هذه الألوان من الشهوات عبادة، ونعود فنقول:

إنها عبادة بالمعنى العام الشامل، ولكن التوحيد الحق هو أن يقتصر الخضوع لله وحده، وأن يسلم الإنسان وجهه لله وحده، ورسول الله ﷺ يقول:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به[١]».

أما «وإياك نستعين» فهي تقصر لاستعانة علي الله وحده ومما يفسر ذلك حديث رسول الله ﷺ لابن عباس رضي الله عنه وذلك فيما أخرجه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

كنت خلف النبى ﷺ يوما فقال: ياغلام، انى أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو أجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الابشيء قد كتبه الله لك وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف[٢]».

وفى رواية أخرى.

«احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة واعلم أن ماأخطأك لم يكن ليصيبك، وماأصابك لم يكن ليخطئك واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا».

ولقد تحدث الإسلام فى مجال التوحيد، عن الشرك الأصغر، والله سبحانه وتعالى يقول: فى حديث قدسي:

«فيما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: قال الله عز وجل:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل لى عملا أشرك فيه غيرى فأنا منه برئ وهو للذى أشرك[٣]».

---

(١) رواه فى شرح السنة وصححه النووى فى أربعينه وقال: رويناه فى كتاب الحجة باسناد صحيح.
(٢) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.
(٣) رواه ابن ماجه واللفظ له، وابن خزيمة فى صحيحه والبيهقى، ورواه ابن ماجه بثقات.

ويقول رسول الله ﷺ فيما روى عن شداد بن أوس رضي الله عنه:

«من صام يرائى فقد أشرك. ومن صلى يرائى فقد أشرك. ومن تصدق يرائى فقد أشرك[١]».

ومن هنا كان الإخلاص هو الفضيلة التى تنبثق مباشرة عن التوحيد، عن (لاإله إلا الله)، عن «إياك نعبد وإياك نستعين»، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾.

ولعلنا إذا تأملنا فى معنى كلمة الدين هنا، نجد أنها كما تكون العقيدة تكون الأعمال، فما لم تكن الأعمال خالصة فليس لله فيها نصيب، إنه سبحانه لايثيب عليها ولا يتقبلها، وإنما تلف وتطرح فى وجه صاحبها غير مقبوله .

عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله تعالى لايقبل من العمل إلا ماكان له خالصا وابتغى به وجهه[٢]»

والله سبحانه وتعالى كما يقول رسول الله ﷺ

«لاينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن إنما ينظر إلى أعمالكم وقلوبكم وفى رواية أخرى[٣]:

«إن الله لاينظر إلى صوركم وأجسامكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»

ويبتدئ التوحيد الخالص، أويبتدئ الإخلاص مباشرة من البدء الأول فى الأعمال، وهو النية، يقول رسول الله ﷺ فيم رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه[٤]».

(١) رواه البيهقى.
(٢) أخرجه النسائى، وقال حديث حسن.
(٣) حديث صحيح أخرجه الإمام مسلم وابن ماجه فى سننه.
(٤) رواه البخارى ومسلم، وأبو داود والترمذى والنسائى.

وإذا فهم التوحيد على حقيقته هذه العامة الشاملة، آمن الإنسان بأنه لارازق إلا الله، ولامعطى ولامانع إلا الله، ولانافع ولاضار إلا الله، النعم كلها منه، إنه مالك الملك، كل الملك، فى جملته وفى تفاصيله:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

وإذا آمن الانسان بذلك تحرر من كل استعباد لبنى البشر، إن المؤمن الصادق الإيمان هو الحر، انه حر من الشهوات فلا سيطرة لها عليه، وهو حر من الاستعباد للآخرين: الطغاة والجبارون، لايملكون مع الله شيئا، الله الذى يقول لرسوله ﷺ:

«ليس لك من الأمر شئ»

ويقول سبحانه:

«إليه يرجع الأمر كله»

ويقول الله تعالى:

«إليه المصير».

وانى حينما أتحدث عن التوحيد فى هذه الرسالة إنما آمل - بجوار البحث العلمى - أن أساهم بتوفيق الله، فى توجيه شبابنا إلى عقيدة التوحيد الحقة، التى تجعل من الله سبحانه وتعالى معقد آمالها، ومناط رجائها، فتتجه إليه وحده، مسلمة أمرها إليه فى إخلاص وفى ثقة.

وإذا كان القرآن الكريم قد استفاض فى بيان عقيدة التوحيد، نفيا للولد، والأنداد، والشركاء على أى وجه فانه قد استفاض أيضاً فى عقيدة البعث.

وعقيدة البعث من العقائد الكبرى، ومن الأصول الأساسية التى استفاض القرآن الكريم فى إثباتها؛ وقد تحدثت عنها السورة الكريمة فى أسلوب قوى يتوعد الذين لايؤمنون بالبعث فى كلمات لها شدتها ودويها وفورانها، يقول سبحانه وتعالى:

---

(١) آل عمران ٢٦.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا
إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا
وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا.
لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾(١)

ويقول تعالي:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا
يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا
وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾(٢)

وعقيدة البعث من العقائد التى لها أثرها الكبير فى المجتمع، فهى سلوى للمؤمنين إذا مرت بهم ساعات من الضيق والشدة فى هذه الحياة، وهى باعث قوى للتخلى عن الشرور، وهى حافز من أعظم الحوافز لتوجيه الناس إلى العمل الصالح، مرضاة لله تعالى حين لقائه، وللجزاء الحسن الذى ينتظر المتقين.

وأرجو الله سبحانه وتعالى أن تكون كتابتى عن البعث اسهاما فى نشر الخير فى المجتمع.

وتحدثت سورة الفرقان امتزاجا ببعضهما أحيانا، فكانا كأنهما شىء واحد، وتحدثت عنهما أحيانا أخرى كل على حدة، وهما: القرآن الكريم، والرسول ﷺ.

إنها بدأت بقوله سبحانه وتعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

إنه الثناء الجميل على الله سبحانه وتعالى، لإنزاله للقرآن الذى يهدى للتى هى أقوم، لإنزاله لهذا الكتاب العزيز المبارك الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من

(١) الفرقان الآيات: ١١– ١٤.
(٢) الآيات: ٢١ – ٢٣ منها.

خلفه، والذى من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، إنه حبل الله المتين، والصراط المستقيم، لن يضل من اهتدى به، ولايهتدى من انحرف عنه، أنزله الله هداية للعقل، وللانسانية، مبشرا ونذيرا، فتبارك سبحانه على هذا الفضل العظيم.

وتتحدث السورة الكريمة عما قال المشركون فى الرسول ﷺ، والقرآن الكريم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(١)

ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم بآية كريمة تتمثل فيهاعظمة الربوبية، ويتجلى فيها جلال الألوهية، إنه يرد بقوله:

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

ثم يضيف سبحانه فاتحا الأبواب للتائبن المنيبين فيقول:

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(٢)

وإثبات النبوة من المسائل التى استفاض فيها القرآن كثيرا، لأن التصديق بها أساس الهداية، وقد بدأ باثباتها الرسول ﷺ لأول جهره بالدعوة.

إنه صلوات الله وسلامه عليه لم يبدأ إلا بإثبات صدقه، وتحدى السامعين بالصدق.

والسورة الكريمة تتحدث عن نظرات المشركين للرسول ﷺ وهى نظرات كلها مادية إنها لاتتجه إلى السمو الروحى، ولا إلى الأفق الأعلى، وإنما تنظر إلى الأرض، وتتجه إلى المادة.

إنهم لاينظرون إلى الدعوة فى ذاتها، لا ينظرون إلى ما أتت به من فضائل ومن خير، ومن صلاح، وإنما:

(١) الفرقان آلايات: ٤، ٥.
(٢) الآية رقم ٦ منها.

﴿وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً
أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾(١).

ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم بعدة ردود منها:

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(٢)

ومنها:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً﴾(٣)

ولكنه يرد عليهم فى حسم فيقول:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾(٤)

ويتحدث المشركون عن القرآن الكريم فتكون نظرتهم أيضا هى النظرة السطحية انهم لا ينظرون إلى الموضوع والجوهر، وإنما:

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾

ويرد الله سبحانه وتعالى عليهم فيقول مبينا ومفسرا:

﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(٥)

وتتجلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله هذه العناية الكريمة التى أحاطت الرسول عليه الصلاة والسلام منذ ميلاده بل من قبل ميلاده إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى، تتجلى فى قوله تعالى:

---

(١) الآيات رقم: ٧، ٨ منها.
(٢) الآية رقم ٩ منها.
(٣) الآية رقم ١٠ منها.
(٤) الآية رقم ٢٠ منها.
(٥) الآية رقم: ٣٢ منها.

﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾(١)

وفى اثبات النبوة تثبيت للايمان وتقوية له، وأرجو من الله سبحانه وتعالى أن يجعل حديثى عن النبوة مساهمة فى هذا الاتجاه.

ولقد ركزت السورة الكريمة على صفات عباد الرحمن، وامتزجت فى هذه الصفات: العقائد بالأخلاق، بالسلوك، وكونت وحدة جميلة فى اتحاد هذه الزوايا من السلوك والعقائد والخلق.

والأساس الأصيل أنهم لايدعون مع الله إلها آخر، بيد أن هذا الأساس لم يبتدىء به الله سبحانه وتعالى فى مفتتح الحديث عن صفاتها. وإنما بدأ بأن ارتباط عباد الله بالمادة انما هو ارتباط هون: هين، ضعيف، إنهم يمشون على الأرض هونا، أما غيرهم فإنهم يرتبطون بالأرض وكأنهم مصفدون فيها ومن أجمل مايفسر ارتباط الماديين بالمادة وبالأرض قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٢)

وما دام عباد الرحمن يمشون على الأرض هونا، فإن قلوبهم متفتحة إلى كل خير متطلعة إلى السماء.

إن قلوبهم تهفوا إلى الله، تحبه لاتدعو سواه إنهم لايدعون مع الله الها آخر، من ولد، أوند، تعالى الله عن ذلك، أو ثروة، أوجاه، أومنصب، ولكنهم يبيتون لربهم سجدا وقياما.

وهم لايطمحون فى الأدنى من المراتب أو الأقل منها، بل ولايطمحون فى الوسط منها، وإنما يطمحون فى امامة المتقين. فى الذروة من المتقين، ويدعون ربهم قائلين:

(١) الآية رقم: ٣٢ منها.
(٢) الآيات رقم: ١٧٥، ١٧٦ من سورة الأعراف.

﴿واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

وتكون نهايتهم ماتحدث الله سبحانه وتعالى عنهم:

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[1].

وهذا الامتزاج فى صفات عباد الرحمن بين العقيدة، والسلوك، والأخلاق والنظرة إلى هذه المسائل كوحدة واحدة، هو مايجب أن يسود المجتمعات الإسلامية من نظرات فى التعليم، وفى التشريع، وفى الثقافة على وجه العموم الأساس هو:

«لا إله إلا الله»

وإذا ما وجد هذا الأساس لايرتبط الانسان بالمادة ارتباط الجشع المستعبد ولايشهد الزور على أى وجه كان هذا الزور، وبأى صورة تشكل، والمطمح هو:

﴿واجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

وبعد: فهذه المسائل تحدثت عنه السورة الكريمة مبينة وجه الحق فيها وعالجت بذلك أمراضا وانحرافات فى مجتمع الجاهلية لتخرجه بها من الظلمات إلى النور من الجاهلية إلى الإسلام.

وأمراض الجاهلية الأولى هى نفس الأمراض عند بعض الناس الذين تأثروا بالثقافة اللادينية التى يتسم بها الغرب، والتى يصدرها متعمدا إلى شرقنا الإسلامى فى صورة تيارات فكرية أو ثقافية -زعموا- متقدمة أو تقدمية -كما يتوهمون- لابد منها.

وعندنا أقلام مأجورة، وأموال مبذولة، وخداع مرئى ومسموع، وأباطيل على كل لون، تريد أن تغشى على أعين المسلمين، فلا يرون الحق فى وضوح.

والهدف من كل ذلك لدى أعداء الإسلام، إنما هو تحويل المسلمين عن مصادر الحق والخير والعدالة:

(١) الآيات رقم: ٧٥، ٧٦ منها.

المصادر الإلهية من قرآن وسنة، ولو أمكنهم أن يزيلوا القرآن الكريم من الجو الإسلامى لأزالوه، غير مترددين، ولكن الله تعالى ضمن حفظه منارة خالدة تشع بالنور الدائم لمن أحب الهداية وأراد الطريق المستقيم:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[(١)]

ولقد حاولت ما استطعت إلى ذلك سبيلا أن ألقى بعض الأضواء من خلال هذه السورة الكريمة مهتديا بأنوارها على أنواع المشاكل التى يفكر فيها كثير من الشباب فى العصر الحاضر، والتى تكون عادة مصدر قلق وحيرة لهم.

وأرجو أن يكون عملى حصنا من الحصون التى يهيئها الأزهر الشريف للوقوف فى وجه الغزو الفكرى الذى يجتاح – فى تخطيط وتصميم غربى– الأقطار العربية لإخراجها من نور القرآن الكريم وهدايته، إلى ظلمة الانحراف، وما توفيقى إلا بالله.

وإنى لأشكر أستاذنا الجليل الكبير فضيلة الشيخ الدكتور أحمد الكومى رئيس قسم التفسير بجامعة الأزهر فقد عاوننى معاونة صادقة، فى التوجيه، والإرشاد، والتنبيه إلى المراجع، وتصحيح ماعساه أن يكون من خطأ.

فشكر الله له وجزاه الله عنى خير الجزاء.

دكتور منيع عبد الحليم محمود

---

(١) الآية رقم: ٩ من سورة الحجر.

سورة الفرقان عرض عام

الجمهورعلي أنها مكية.

والرواية عن ابن عباس، وقتادة: أنها مكيه، إلا قوله: تعالي «والذين ولايدعون مع الله إلها آخر ...» إلي قوله سبحانه:

﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيمًا﴾[1].

وذكر الضحاك أنها مدنية، إلا الآيات الأولي، إلي قوله: «ولانشورا»[2] فمكية:

والظاهر أن رأي الضحاك غير موافق، لأن السورة تناولت التوحيد ونقاش المشركين، وهذا اللون لايستأثر بالكلام في القسم المدني وآياتها سبع وسبعون آية إتفاقا، كما نص عليه الطبري.

«صلة سورة الفرقان بسورة النور التى قبلها»

عندما نتأمل في سورتي النور، والفرقان، من حيث وجه صلة إحداهما بالأخري نري أن هناك ربطا قويا، ومناسبة ظاهرة، بين هذه السورة والتي قبلها، وذلك باد في ثلاثة مواضع:

١ - المطلع،

٢ - الأثناء.

٣ - المختتم.

١ - اننا عندما نقارن بين صدر سورة النور، التي يقول فيها الله سبحانه وتعالي:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وبين صدر سورة الفرقان:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾.

وجدنا بينهما تناسبا أكيداً يتضح فيما يلي:

١ - فقد ذكر في الأولي مدحا لجزأين من القرآن من حيث ما فيه من الآيات البينات وفى الثانية: مدح نفسه تعالي بانزال القرآن الذي هو نعمة عظيمة، وهداية

(١) أى من آية ٦٨ - ٧٠ من السورة. (٢) أى من آية: ١ - ٣.

للناس، وفي هذا مدح للقرآن كله ضرورة أن الله مدح نفسه بتنزيله، فهنا مدح لكل القرآن والممدوح: السورة.

٢ – التصريح في كلا الموضعين بأن هذا القرآن من عند الله سبحانه:

قال في الأولي:

﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾.

وقال في الثانية:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ﴾.

٣ – تعرضت كل من الآيتين لبيان الغاية والسبب الذي من أجله نزل القرآن.

ففي الأولي:

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

وفي الثانية.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾.

وبين الإنذار والتذكر مناسبة، وهي: أن الثاني ناشئ من الأول، فالإنذار سبب، والتذكر مسبب.

٢ - وفى الأثناء:

١ – تعرض كل من السورتين لذم الزنا، وبيان قبحه، ومدح من تجنبه وذكرت السورة الأولى العقوبة الدنيوية المادية والمعنوية للزانى من جلده مئة وعدم قبول الشفاعة فيه، وحضور طائفة من المؤمنين عذابه، وتحريم نكاحه للمؤمنة.

وذكرت السورة الثانية العقوبة الأخروية للزانى، قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[1].

٢ – ذكر في السورة الأولى أداب البيوت من الاستئذان والسلام قبل دخولها إذا كانت مملوكة للغير.

---

(١) الآيات: ٦٨، ٦٩.

وذكر في السورة الثانية بعض هذه الآداب المتعلقة بصاحب البيت نفسه وهو الإعتدال فى النفقة من غير ترف ولاتقتير قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(١).

٣ – فى السورة الأولى ذكر الآداب المتعلقة بالمنازل، وفى السورة الثانية ذكر الآداب التى من شأنها أن تكون خارج البيت.

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾(٢).

وقال تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾(٣).

وقال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(٤).

٤ – أمر فى السورة الأولى الذين لايجدون نكاحا بالاستعفاف والصبر حتى يغنيهم الله من فضله؛ وذكر فى السورة الثانية مدحه لأولئك أولمن يكونوا أولي أزواج بقولهم:

﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٥).

فالمناسبة ظاهرة، سواء قال هذه المقالة المتزوجون أو غيرهم.

٥ – طلب من المؤمنين والمؤمنات فى السورة الأولى غض الأبصار وحفظ الفروج، وعدم إبداء الزينة، والضرب بالأرجل.

وفى السورة الثانية: مدح التاركين للزنا الذى ينشأ من ترك التعاليم السابقة التى مرت فى السورة الأولى.

٦ – بين فى كل من السورتين أن الله تعالى واحد قادر.

ففى السورة الأولى:

---

(١) الآية: ٦٧.
(٢) سورة النور آية: ٢٧.
(٣) سورة الفرقان آية: ٦٣.
(٤) سورة الفرقان آية: ٧٢.
(٥) سورة الفرقان آية: ٧٤.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[١].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٢]

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾[٣].

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾[٤].

وفى الثانية:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾[٥].

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾[٦].

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾[٧].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾[٨].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا﴾[٩]. الآيات

٣ - الانتهاء:

(أ) ختمت السورة الأولى بقوله تعالى:

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[١٠].

واختتمت الثانية بقوله تعالى:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[١١] .... أى العذاب

(ب) كلا الآيتين فيهما ذكر الله بصفات العظمة والقدرة مهددا الكافرين ومخوفا لهم من سوء الحساب يوم القيامة.

عرض عام لسورة الفرقان:

تعرض سورة الفرقان، وبتركيز شديد لأربع أصول تعتبر من الأسس الهامة التى تقوم عليها شريعة سيدنا محمد ﷺ، هذه الأصول الأربعة هى:

---

(١) سورة النور آية: ٤١.
(٢) سورة النور آية: ٤٢.
(٣) سورة النور آية: ٤٣.
(٤) سورة النور آية: ٤٥.
(٥) سورة الفرقان آية: ٤٥.
(٦) سورة الفرقان آية: ٤٧.
(٧) سورة الفرقان آية: ٤٨.
(٨) سورة الفرقان آية: ٥٣.
(٩) سورة الفرقان آية: ٥٤.
(١٠) سورة النور آية: ٦٤.
(١١) سورة الفرقان آية: ٧٧.

١ – الألوهية.　　　　٢ – النبوة.
٣ – البعث.　　　　٤ – الأخلاق.

تبدأ السورة أولا بقوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾(١).

فتعرض لنا فى هذه الآية ثلاثة أصول من الأصول الأبعة، التى تكلمنا عنها، ففيها: بيان للتوحيد. والنبوة، والجزاء، فتؤكدها فى وضوح لا لبس فيه، وبطريقة قاطعة، كأنها أمر مفروغ منه لايحتاج لنقاش.

ثم تأتى الآيات التالية بعد ذلك لتفصيل تلك العقائد، ولتبين بها جدال الضالين من المشركين، وكيف أنهم ينكرون أمورا هي من الوضوح بمكان.

ويبدأ ذلك التفصيل بالنسبة للأصل الأول: وهو الألوهية بقوله تعالي:

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾(٢).

فنجد فى هذه الآيات صفات الألوهية بمعناها الواسع؛ وهى:

الملك، والحق، والتقدير، والاستغناء عن الولد والشريك.

على أن المقارنة بين هذه الاية، والآية التى تتلوها تظهر لنا مدى روعة الأسلوب القرآنى فى مناقشة المشركين ومحاجتهم فكأنه يريد أن يقول فى هذه الآيات: كيف –مع كل هذه الخصائص التى لله سبحانه وتعالى– يعبدون غيره؟:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَراً وَلا نَفْعاً وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً﴾(٣).

ثم تمضى بنا السورة إلى العقيدة الثانية وهى: النبوة، فى تفصيل كبير، يبلغ إحدى وأربعين آية، تبين لنا أهم اعتراضات المشركين على نبوة سيدنا محمد ﷺ، وعلى رسالته التى جاء بها، وعلى دليل هذه الرسالة، وهو القرآن الكريم، وتبين لنا رد القرآن على هذه الشبه والاعتراضات بما يقضى عليها، ويبين زيفها.

(١) سورة الفرقان آية: ١.　　(٢) سورة الفرقان آية: ٢.
(٣) سورة الفرقان الآية: ٣.

على أن أهم هذه الشبه قولهم عن القرآن: إنه إفك افتراه سيدنا محمد ﷺ، وأعانه عليه قوم آخرون.

ويرد عليهم القرآن فى تحديد واضح لالبس فيه، بأنهم جاءوا بذلك ظلما وزورا: ﴿فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا﴾.

أى يجعل الصدق افكا، والبرئ عن الإعانة معانا، «وزورا» أى باطلا لا مصداق له يعلمون من أنفسهم أنه باطل وبهتان»(١).

ثم الشبهة الثانية، وهى قول الكافرين: إنها أساطير الأولين اكتتبها، فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.

وهذه فرية عظيمة من الكافرين، كبرت كلمة تخرج من أفواههم، فإنهم يعلمون أن الرسول ﷺ كان أميا لايقرأ ولايكتب، وهم يعرفون مدى صدقه وأمانته، وبعده عن الكذب، وعن كل الصفات المهينة.

وأيضا يعلمون أن القرآن الكريم ليس فيه شىء من الأمور المعروفة لمروجى الأساطير والخرافات، بل هو ملىء بالأسرار التى لم يطلع عليها أحد إلا من ارتضى من رسول.

وبه من البلاغة والفصاحة وحسن تبيان، بل وبه من العقائد والتشريع مالا يستطيع بشر الإتيان به.

ولذلك يرد عليهم القرآن بصورة لاتحتاج لكثير أدلة، باعتبار أن باطل شبهتهم واضح.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾(٢).

وتتوالى اعتراضات المشركين سخفا بعد سخف، وتزداد تهافتا بعد تهافت فيقولون:

﴿مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً﴾ ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(٣).

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي جـ١٢ ص٢٥ سورة الفرقان الآيات: ٥،٣.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٦.
(٣) سورة الفرقان الآيات: ٧، ٨، ٩.

ويجيب القرآن الكريم على الجزء الأول من هذه الشبهة، بأنه: ما أرسل قبل سيدنا محمد ﷺ من المرسلين إلا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق.

وأن سيدنا محمد ﷺ ليس بدعا من الرسل فى ذلك.

ثم يجيب على الجزء الثانى من الشبهة بقوله:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾(1).

على أنه فى أثناء الرد على جزئى الشبهة تحدثنا السورة عن أمر الساعة، وأنهم كذبوا بها، وهو قد يكون اضرابا انتقاليا بعد أن وبخهم على حكايتهم السابقة إلى توبيخهم على تكذيبهم بالساعة، وبيان ما أعد لهم من العذاب.

وقد يكون عطفا على ما حكى عنهم، على معنى بل أتوا بأعجب من ذلك وهو تكذيبهم بالساعة، وأننا اعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا، فإن تكذيبهم بها وعدم خوفهم منها أعجب من القول السابق.

على أنه من المسلم به أنه يقصد بأن الجواب على شبهتهم لن يدخل قلوبهم لأنهم يكذبون بالآخرة، فينتهز هذه الفرصة ليصف لنا أمور الساعة وجزاء المكذبين بها، وجزاء المؤمنين.

ثم تمضى بنا السورة الكريمة فى استعراض الشبه ونقضها وبيان كذبها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾(2).

شبهة أحقر من كل الشبه التى سبقتها، فلم يكتفوا بالأدلة من الرسول ﷺ، علـى نزول الوحى بل طلبوا أن يروا الملك النازل بالوحى، ويروا الله سبحانه وتعالى الذى بعثه.

ولم يكن هناك أبلغ من رد القرآن عليهم:

---

(1) سورة الفرقان الآية: ١٠.

(2) سورة الفرقان الآية: ٢١.

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.

انها جرأة كبيرة منهم أن يعتبروا الله سبحانه وتعالى مثل بقية الماديات، يمكن رؤيته بالعين، وهو الذى لاتدركه الأبصار، ولا تثبت أمام رؤيته السموات والجبال.

وأيضا بالنسبة للملائكة: فإنهم يوم يرونهم لابشرى يومئذ للمجرمين، ويقولون حجرا محجورا:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[1].

لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا﴾[2].

ولكن هل ينفع الندم بشىء بعد أن أصبح كل ماعملوا من عمل: هباء منثورا؟.

ثم تمضى بنا السورة الكريمة تبين لنا شكوى الرسول ﷺ من الكافرين:

﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾.

ولكن الله سبحانه وتعالى يطمئنه، ويبين له أنه سينتقم منهم، ويهديه وينصره.

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾[3].

فكذلك انتقم الله سبحانه من قوم موسى ، وهارون، ونوح.

وانتقم من قوم عاد وثمود وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك، ودمرّ قوم لوط.

ثم تعود بنا السورة مرة أخرى إلى بيان اعتراضات المشركين بقولهم:

﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾[4].

يريدون أن يشككوا فى القرآن لنزوله منجما فى سنين عديدة بأنه نزل مفرقا هكذا نظرا لصناعة الرسول ﷺ، ووضعه له، ولكن الله سبحانه وتعالى رد عليهم وعكس قصدهم، وبين لرسوله ﷺ أن نزول القرآن كذلك أثبت لقلبه وأنفع له، وللدعوة، وأن التحدى يقع به سواء كان جملة، أو آحادا فتكون حجة القرآن أكبر، وأن يكون هناك تدرج وترقى فى العقائد، والتشريع، والأخلاق:

(١) سورة الفرقان الآيات: ٢٧، ٢٨، ٢٩.

(٢) سورة الفرقان الآية: ٣١.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٣١.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٣٢.

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾(١).

ويستمر المشركون فى شبههم على رسول الله ﷺ باتخاذه هزوا وقولهم:

﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(٢).

كبرت كلمة تخرج من أفواههم: أيسمون ضلال الشرك وعبادة الأصنام هداية، ونور الوحدانية ضلالا؟

إن التعود على الضلال وعلى الإثم، يصل فى النهاية بصاحبه إلى استمرائه وإلى الإيمان به، ثم الدفاع عنه.

لقد وصل بهم الأمر إلى أن اتخذوا إلههم هواهم، لقد أصبحوا كالأنعام بل هم أضل سبيلا وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا:

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾(٣).

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾(٤).

ولكن بعد هذه الحجج التى ساقها لنا القرآن الكريم، على العقائد الثلاث:

التوحيد – النبوة – الجزاء فى الآخرة.

هل اقتنع المشركون بها؟ أم استمروا على عنادهم الفارغ واستكبارهم، المتمكن من نفوسهم؟

إن المشركين استمروا على هذا العناد، وهذا الإستكبار رغم أن القرآن كان واضحا كل الوضوح فى دلائله وفى إنارة العقائد التى جاء بها.

وهذا ماتظهره لنا الآيات التالية:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً.

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيراً.

فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً.

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٣٢.
(٢) سورة الفرقان الايات: ٤١، ٤٢.
(٣) سورة الفرقان الآية: ٤٣.
(٤) سورة الفرقان الآية: ٤٤.

وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُوراً.

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُهُمْ وَلا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيراً.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً.

قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً، وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً.

الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُوراً﴾(١).

لقد ألقت إلينا تلك الآيات بالضوء الواضح على نفسية المشركين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً.

ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً.

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾(٢).

لقد أعاد الله سبحانه وتعالى على الناس هذا القول ليذكروا، فأبى أكثر الناس إلا كفورا.

ومع ذلك: فإن الآيات تطلب من الرسول ﷺ، ألا يساير الكافرين ولايستسلم لهم ولايركن إلى اليأس لمعاندتهم وكبرهم:

﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَاداً كَبِيراً﴾(٣).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾.

---

(١) سورة الفرقان الآيات: ٥٠، ٦٠.

(٢) سورة الفرقان الآيات: ٤٥، ٤٩.

(٣) سورة الفرقان الآية: ٥٢.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً .
وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾(١)

أربع آيات تحدد لنا الموقف الذى طلبه الله سبحانه وتعالى من رسوله ﷺ، أن يتخذه من المشركين فى دعوتهم إلى الإسلام، وترسم له منهجا لمحاجتهم وهدايتهم.

وبعد هذه الافاضة فى بيان ماعليه المشركون وذكر شبههم وتقرير الرد عليها، ترسم لنا السورة صورة مثلى لعباد الله المخلصين، وتجعلها الغاية من الإيمان ومن نزول القرآن الكريم.

فتمضى بنا السورة إلى صفات عباد الله الحقيقيين، وما يجب أن يتحلوا به من قيم، هى تطبيق عملى لعقائد الإسلام التى سبق ذكرها مما لايجعل من الإسلام مجرد فلسفة نظرية، بل علم وعمل يؤثر على الفرد وعلى الجماعة.

وأول هذه الصفات التواضع ومقابلة السيئة بالحسنة:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾(٢).

ثم تأتى العبودية لله سبحانه وتعالى وهى أشرف صفات المخلوقين:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً وَقِيَامًا﴾(٣).

ثم يأتى بعد ذلك الخوف من الله سبحانه وتعالى، ومن عذابه على الرغم من اجتهادهم فى عبادة الله سبحانه وتعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(٤).

ثم النهي عن الاسراف والبخل مما يكون فيه صلاح الدنيا وعمرانها، وصلاح المجتمع والفرد:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾(٥).

---

(١) سورة الفرقان الآيات: ٥٦ ، ٥٨.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٦٣.
(٣) سورة الفرقان ٦٤.
(٤) سورة الفرقان الآيات: ٦٥ ، ٦٦.
(٥) سورة الفرقان الآى: ٦٧.

ثم إنهم لايشركون مع الله أحدا حيا أو ميتا، لأن كل ماعداه لايضر ولاينفع:

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾[١].

وفى نفس الآية: وضع قتل النفس، والزنا، بجوار الكفر بالله، مما يدل على عظم تأثير ضرر القتل والزنا على الفرد وعلى الجماعة، يكاد يبلغ تأثير الكفر بالله، فإن هذه ليست من شيم العباد الخلص للرحمن، فان من يفعل ذلك يلق أثاما، ويضاعف له العذاب:

﴿وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾[٢].

على أن السورة الكريمة رغم ذلك تفتح لنا باب المغفرة بثلاثة شروط هى:

التوبة - والإيمان والعمل الصالح.

﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾.

﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾.

ومن صفات عباد الرحمن أيضا: أن لايحضروا باطلا ولايساعدوا عليه، وأن ينكروه حتى لايكون له أبلغ الأثر على المجتمع، وحتى الأمر الذى يكون فى نفوسهم قليل الأهمية فعليهم أن يجتنبوه ويتعاونوا فيما بينهم على الحق، ولايكون الزور أساس حياتهم.

وإذا اتفق مرورهم بأهل اللغو مروا معرضين عنهم، ولايخوضون معهم فيه، كما قال الله تعالى فى سورة القصص:

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾[٣].

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[٤].

(١) سورة الفرقان الآية: ٦٨.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٦٩.
(٣) سورة القصص الآية: ٥٥.
(٤) سورة الفرقان الآية: ٧٢.

ثم تستطرد السورة الكريمة فى وصف عباد الرحمن بما يناقض وصفها للمشركين من قبل، فتصفهم بأنهم إذا ذكروا بآيات ربهم أقبلوا عليها وانتبهوا لها، واهتموا بها أبلغ اهتمام:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾(١).

ثم تقول السورة الكريمة فى صفات عباد الرحمن:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٢).

فمن الطبيعى أن تكون من صفات عباد الرحمن أن يدعوا الله سبحانه وتعالى أن يرزقهم ذرية صالحة، وأزواجا صالحات قانتات حافظات للغيب وأن يطلبوا من الله سبحانه وتعالى أن يساعدهم على تقواهم ويجعلهم فى درجات عالية بحيث يكونون قدوة لغيرهم، فان الصالح يجب أن تعيش فى بيته أسرة صالحة تقية خاصة مع أقرب الناس من ولد وزوج، ويجب أيضا أن تزيد رفعته ودرجته عند الله بكثرة عبادته وصلاحه.

ثم نمضى إلى ختام صفات عباد الرحمن التى ذكرتها السورة وهى الجزاء المنتظر للعباد الموصوفين بهذه الصفات:

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾(٣).

ثم يختتم الله سبحانه وتعالى السورة بأبلغ عبارة، تعد دستورا يجب أن يقال فى كل مناسبة تستدعى الإنذار والتبشير.

فإنه لولا الإيمان وطاعة الله سبحانه وتعالى، واللجوء إليه فى الشدائد لما أكترث الله سبحانه بأى فرد؛

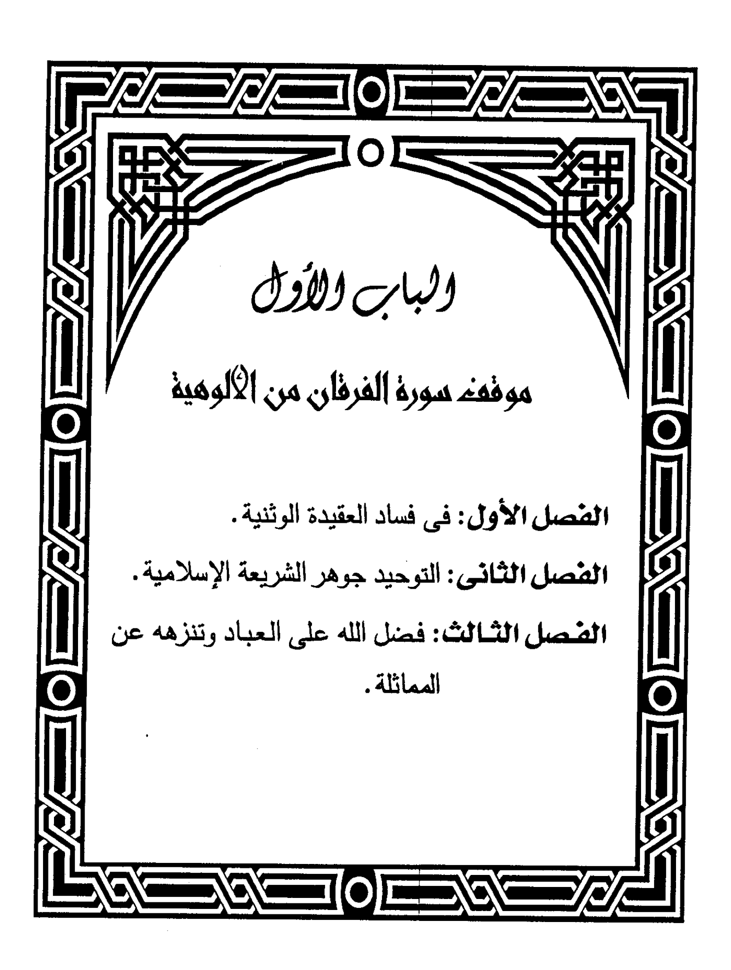
فالعبادة هى لمصلحة العابد نفسه، ولاتغنى الله شيئا:

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾(٤).

(١) سورة الفرقان الآية: ٧٣. (٢) سورة الفرقان الآية: ٧٤.

(٣) سورة الفرقان الآيات: ٧٥، ٧٦.

(٤) سورة الفرقان الآية: ٧٧. وإلى هنا تكون السورة قد أتت على مقاصد دعوة الإسلام. كاملة: من العقيدة بأجزائها الثلاثة: التوحيد، والنبوة، والبعث، والعبادة. وهي علاقة الفرد بربه، والمعاملة، وحتى علاقة الفرد بأخيه، ورسمت السورة الفاضلة مايجب أن يسير عليه المؤمن: عقيدة، وعبادة، وعملا.



الباب الأول

موقف سورة الفرقان من الألوهية

الفصل الأول: فى فساد العقيدة الوثنية.

الفصل الثانى: التوحيد جوهر الشريعة الإسلامية.

الفصل الثالث: فضل الله على العباد وتنزهه عن المماثلة.

الفصل الأول

فى فساد العقيدة الوثنية

تبتدئ السورة الكريمة –أول ما تبتدئ– ببيان عقيدة التوحيد وتوضيحها توضيحا لالبس فيه، مبينة خصائص الألوهية، وهى: الملك، والخلق والتقدير، والاستغناء عن الولد والشريك.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1].

ثم تقارن السورة هذه الخصائص، بعقيدة الشرك، والوثنية مبينة فساد هذه العقيدة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[2].

ومع أن عقيدة الشرك والوثنية، المذكورة فى الآية جاءت بعد عقيدة. التوحيد فى الترتيب فإننا نقدم هذا الفصل عن العقيدة الوثنية حتى تتضح الصورة وضوحا كاملا بالنسبة لعقيدة التوحيد، ويظهر لنا فساد العقيدة الوثنية فتأتى بعد ذلك عقيدة التوحيد كالنتيجة لموقف سورة الفرقان من الألوهية.

تعريف العقيدة الوثنية:

هل العقيدة الوثنية تدخل فى نطاق التعريفات لكلمة دين؟

وهل هى تقصد دينا من الأديان؟

عندما نستقرئ أشهر التعريفات للدين، وقد عددها الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه الدين ونذكر أهمها، يقول:

«أما الإسلاميون فقد اشتهر عندهم تعريف الدين بأنه: «وضع إلهى سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح فى الحال والفلاح فى المال، ويمكن تلخيصه بأن تقول:

(١) سورة الفرقان الآيات: ١، ٢.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٣.

الدين وضع إلهى يرشد إلى الحق فى الاعتقادات، وإلى الخير فى السلوك والمعاملات.

وأما الغربيون فلهم فى ذلك تعبيرات شتى، وهذه نماذج منها: يقول سيسرون فى كتابه «عن القوانين».

«الدين هو الرباط الذى يصل الإنسان بالله».

ويقول كانت فى كتابه (الدين فى حدود العقل).

«الدين هو الشعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهية».

ويقول سلافر ماخر فى (مقالات عن الديانة)

«قوام حقيقة الدين شعورنا بالحاجة والتبعية المطلقة».

ويقول الأب شاتل فى كتاب (قانون الانسانية)

«الدين هو مجموعة واجبات المخلوق نحو الخالق.

واجبات الإنسان نحو الله، وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه.

ويقول تايلور فى كتاب (المدنيات البدائية):

«الدين هو الإيمان بكائنات روحية».

ويقول إميل برنوف فى علم الديانات:

«الدين هو العبادة، والعبادة عمل مزدوج، فهى عمل عقلى به يعترف الإنسان بقوة سامية، وعمل قلبى، أو انعطاف محبة يتوجه به إلى رحمة تلك القوة».

ويقول إميل دور كايم:

«الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة) اعتقادات وأعمال تضم أتباعها فى وحدة معنوية تسمى الملة[١].

عند ما نستقرئ هذه التعريفات، نجد أنها حصرت تعريف الدين فى نطاق الأديان السماوية ذات الآله الواحد، ولم تشمل تعريف الديانات الوثنية وغيرها، من الديانات الناتجة عن الخرافات والأساطير، بل إن منها من لم يتعرض للألوهية فى تعريفه على الاطلاق كما فعل إميل دور كايم فى تعريفه عن الدين.

---

(١) كتاب الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص٢٦ إلى ص٢٨.

فإننا اذا نظرنا فى تعريف الاسلاميين نجد أنه لايضم سوى الاعتراف بعقيدة الأله الواحد، وبأنه وضع إلهى، أى آت من عند الإله الواحد سائق لذوى العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح فى الحال، والفلاح فى المآل.

وهو مما لا ينطبق بحال على العقيدة الوثنية.

واذا نظرنا إلى تعريفات الغربيين وتعبيراتهم الشتى، نجد تعريف (سيسرون):

«الدين هو الرباط الذى يصل الانسان بالله».

نجد أيضا أن العقيدة الوثنية تخرج من نطاق هذا التعريف فانه اشترط الرباط الذى يصل الانسان بالله الواحد.

وكذلك تعريف كانت (الدين هو الشعور بواجباتنا:

«من حيث كونها قائمة على أوامر الهية» اشترط التعريف وجود أمر الهى فقط للقيام بواجباتنا.

أما تعريف سلافر ماخر:

قوام حقيقة الدين شعونا بالحاجة والتبعية المطلقة».

فانه يقرب بعض الشئ من التعريف الذى نريده، ولكن ينقصه الكثير لتحديد المطلوب وينقصه الكثير حتى بالنسبة لتعريف ديانات التوحيد.

وبالنسبة لتعريف الأب شاتل:

«الدين هو مجموع واجبات المخلوق نحو الخالق: واجبات الانسان نحو الله وواجباته نحو الجماعة، وواجباته نحو نفسه.

نجد أن هذا التعريف يبعد فى أساسه عن التعريف الذى نريده فانه لم يحدد لنا ما مدى انطباق هذه الواجبات نحو الخالق على واجبات عابد الوثن؟ وهنا أيضا يحدد التعريف: الاله بأنه الخالق، وهذا ينطبق على الاله الواحد.

أما تعريف تايلور: «الدين هو الايمان بكائنات روحية»، فهو لاينطبق على الإطلاق على مرادنا من شمول التعريف للعقيدة الوثنية بل قد لاينطبق تمام الانطباق فى الأساس ولا فى التفاصيل على ديانة التوحيد.

أما تعريف اميل برنون: «الدين هو العبادة والعبادة عمل مزدوج»، فهى عمل عقلى به يعترف الانسان بقوة سامية وعمل قلبى أو انعطاف محبة يتوجه به إلى رحمة تلك القوة».

فإنه لايحدد لنا مفهوم تلك القوة السامية التى بها يعترف الإنسان بصورة واضحة وتجعل العبادة مجرد عمل عقلى أو انعطاف محبة.

وإذا جئنا إلى تعريف الملحدين، وأشهر من يمثلهم إميل دوركايم:

«الدين مجموعة متساندة من الاعتقادات والأعمال المتعلقة بالأشياء المقدسة (أى المعزولة المحرمة - اعتقادات وأعمال تضم أتباعها فى وحدة معنوية تسمى الملة».

نجد أنه يعرف الدين على أساس الوثنية أو الطوطم فقط، ولايذكر الألوهية على الإطلاق، ونحن نريد تعريفا يشمل العقيدتين معا بحيث تنطبق عليهما كلمة دين.

وبعد أن استقرأنا التعريفات السابقة وجدنا أنها حصرت تعريف الدين فى نطاق الأديان السماوية، ذات الآله الواحد، ولم تشمل الديانات الوثنية، وغيرها من الديانات الناتجة عن الخرافات والأساطير، بل إن منها من لم يتعرض للألوهية على الإطلاق فى تعريفه.

التعريف الذى نرتضيه:

إذا قربنا من نطاق التعريفات الوضعية للدين ونظرنا فى القرآن نجده يعبر عن جميع المعتقدات غير عقيدة الإسلام بلفظ دين.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا﴾[1].

بل إنه يخاطب الكافرين بلفظ دين:

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[2].

وفى الآية التى نحن بصدد دراستها تعبر عن معبودات الكافرين بلفظ آلهة:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا وَلا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُورًا﴾[3].

(١) سورة آل عمران الآية: ٨٥.
(٢) سورة الكافرون الآية: ٦.
(٣) سورة الفرقان الآية: ٣.

ويؤيد كل ذلك: أن هذه المعبودات التى كان يتخذها المشركون لم تكن تعبد لذاتها، بل كانت واسطة بينهم وبين الآله المعبود.

﴿... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ...﴾(١).

بل إن معظم أبحاث العلماء فى نفسيات وطبائع الشعوب البدائية أظهرت أنهم لايقدسون الأشياء المعبودة الظاهرة المحسوسة لهم، أو يعبدونها، لذاتها بل إنهم يقدسون لكونها رمزا لشئ عظيم، ومقدس عندهم، أولأنها تعويذة تبعد عنهم شرورا، أوتجلب لهم نفعا، وأنهم جميعاً مؤمنون بقوة أعلى، وأن هذا الشيء المحسوس ليس إلا مظهرا لها.

ومن هذا المنطلق: فإننا نرتضى تعريف الدكتور محمد عبد الله دراز، لأنه يشمل كل ما من شأنه أن يسمى دينا.

«الدين هو الاعتقاد بوجود ذات أوذوات غيبية، علوية، لها شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشئون التى تعنى الإنسان اعتقادا من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية، فى رغبة ورهبة، وفى خضوع وتمجيد.

وبعبارة موجزة هو الإيمان بذات إلهية ، جديرة بالطاعة والعبادة»(٢).

هذا إذا نظرنا إلى الدين من حيث هو حالة نفسية، بمعني التدين.

أما اذا نظرنا إليه من حيث هو حقيقة خارجية فنقول:

«هو جملة النواميس النظرية التى تحدد صفات تلك القوة الإلهية وجملة القواعد العملية التى ترسم طريق عبادتها، ونحن نرتضى هذا التعريف لأنه نظر إلى الدين من ناحيتين.

(١) المعنى المصدرى القلبى.

(٢) مجموعة التكاليف التى جاءت فيه.

فإذا كلمة الدين لها إطلاقان: إطلاق بالمعنى المصدرى، وإطلاق بمعنى الكتاليف التشريعية.

وعلى هذا فلا يمكن جمع المعنيين فى تعريف واحد.

---

(١) سورة الزمر الآية: ٣.

(٢) كتاب الدين؛ للدكتور محمد عبد الله دراز ص٤٠.

نشأة العقيدة الوثنية

إختلف العلماء فى نشأة العقيدة الوثنية، وهل كانت سابقة على ديانات التوحيد، ثم تطورت حتى وصلت إلى تلك الديانات؟

أم أن التوحيد كان هو الأصل، ثم كانت تنطمس معالمه بتقادم العهد به، وتأتى عبادة الأوثان حتى يبعث الله رسولا يبين معالم التوحيد من جديد، وهكذا.

أما الفريق الذى ذهب إلى أن الدين بدأ فى صورة الخرافة والوثنية فهو يرى:

أن هناك ثلاثة أطوار عامة، مرت بها الأمم البدائية فى اعتقادها بالآلهة والأرباب.

وهى دور التعدد.

ودور التمييز والترجيح.

ودور الوحدانية.

ففى دور التعدد، كانت القبائل الأولى تتخذ لها أربابا تعد بالعشرات وقد تتجاوز العشرات إلى المئات.

وفى الدور الثانى؛ وهو التمييز والترجيح - تبقى الأرباب على كثرتها ويأخذ رب منها فى البروز والرجحان على سائرها.

وفى الدور الثالث؛ توجد الأمة فتجتمع إلى عبادة واحدة، تؤلف بينها مع تعدد الأرباب فى كل إقليم من الأقاليم المتفرقة[1].

ثم ينتهى الأمر بالأستاذ عباس محمود العقاد إلى أن يقرر أن:

ديانة الشمس، كانت الخطوة السابقة لخطوة التوحيد. الصحيح لأنها أكبر ماتقع عليه العين، وتعلل به الخليقة والحياة، فإذا دخلت هى أيضا فى عداد المعلولات فقد أصبح الكون كله فى حاجة إلى خالق موجد للأرض والسماء، والكواكب والأقمار.

وينطبق هذا الترتيب تمام الانطباق على فحوى قصة إبراهيم فى القرآن الكريم.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا

(١) كتاب (الله) للأستاذ عباس محمود العقاد ص١٤.

قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ

فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ

إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلا تَتَذَكَّرُونَ﴾[١].

ويبدو أن الأستاذ العقاد يميل إلى هذا الرأى نظرا لتأييده له بالآية الشريفة، واستدلاله بها[٢] رغم بعدها فى ظاهرها وجوهرها، عن التفسير الذى ارتآه لها بكون سيدنا إبراهيم عليه السلام كان هو المتحير والطالب للاهتداء فى أول الأمر.

الرد على شبهة الأستاذ عباس محمود العقاد:

- قال المحققون من العلماء.

أنه لايجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتى عليه وقت من الأوقات، إلا وهو لله تعالى موحد، وبه عارف، ومن كل معبود سواه برىء، وقد نفى الله تعالى، من حال إبراهيم عليه السلام خصوصا فى صغره مالا يتوهم معه شائبة مما يناقض ذلك[٣].

وقد ساق الفخر الرازى من الحجج على فساد رأى من قال بأن سيدنا إبراهيم عليه السلام، هو الذى كان طالبا لهداية؛ يقول:

١ - إن براهيم عليه السلام، كان قد عرف ربه، قبل هذه الواقعة بالدليل، والدليل على صحة ماذكر: أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر:

﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾[٤]؟.

٢ - دعا عليه السلام أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام، بالرفق حيث قال:

﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾[٥].

(١) سورة الأنعام الآيات: ٧٦ - ٨٠.
(٢) كتاب (الله) الأستاذ عباس محمود العقاد ص٢٢.
(٣) روح المعانى جـ٧ ص١٧٣.
(٤) سورة الأنعام آية: ٧٤. (٥) سورة مريم الآية: ٤٢.

وحكى فى هذا الموضع؛ إنه دعا أباه إلى التوحيد، وترك عبادة الأصنام بالكلام الخشن واللفظ الموحش.

ومن المعلوم: أن من دعا غيره إلى الله تعالى، فإنه يقدم الرفق ولا يخوض فى التعنيف والتغليظ، إلا بعد المدة المديدة، واليأس التام، فدل هذا على أن هذه الواقعة، إنما وقعت بعد أن دعا أباه إلى التوحيد مرارا وأطوارا.

ولاشك أنه: إنما اشتغل بدعوة أبيه بعد فراغه من نفسه فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن عرف الله بمدة.

٣ - قال الله تعالى قبل هذه الآيات:

﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1].

أى: وليكون بسبب تلك الإراءة من الموقنين.

ثم قال بعد ذلك:

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾.

والفاء تقتضى الترتيب، فثبت أن هذه الواقعة إنما وقعت بعد أن صار إبراهيم من الموقنين العارفين بربه.

٤ - إن هذه الواقعة: انما حصلت بسبب مناظرة إبراهيم عليه السلام مع قومه، والدليل عليه: أنه تعالى لما ذكر هذه القصة قال:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾[2].

ولم يقل: على نفسه: فعلم أن هذه العبارة أنما جرت مع قومه، لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن إبراهيم كان يطلب الدين والمعرفه لنفسه.

٥ - إن الرواية التى ذكرها الطبرى عن ابن إسحاق تفيد: أن إبراهيم عليه السلام، إنما اشتغل بالنظر فى الكواكب، والقمر والشمس، حال ماكان فى الغار وهذا باطل، لأنه الأمر ولو كان الأمر كذلك فكيف يقول.

﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[3].

(١) سورة الأنعام الآية: ٧٥. (٢) سورة الأنعام الآية: ٨٣. (٣) سورة الأنعام الآية: ٧٨.

مع أنه ما كان فى الغار قوم ولاصنم.

٦ – قال الله تعالى بعد هذه الآيات:

﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ﴾[١]؟.

وكيف يحاجونه وهم بعد ما رأوه وهو ما رآهم [٢] أهـ.

من هذه الأدلة يتضح الرد على الشبهة والواقع أننا أفضنا فيها لأن لايلتبس على الناس الأمر بالنسبة لأدلة القائلين بأسبقية الديانات الوثنية على ديانات التوحيد.

حتى زعم بعضهم أن عقيدة الاله الواحد عقيدة حديثة وأنها وليده عقلية خاصة بالجنس السامى[٣].

القائلون بأن أصل الدين التوحيد:

أما الفريق القائل بأن أصل الدين التوحيد، وأنه الفطرة التى فطر الله الناس عليها، فإنها وجدت لها من المؤيدين مستدلين عليها بكثير من الطرق العلمية.

ومن أشهر هؤلاء الفريق:

لانج: الذى أثبت وجود عقيدة الاله الأعلى؛ عند القبائل الهمجية فى استراليا وإفريقيا وأمريكا.

ومنهم شريدر الذى أثبتهاعند الأجناس الآرية القديمة.

وبرو كلمان وجدها عند الساميين قبل الإسلام.

ولورواه عند أقزام أواسط إفريقيا.

وشميدت عند الأقزام وعند سكان أستراليا الجنوبية الشرقية وقد انتهى بحث شميدت هذا إلى أن فكرة الإله الأعظم توجد عند جميع الشعوب الذين يعدون من أقدم الأجناس الإنسانية[٤].

على أنه يهمنا –تكملة لهذا الموضوع– إضافة رأى عربى فى نشأة العقيدة الوثنية، وهذا الرأى هو رأى أبو المنذر هشام بن السائب الكلبى فى كتابه الأصنام.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٨٠.

(٢) الفخر الرازى جـ٤ ص٧٥.

(٣) كتاب الدين للدكتور محمد عبد الله دراز ص١٠٣.

(٤) كتاب الدين للدكتور محمد عبد الله دراز.

رأى أبو المنذر هشام بن السائب الكلبى[1]:

«أول ما عبدت الأصنام أن آدم عليه السلام لما مات جعله بنو «شيث» ابن آدم فى مغارة فى الجبل الذى أهبط عليه آدم بأرض الهند.

وكان بنو شيث يأتون جدهم آدم فى المغارة، فيعظونه ويترحمون عليه فقال رجل من بنى قابيل بن آدم.

«يابن قابيل، ان لبنى شيث دوارا يدورون حوله ويعظمونه، وليس لكم شىء فنحت لهم صنما فكان أول من عمل الأصنام، ثم قال أبو المنذر:

«كان ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا، كانوا قوما صالحين، ماتوا فى شهر فجزع عليهم ذوو أقاربهم.

فقال رجل من بنى قابيل:

«ياقوم هل لكم أن أعمل لكم خمسة أصنام على صورهم، غير أنى لاأقدر أن أجعل فيها أرواحا؟»

قالوا: نعم.

فنحت لهم خمسة أصنام على صورهم ونصبها لهم، فكان الرجل يأتى أخاه، وعمه، وابن عمه، فيعظمه ويسعى حوله، حتى ذهب ذلك القرن الأول.

ثم جاء قرن آخر فعظموهم أشد من تعظيم القرن الأول.

ثم جاء من بعدهم القرن الثالث، فقالوا:

«ماعظم أولونا هؤلاء الا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوهم وعظم أمرهم، واشتد كفرهم، فبعث الله اليهم إدريس عليه السلام، فدعاهم فكذبوه فرفعه الله إليه مكانا عليا[2].

ولم يزل أمرهم يشتد فى مجىء نوح عليه السلام، فبعثه الله إليهم نبيا وهو يومئذ ابن أربعمائة وثمانين سنة، فدعاهم إلى الله فى نبوته مائة وعشرين سنة، فعصوه

(١) كتاب الأصنام ص٥٠ أبو المنذر هشام بن السائب الكبلى.
وكتاب الأديان فى القرآن الكريم للدكتور محمود بن الشريف.

(٢) يقول الله سبحانه: «واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ورفعناه مكانا عليا، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم..» مريم ٥٦ – ٥٨.

وكذبوه، فأمره الله: بصنع الفلك، ففرغ منها وركبها، وهو ابن ستمائة سنة، وغرق من غرق، ومكث بعد ذلك ٣٥٠سنة، فعلا الطوفان وطبق الأرض كلها وكان بين ادم ونوح ٢٢٠٠سنة فأهبط ماء الطوفان هذه الأصنام بشدة من جبل نوذ بالهند إلى الأرض، وجعل الماء يشتد جريه وعبابه من أرض إلى أرض حتى قذفها إلى أرض جدة، ثم نضب الماء وبقيت على الشط فسفت الريح عليها حتى وارتها[1]،أهـ.

تقييمنا للأراء السابقة فى نشأة العقيدة الوثنية:

إذا قيمنا آراء العلماء الغربيين سواء منها القائل: بأسبقية الوثنية على التوحيد، أو بأسبقية التوحيد على الوثنية، نخرج بالنتائج التالية:

١ – أننا لانستطيع أن نؤكد –فى ثقة ويقين– نشأة الوثنية وتاريخها، فان تحديد تاريخها ونشأتها يعود بنا إلى أزمان سحيقة لايستطيع أى باحث الوصول إلى أبعادها، فكل هذه النظريات ليست إلا فروضا ظنية وتخمينات عقلية.

٢ – أن العلماء يبنون افتراضاتهم على أساس ترقى الإنسان من الجهل والخرافة إلى العقيدة السليمة بالتدريج، وهذا فيه شك نظرا لأن بعض علماء الإنسان الآخرين، وعلماء الآثار، ذكروا – فى كثير من كتبهم. استدلالات على أن الشعوب التى نراها بدائية الآن سبقتها حضارات كان لها أثر كبير فى الماضى، وأن كثيرا من الشعوب التى نراها متقدمة قد سبقتها فى أغوار بعيدة من الزمن فترة من الظلام، والجهل، والتخلف.

٣ – أن منهج هؤلاء العلماء قائم على استقراء أحوال الأمم الموجودة فى عصرنا، ولكنها متخلفة، وبدائية، ومنعزلة عن العالم المحيط بها، فهى فى نظرهم تمثل الحالة التى كان عليها الإنسان فى بدايته، وهذا مبنى على الفرض والتخمين، فقد تكون هذه الحالة سبقتها مدنية عظيمة، وكثير من القبائل الهمجية قد مرت بأدوار شتى وتطورات بعيدة المدى.

(١) وتوضح لنا سورة هود الموضوع بروايتها التى لاتقبل شك.

٤ - إن العلماء وضعوا فروضهم تلك على أساس تماثل أبناء كل عصر فى تفكيرهم، ونوعية عبادتهم، ونحن نلاحظ أن فى كل عصر وكل أمة يكون هناك بعض الأفراد المستنيرين وبعضهم تغشاه الظلمة، ولعل المثل الموجود بين أيدينا هو موقف الحنفاء فى المجتمع القرشى.

٥ - قاس العلماء التطور فى الدين على التطور الحضارى مع أن التاريخ يثبت عكس ذلك، فلربما تكون الأمة غاية فى الحضارة، وفى الفكر الدينى غاية فى التأخر والجهل كحال الامبراطوريات الفارسية والرومانية والهندية.

فمع تقدم هذه الأمم الحضارى الكبير كانت فى غاية الاغراق فى عبادة الأوثان.

تقييم رأى أبو المنذر هشام بن السائب الكلبى:

إذا قيمنا رأى أبى المنذر هشام بن السائب الكلبى، نجد أنه اعتمد فى مصادره فى هذا الرأى على أقوال الإخباريين من العرب ولم يكن فى يده نص أو نصوص ثابتة تصلح أن تكون أدلة مؤكدة على رأيه ذلك صحيح أن رأيه هذا له أساس إسلامى، إلا أن التفاصيل التى جاء بها لم توجد لها مصادر تؤكدها.

النتيجة التى تخرج بها من تقييمنا لهذا الآراء:

بعد تقييمنا للآراء السابقة فى نشأة العقيدة الوثنية نخرج بالنتيجة التاليه، وهى أن جميع الفروض والنظريات السابقة لاتصلح أساس لتأريخ العقيدة الوثنية وبيان نشأتها.

ويعود التساؤل مرة أخرى، فلا نجد إلا أن نسترشد بنصوص الكتب السماوية المعصومة والقرآن بصفة رئيسية فهو الوحى المعصوم، والنور المضىء فى ظلمة التاريخ.

والواقع أن القرآن يقدم لنا البيان الشافى فى هذا الموضوع بعد أن ثبت عجز وسائلنا البشرية عن الوصول إليه.

ويؤيدنا فى هذا الرأى الدكتور محمد عبد الله دراز فى كتابه «الدين» يقول بعد أن استقرأ أقوال العلماء فى هذا الموضوع.

هكذا عجزت وسائل العلوم، أن تقدم لنا بيانا شافيا يطمئن إليه القلب عن ديانة الإنسان الأول، أما من أحب أن يسترشد بنصوص الكتب السماوية، فإنه سوف يجد فيها مايشد أزر القائلين بأولية العقيدة الالهية الصحيحة، لا فى الغريزة فحسب:

«فطرة الله التى فطر الناس عليها».

بل فى التطور الزمانى كذلك:

فهذه النصوص تنادى بأن الناس بدأوا حياتهم مستقيمين على الحق مؤتلفين عليه، وأن الإنحراف والإختلاف انما جاء عرضا طارئا بعد ذلك.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾[1].

وإن استمرار هذا الخلاف، واتساع شقته، انما كان بتأثير الوراثة، وتلقين كل جيل عقيدته للناشئين فيه:

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، أويمجسانه[2] وإلى ذلك كله فان الكتب السماوية متفقة على أن الجماعة الانسانية الأولى، لم تترك وشأنها، تستلهم غرائزها وحدها بغير مرشد ومذكر، بل تعهدتها السماء بنور الوحى من أول يوم، فكان أبو البشر هو أول الأفذاذ المسلمين، وأول المؤمنين الموحدين، وأول المتضرعين الأوابين.

لكن الإلتجاء إلى هذه النصوص اعتراف ضمنى، بأن وسائل العلم البشرى وحدها عاجزة عن أن تصل بنا من طريق يفضى إلى نقطة البدء الحقيقى للدين.

والواقع أن الحل النهائى لهذه المسألة إنما يكون عن طريق الوحى، لأنها داخلة فى منطقة الغيب التى هى موضوع الإيمان، وليست من شأن العلوم الإستقرائية، ولا العلوم الاستنتاجية.

---

(١) سورة يونس الآية: ١٩.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو يعلى فى مسنده، والطبرانى فى المعجم الكبير، والبيهقى فى السنن عن الأسود بن سريع.

وجملة القول: أن كل النظريات التى حاولت تحديد ديانة الإنسان الأول، بالتطبيق على ديانات القرون الماضية، أو الأمم الهمجية فصورتها لنا تارة سقيمة، وتارة ملفقة، إنما هى افتراضات مثبوتة على افتراضات، فهى لاتصف الحق الثابت الذى هو مطلب العلم الصحيح، وإنما تعرض احتمالات تشبه الحق قليلا أوكثيرا[١].

نشأة الوثنية فى الجزيرة العربية:

نص علماء الملل والنحل المسلمين، وكتاب السير، على أن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام -فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل لوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية- هو (عمرو بن ربيعة)، وهو لحى بن حارثة بن عامر الأزدى.

ويؤكد ذلك: ماروى فى مسند الإمام أحمد.

وأول من سبب السيائب وعبد الأصنام عمرو بن لحى الخزاعى.

وفى صحيح الإمام البخارى عن ابن عباس: أن ودا، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسرا، كانت أسماء أناس من عظماء قوم نوح وصالحيهم، فلما ماتوا صنعوا لهم هذه التماثيل، لتكون تذكارا لهم، وعظة واعتبارا لغيرهم، ليفعل مثل فعلهم، وبتوالى الزمن تناسى الناس هذا المعنى وعبدت هذه الأصنام من دون الله، ثم نقلها عمرو بن لحى إلى العرب.

وقال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبى ﷺ قال:

«ان عمرو بن لحى أول من غير دين اسماعيل، وبحر البحيرة، وسيب السائبة، وحمى الحامى».

ذكر ابن اسحاق أن عمرو بن لحى الخزاعى، خرج إلى الشام، وبها يومئذ العماليق، وهم يعبدون الأصنام فاستوهبهم واحدا منها وجاء به إلى مكة فنصبه إلى الكعبة، وهو هبل وكان قبل ذلك فى زمن الجراهمة قد فجر رجل يقال له أساف بامرأة يقال لها:

(١) الدكتور محمد عبد الله دراز كتاب الدين ص١٠٨.
(٢) فتح البارى جـ٧ ص٣٥٩ - ص٣٦٠.

«نائلة» فى الكعبة فمسخهما الله حجرين كى يعتبر بهما الناس ويتعظوا، فأخذهما عمرو بن لحى فنصبهما حول الكعبة، فصار من يطوف يتمسح بهما[١]

ويؤيد هذه الروايات جميعا ماجاء فى كتاب الأصنام لأبى المنذر الكلبى مما يماثل ذلك ويقاربه، فقد ذكر: أن أول من غير دين اسماعيل، فنصب الأوثان، وسيب السائبة، ووصل الوصيلة، وبحر البحيرة، وحمى الحامى، «عمرو بن ربيعة» وهو لحى بن حارثة بن عامر الأزدى، وهو الذى قاتل جرهم حتى أخرجهم من حرم مكة، واستولى عليها، وتولى حجابة البيت.

هذا عن نشأة الديانة الوثنية فى جزيرة العرب التى نثق فى مصادرها باعتبار أنها جاءت من الحديث الشريف، ومن كتاب السير المعتمدين، والرواه الموثوق بهم، كابن عباس.

ويؤيد كون عمرو بن لحى، هو أول من أدخل الأصنام فى جزيرة العرب، صاحب كتاب أديان العرب فى الجاهلية فيقول:

وأول من أدخلها (أى الأصنام والأوثان، إلى مكة، وماجاورها) «عمرو بن لحى» سيد خزاعة.

ذلك: أن جرهما كانوا قد طغوا فى الحرم، وظلموا واستحلوا منه أمورا عظاما، فأرسل الله اليهم «خزاعة» حين أجلاهم سيل العرم من بلادهم فطردوا «جرهما» منه وقتلوا من قتلوا منهم فشفى ذلك صدور أهل الحرم، وفرحوا بانتصار خزاعة على جرهم.

وربما ظنوا أن الله أرسله إليهم ليخلص أهل حرمه من جورهم وكان رئيس خزاعة «عمرو بن لحى»، فتولى سدانه البيت، ودانت له العرب واتخذوه ربا لايبتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شريعة.

وكان فوق ذلك قد ملكهم باحسانه، فربما نحر فى الموسم عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة، وكان يطعم الحجيج السويق.

(١) السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة ص٧٠ دكتور محمد أبو شهبة وطبقات ابن سعد.
(٢) الأصنام أبو المنذر الكلبى ص٦.

فدعاهم لعبادة الأوثان، وكانت نفوسهم مستعدة لعبادتها بما كانوا يعظمونه من حجارة الحرم، فأجابوه.

ثم يقول المؤلف:

وقد نص الشهرستانى فى الملل والنحل: أن عمرو بن لحى وضع الأصنام فى البيت، فى أول ملك سابور ذى الأكتاف[١].

ويقول الدكتور جواد على:

ويذكر أهل الأخبار أن الجاهليين جميعا من قحطان، وعدنان، كانوا قبل عمرو بن لحى موحدين، يعبدون الله، جل جلاله وحده، لايشركون به، ولاينقضونه.

فلما جاء «عمرو بن لحى» أفسد العرب ونشر بينهم أضاليل عبادة الأوثان بما تعلمه من وثنى الشام، حينما زارهم وحل بينهم فكان ولى الوثنية عند العرب والمبشر بها أو مضللهم الأول، وهو على رأيهم موزع الأصنام بين القبائل ومقسمها عليهم[٢].

ويؤيدنا أيضا ما جاء فى كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى الباب الأول ص٤٨.

أن أول من غير الحنيفية وبحر البحيرة وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحام عمرو بن لحى.

وهو عمرو بن ربيعة أبو خزاعة وهو أول من ولى البيت منهم ثم رحل إلى قومه بالشام فرأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادتها وقدم منه بهبل ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية، فأجابه الجمهور وأكثره من لم يجبه حتى استمر له ما أراد منه[٣].

وقال النبى ﷺ (اطلعت فى النار فرأيت عمرو بن لحى يجر قصبه فيها - والقصب المعا.

---

(١) أديان العرب فى الجاهلية لمحمد نعمان الجارم ص١٢٩، الأديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف ص٤٨.
(٢) راجع هذا الموضوع: كتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن السائب الكلبى، وحياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل، كتاب الأديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف، وكتاب أديان العرب فى الجاهلية... الخ.
(٣) كتاب الأوائل لأبى هلال العسكرى الباب الأول ص٤٨.

أمثلة من أسماء الأوثان وطقوس عبادتها[(١)]:

الواقع أننا فى هذا المجال سنذكر بعض أمثلة قليلة لأشهر المعبودات لأن عددها كبير أولا ولأن القصد هنا التمثيل لا الحصر.

١ - **ذو الخلصة**: بيت لخثعم كان يدعى الكعبة اليمانية، وكان فيه صنم يسمى «الخلصة».

قال الكلبى:

وكانت بتبالة (بين مكة واليمن مسيرة سبع ليال من مكة).

وكانت سدنتها: بنو أمامة، من باهلة بن أعسر، ثم يذكر الرواية التالية: ولما فتح رسول الله ﷺ مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها، قدم عليه: جرير بن عبد الله مسلما، فقال له:

ياجرير ألا تكفينى ذا الخلصة.

فقال بلى.. فخرج حتى أتى بنى أحمس من بجيلة، فسار إليه فقاتلت خثعم وباهلة دونه فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل، وأكثر القتل فى خثعم، وقتل مائتين من بنى قحافة بن عامر بن خثعم فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذى الخلصة وأضرم فيه النار فاحترق.

وروى البخارى بسنده عن جرير قال:

كان بيت فى الجاهلية يقال له: «ذو الخلصة» «والكعبة اليمانية» فقال له النبى ﷺ: ألا تريحنى من ذى الخلصة قال: فنفرت فى مائة وسبعين راكباً فكسرناه.

٢ - **اللات**: وهى صخرة كان يجلس عليها رجل من منى يبيع السمن للحجاج إذا مروا يلت سويقهم وكان ذا غنم فسميت الصخرة اللات فلما فقده الناس يوما قال لهم عمرو بن لحى:

---

(١) انظرو كتاب أديان العرب فى الجاهلية لمحمد بن نعمان الجارم، السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة، تاريخ الإسلام للدكتور حسن إبراهيم حسن.
وكتاب الأصنام لأبى المنذر هشام بن السائب الكلبى.

«إن ربكم اللات قد دخل فى جوف الصخرة، فبنوا على صخرته بيتا يعبده أهل الطائف ويسترونه بالثياب ويطوفون حوله.

٣ - **السعيدة**: بيت بجبل أحد كانت تحجه قبيلة ربيعة.

٤ - **ذو الكعبات**: بيت كانت تطوف به ربيعة.

أساف ونائلة:

وكان الطائف يبدأ إذا طاف البيت بأساف ويستلمه فاذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها.

الأقيصر: كانت قضاعة، ولحم، وجذام، وأهل الشام يحجون إليه ويحلقون رءوسهم عنده.

بعل: صنم كان من ذهب عبده قوم إلياس عليه السلام وقد نزل فيه .

﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾[1].

بوانه: وكانوا يجعلون لهم عيدا عند بوانة فى الجاهلية وكانت قريش تعبده، وتذبح له، وتعكف على عبادته يوما إلى الليل فى كل سنة.

سواع: صنم لقبيلة هذيل بن مدركة بأرض ينبع، كانوا يحجون إليه وينحرون عنده.

العزى: كانت من أعظم أصنام قريش، وكانوا يزورونها ويتقربون عندها بالذبائح، وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها.

(١) سورة الصفات الآيات: ١٢٢ - ١٢٥.

مقصد المشركين من عبادة الأوثان

هل كان المشركون يعبدون الأصنام لذاتها؟ ويعتقدون أنها تملك موتا أو حياة أونشورا، أونفعا، أوضرا؟

الواقع أنه يبدو من تصرفاتهم، أنهم كانوا لايعتقدون ذلك، بل كانوا يعتقدون بوجود قوة أعلى منها، لها كل التصرف فى الكون كله، وهى المدبرة لكل شىء، وأغلب ظنى أن الذى يصنع لنفسه معبوداً من الحلوى أو العجوة، حتى إذا جاع أكله. بل إن بعضهم كان يسب صنمه لايمكن أن يعتقد أن هذا المخلوق يخلق أويدير الكون.

بل إنهم يعبرون عن هذه القوة العليا، بلفظ «الله»، كما جاء فى القرآن الكريم.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1].

وأكبر دليل يؤيدنا فى قولنا هذا عن المشركين هو القرآن، فالقرآن يقرر أن العرب كانوا يعتقدون أن الله هو القادر الخالق المدبر بيده ملكوت السموات والأرض «قل من رب السموات السبع» الآيات من سورة المؤمنون.

ويزيد القرآن ذلك إيضاحا فيقول على لسان هؤلاء الذين يعبدون الأصنام «مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى»، وإذا فهم لايشركون الأصنام فى شىء من التدبير وإنما يجعلونها وسائط كما قررت آنفا لتكون لهم سندا يوم القيامة عند الله (ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) بل نرى القرآن يروى عنهم أنهم وقت الشدائد لاينظرون إلى الأصنام ولا يفكرون فيها إنما يتجهون إلى الله وحده فى عبادتهم ودعائهم (وإذا ركبوا فى الفلك دعو الله مخلصين له الدين وإذا غشيهم موج كالظل دعوا الله مخلصين له الدين يقولون لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين).

قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين.

(١) سورة العنكبوت الآية: ٦١.

بل إياه تدعون فيكشف ماتدعون إليه إن شاء).

ويروى القرآن عنهم أنهم بعد زوال الشدة يعودون إلى الاشراك:

(قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون).

(فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون)

﴿ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾(١).

فكانت عقيدة التوحيدعندهم كامنة فى أعماق نفوسهم تظهرها الشدائد ثم ينسيها طول الأمد، (فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم) وكان من آثار ذلك تسويتهم بين الخالق والمخلوق فى العبادة (أفمن يخلق كمن لايخلق) ولهذا تعددت المعبودات عندهم دون أن يكون لغير الله دخل فى تدبير الكون فى نظرهم فهم يعتقدون تعدد الآلهة مع توحيد الرب الخالق ويقولون (أجعل الآلهة إلها واحدا) فى نفس الوقت الذى يقولون أن الله (رب السموات السبع ورب العرش العظيم وبيده ملكوت كل شىء) ولذلك يقول القرآن.

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى يشركون معه غيره فى العبادة (الذى جعل مع الله إلها آخر)، (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) فهم بهذا الإشراك كافرون.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾(٢).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾(٣).

ولكن هل تنفع هذه الشفاعة؟

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٤).

لقد أشركوا مع الله غيره فى العبادة، مع أن الله نفى الوسائط بينه وبين خلقه فى العبادة، فكانوا بذلك كافرين.

(١) سورة الزخرف الآية: ٨٧.
(٢) سورة الزمر الآية: ٣.
(٣) سورة يونس الآية: ١٨.
(٤) سورة يوسف الآية: ١٠٦.

الفصل الثاني

التوحيد جوهر الشريعة الإسلامية

منذ اللحظة الأولى، التى بدأ فيها الرسول ﷺ، يدعو إلى الله سبحانه وتعالى كان جوهر هذه الدعوة، توحيد الله سبحانه وتعالى، بل إنه قد استمر يدعو إلى ذلك طيلة حياته.

وإذا نظرنا إلى القرآن، نجد أن جوهره كله، يقوم على التوحيد، بل إن القرآن عندما يعدد لنا شرائع الرسل التى خلت من قبل كان يبين لنا أن مناط هذه الشرائع وجوهرها، كان يقوم على التوحيد.

ولقد كانت الثورة ضد الشرك، وتحطيم الأصنام، من المهام الكبرى للدعوة الإسلامية، حتى ان العالم الكبير (أبا الريحان البيرونى حينما أخذ يبين الطابع الأصيل لكل دين قال عن الإسلام:

«إن الطابع الأصيل للإسلام إنما هو التوحيد[1]».

ولكن إذا كان البيرونى قد خص الإسلام بخصيصة التوحيد، فإنه كان يتحدث عن الأديان بوضعها الراهن.

ولكن -كما ذكرنا من قبل- فإن التوحيد كان الأصل دائما، وهو الجوهر الذى كان يدعو إليه كل نبى، ثم يأتى على الناس، وقت من الزمن تنحرف فيه هذه العقيدة: إلى الشرك وعبادة الأصنام، حتى يظهر نبى آخر يجدد لها ماسبق من أمر «دينها».

نرى ذلك واضحا فى قوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[2].

ولم يكتف الله سبحانه بهذا الإجمال وإنما فصل فيه بالنسبة لبعض الرسل يقول سبحانه:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾[3]

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة (أبو الريحان البيرونى).
(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٥.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٩.

ويقول:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[١].

ويقول:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٢].

ويقول:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾[٣].

أما عن الرسول ﷺ، فإن الدعوة إلى التوحيد كانت شغله الشاغل، وعمله الدائب، الذى لايفتر عنه ليلا ولا نهارا.

عن ابن عباس رضى الله عنهما:

«لما مشوا إلى أبى طالب وكلموه، وهم أشراف قومه:

عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، فى رجال من أشرافهم، فقالوا:

«يا أبا طالب إنك منا حيث قد علمت، وقد حضرك ماترى وتخوفنا عليك، وقد علمت الذى بيننا وبين ابن أخيك، فادعه وخذله منا، ليكف عنا ولنكف عنه، وليدعنا وديننا ولندعه ودينه.

فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال:

يا ابن أخى، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك؟

قال: فقال رسول الله ﷺ:

(ياعم) كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم فقال أبو جهل: نعم وأبيك وعشر كلمات.

قال: تقولون (لا إله إلا الله)، وتخلعون ماتعبدون من دونه)

فصفقوا بأيديهم ثم قالوا:

---

(١) سورة الأعراف الآية: ٦٥.

(٢) سورة الأعراف الآية: ٣٧.

(٣) سورة الأعراف الآية: ٨٦.

«يامحمد، أتريد أن تجعل الآلهة إلها واحدا؟... إن أمرك لعجب؟؟؟

قال: ثم قال بعضهم لبعض:

«إنه والله ماهذا الرجل يعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرقوا»[١] أهـ.

يروى الإمام أحمد بسنده عن ربيعة بن عباد.. بن النديل وكان جاهليا فأسلم قال:

«رأيت رسول الله ﷺ فى الجاهلية فى سوق ذى المجاز يقول:

«يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

ويدخل السوق والناس مقصفون عليه، فما رأيت أحدا يقول شيئا، وهولايسكت يقول:

«ياأيها الناس، قولوا: «لا إله إلا الله تفلحوا[٢]».

معانى التوحيد:

أما معانى التوحيد، فإننا لانستطيع تحديدها تحديدا كاملا من أول الأمر بسهولة ويسر، إنها من أوسع من أن نستطيع استقراءها، إنها تشمل الحياة بأكملها، على أن مما يعبر فى إجمال وإيجاز عن كلمة التوحيد، هو سورة الإخلاص،ومن أجل ذلك اعتبرت هذه السورة، ثلث القرآن.

روى الإمام البخارى بسنده عن أبى سعيد أن رجلا سمع رجلا يقرأ:

«قل هو الله أحد» يرددها فلما أصبح جاء إلى النبى ﷺ، فذكر ذلك له -وكأن الرجل يتقالها فقال النبى ﷺ:

«والذى نفسى بيده إنها لتعدل ثلث القرآن[٣]».

وكان سبب نزول هذه السورة:

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده، والنسائى من حديث محمد بن عبد الله بن نمير كلاهما عن أبى أسامة عن الأعمش ورواه الترمذى، والنسائى، وابن أبى حاتم، وابن جرير أيضا كلهم فى تفاسيرهم من حديث سفيان الثورى عن الأعمش عن يحى ابن عمارة الكوفى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما، وقال الترمذى حديث حسن.

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده والروض الأنف للسهيلى، والطبقات الكبرى لابن سعد.

(٣) أخرجه الإمام مالك، والإمام أحمد فى مسنده، والإمام البخارى فى صحيحه، وأبو داود، والنسائى، عن أبى سعيد، وأخرجه البخارى عن قتادة بن النعمان، ومسلم عن أبى الدرداء والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة، والنسائى عن أبى أيوب، وأحمد فى مسنده وابن ماجة عن أبى مسعود الأنصارى، والطبرانى فى الكبير عن ابن مسعود وعن معاذ، وأحمد فى مسنده عن أم كلثوم بنت عطية والبزار عن جابر عن ابن عباس رضى الله عنهم.

أن المشركين سألوا النبى ﷺ سؤالا عن الله فقالوا:

«يامحمد انسب لنا ربك؟

فأنزل الله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[1].

يقول الإمام أبو حامد الغزالى:

«مهمات القرآن هى معرفة الله، ومعرفة الآخرة، ومعرفة الصراط المستقيم».

فهذه المعارف الثلاثة هى المهمة. والباقى توابع،

وسورة الإخلاص تشتمل على واحدة من الثلاث: وهى معرفة الله، وتقديسه، وتوحيده، عن مشارك فى الجنس والنوع، وهو المراد بنفى الأصل والفرع والكفؤ.

قال:

والوصف بالصمد يشعر بأنه السيد الذى لايقصد فى الوجود سواه[2].

«نعم ليس فيها حديث الآخرة، والصراط المستقيم فلذلك نقول ثلث القرآن -أى ثلث الأصول- القرآن. كما قال: الحج عرفة»، أى هو الأصل والباقى تبع. أ. هـ.

وتبدأ السورة بقوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾

لقد نفت الشريك منذ أول لحظة، وهذه ثانية خصيصة من خصائص الألوهية، التى تحدثنا عنها سورة الفرقان التى نحن بصدد دراستها بعد أن ذكرت الخصيصة الأولى، وهى:

«الذى له ملك السموات والأرض»، فقالت:

«ولم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك».

وهذه الخصيصة هى الاستغناء عن الولد والشريك.

---

(١) كما روى ذلك قتادة والضحاك ومقاتل، والربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى ابن كعب .. أنظر أسباب النزول للواحدى، ولباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى.

(٢) أنظر أسماء الله الحسنى للإمام القشيرى وللإمام الغزالى فى تفسير إسم «الصمد».

دلائل السورة على التوحيد:

لقد أهتم القرآن اهتماما كبيرا بنفى الولد والشريك،

ولقد استخدم القرآن الكريم عدة طرق للاستدلال:

منها المنطقى،

ومنها الواقعى،

على أن أغلبها يمتزج فيها المنطق بالواقع المحس فيكونان معا منطقا مستمدا من الواقع.

ترى ذلك واضحاً كل الوضوح فى قوله تعالى فى سورة الفرقان استدلالا على التوحيد، وعى قدرة الله سبحانه وتعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيراً.

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً.

وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً.

لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾[1]

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى أنه كرر هذا القول من قبل ومع ذلك أبى أكثر الناس إلا كفورا.

ثم تذكر السورة دليلا آخر أشد منطقية:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْراً وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾[2].

ومع كل تلك الدلائل التى تشير إلى قدرة الله الواحد، حتى أنه أشار فى آخر الآية إلى ذلك بقوله:

﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيراً﴾

مع ذلك كله هم يعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولايضرهم. ولكن القرآن لايترك قضية التوحيد تمر هكذا، بل يستمر فى تقديم الأدلة ولكن لمن يسمع ويعقل، أولمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا:

(١) أبو حامد الغزالى (جواهر القرآن) (١) سورة الفرقان الآيات: ٤٥ - ٤٩.

(٢) سورة الفرقان الآيات: ٥٣ - ٥٤.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾(١).

ولنتأمل معا قوله تعالى:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾(٢).

وقوله تعالى:

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٣).

ومن روائع القرآن حيث يستخدم المنطق بالواقع المحس قوله تعالى :

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ؟

أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ.

أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ.

أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(٤).

قل هو الله أحد:

ونعود مرة أخرى إلى: «قل هو الله أحد».

والتعبير بلفظ «أحد» بدل التعبير بلفظ واحد، له مغزاه.

---

(١) سورة الفرقان الآيات: ٦١ - ٦٢.
(٢) سورة الأنبياء الآيات: ٢٢ - ٢٣.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ٩١.
(٤) سورة النمل الآيات: ٥٩ - ٦٤.

وذلك: أن الواحد قد يطلق على الكائن الذى يتضمن أجزاء متعددة.

إن لفظ واحد يطلق على الرجل مثلا وإلى خلق يتكون من أفراد لاتكاد تحصى.

وما من شك: فى أن كل ماهو مادى يتكون من أجزاء كثيرة، يطلق عليها لفظ واحد، مع أنها كثيرة، ولكن هذه الكثرة تناسقت فى صورة منسجمه، ومن أجل هذا التناسق المنسجم أطلقنا عليها واحد.

ولكن «الله أحد» إنه ليس مركبا، وليس متعددا.

يقول الأزهرى:

«الواحد من صفات الله تعالى، معناه، أنه لا ثانى له»، ويجوز أن ينعت الشىء بأنه واحد، فأما «أحد» فلا ينعت به غير الله لخلوص هذا الاسم الشريف له جل ثناؤه» أ. هـ.

قل هو الله أحد:

لقد استفاض القرآن الكريم فى نفى الشريك لله تعالى.

وبذل رسول الله ﷺ جهودا كبيرة فى إقامة التوحيد ونفى الشريك.

لقد كان أول عقد من عقود البيعة: هو عدم الإشراك بالله.

وعن عبادة بن الصامت ﷺ -وكان قد شهد بدرا وهو أحد النقباء ليلة العقبة- أن رسول الله ﷺ قال - وحوله عصابة من أصحابه:

بايعونى على أن لاتشركوا بالله شيئا ولا تسرقوا ولا تزنوا ولا تقتلوا أولادكم ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ولا تعصوا فى معروف فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله ، فهو إلى الله إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه، فبايعناه على ذلك[١].

ولقد شدد الله فى أمر الشرك، حتى لقد أعلن الله سبحانه وتعالى، وأعلن الرسول ﷺ فى أكثر من حديث، «إن الله لايغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء»[٢].

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحة فى كتاب الحدود، وكتاب الديات، وكتاب الأحكام، وكتاب التوحيد، وأخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الحدود، وكتاب الإمارة وأخرجه النسائى فى سننه فى كتاب البيعة، وكتاب الإيمان وشرائعه، وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الجهاد، وأخرجه ابن سعد فى الطبقات، وأخرجه أحمد فى مسنده، والطيالسى فى مسنده.

(٢) سورة النساء الآية: ١١٦.

وقضى رسول الله ﷺ على الشرك فى جزيرة العرب الشرك بمعنى التعدد. ضد الأوهية.

والواقع أنه كانت توجد عوامل كثيرة لرفض الشرك فى الجو الفكرى المستنير، منها:

أن الفلاسفة المؤلهين فى الماضى والحاضر يؤمنون بالتوحيد، لقد آمن به أرسطو فى صورة لاتدع مجالا للشك، وآمن به أفلاطون، أما الذى وصل بالتوحيد من بين الفلاسفة إلى درجة صارمة فإنه أفلوطين. وتسلسلت عقيدة التوحيد فى الجو الفلسفى عبر العصور، حتى وصلت إلى العصر الراهن(١).

مع سورة الفرقان فى خصائص الألوهية:

هل تتمثل عظمة الإسلام بالنسبة للتوحيد بمعنى نفى الشريك فقط؟ أن سورة الفرقان ينبثق عنها فيض من المعانى الكريمة، يمكن إجمالها فى:

أن معنى التوحيد أن يلقى الإنسان بقياده فى استسلام مطلق -إلى الله سبحانه وتعالى، وأن يخلص له وجهه اخلاصا كاملا، فإن من يحمل خصائص الألوهية الحقة، وهى الملك والخلق والتقدير والاستغناء عن الولد والشريك:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾.

ينبغى أن يوحد فى كل شىء وإذا كان الطابع الإسلامى الأصيل هو التوحيد، فإن خصائص الألوهية يترتب عليها التوحيد فى العقيدة، والتوحيد فى العبادة، والتوحيد فى الأخلاق.

التوحيد فى العقيدة

والتوحيد فى العقيدة تعبر عنه كلمة: الصدق والإخلاص: «أشهد أن لا إله إلا الله».

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية، دكتور يوسف كرم وتاريخ الفلسفة اليونانية لألبير ريفر ترجمة أبو بكر ذكرى والدكتور عبد الحليم محمود.

وعقيدة التوحيد كانت أساس الرسالة الإسلامية فى مكة، واستمرت كذلك فى المدينة وفى ذلك يقول الرسول ﷺ:

«جددوا إيمانكم»

قيل: يارسول الله وكيف نجدد إيماننا؟

قال: (أكثروا من قول: لا إله إلا الله[1]).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما قال عبد قط (لا إله إلا الله) مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى يفض إلى العرش ما اجتنبت الكبائر[2]).

وعن جابر رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال:

«أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله»[3].

وإن الكلمات التى تعبر عن التوحيد والعقيدة أفضل تعبير قول المؤمنين: «لا إله إلا الله وحده لاشريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير».

ولأن هذه الكلمة تعبر عن التوحيد وخصائص الألوهية أصدق تعبير كان ثوابها عند الله عظيما، وكانت مكانتها سامية، وكانت خير ما قال الرسول ﷺ والنبيون من قبل:

«عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«خير الدعاء دعاء يوم عرفه، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبل: لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير[4]).

وأما عن ثوابها، فقد أخرج الإمامان البخارى، ومسلم رضى الله عنهما من حديث أبى هريرة نضر الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال:

«من قال لا إله إلا الله، وحده لاشريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده، والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه الترمذى فى سننه عن أبى هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه الترمذى فى سننه، والنسائى، وابن ماجة فى سننه أيضا، وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك عن جابر رضي الله عنه.
(٤) أخرجه الترمذى فى سننه عن ابن عمر رضي الله عنه.

قدير، مائة مرة:

كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به الا أحد عمل أكثر من ذلك[١]».

لقد عبرت هذه الكلمات عن التوحيد وخصائص الألوهية بطريقة نظرية سليمة، وببساطة متناهية، كما هو شأن الإسلام دائما، فكان التوجيه إلى كثرة تكرارها حتى ترسخ فى الذهن والقلب معا، فيصبح التوحيد فى العقيدة هو الحياة بأكملها.

أما الكلمات التى تشرح لنا التوحيد وخصائص الألوهية شرحاً بأبلغ عبارة وأوجزها فهى:

«لاحول ولاقوة إلا بالله».

وهى لهذا فهى كنز من كنوز الجنة.

فلا حول ولاقوة إلا بالله الواحد. الذى له ملك السموات والأرض. وليس له شريك فى الملك، والذى خلق كل شيء فى العالم فقدره أحسن تقديرا.

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال:

قال لى رسول الله ﷺ:

«أكثروا، من قول: لاحول ولاقوة إلا بالله فإنها من كنز الجنة[٢]».

وروى الحاكم –وقال صحيح ولا علة له من أن رسول الله ﷺ قال لأبى هريرة:

«ألا أعلمك –أو ألا أدلك– على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة؟ تقول:

«لاحول ولا قوة إلا بالله». فيقول الله: أسلم عبدى واستسلم، على أن الآية التى تبين

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، والترمذى فى سننه، والنسائى وابن ماجة فى سننيهما أيضا، عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو يعلى فى مسنده، والطبرانى فى المعجم الكبير، وابن حبان، عن أبى أيوب، وأخرجه الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه.

لنا التوحيد فى العقيدة أصدق بيان وأوجزه، وتتمثل فيها خصائص الألوهية أعظم تمثيل هى الآية الثانية فى سورة الإخلاص. «الله الصمد».

فالصمد: هو الذى يصمد إليه فى الحوائج، ويقصد إليه فى الرغائب، إذ ينتهى إليه منتهى السؤدد.

إن الصمد: هو الملجأ والمستعان والهدف والغاية،

إنه القبلة، وهو المركز الذى تتعلق به الآمال وتهدف إليه الهمم.

والقرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، مليئان ببيان الصمد،

من ذلك فى الأحاديث الشريفة تفسير[1] للصمد بمعنى:

القائم بنفسه، وتفسير الصمد بمعنى الغاية والهدف بما روى عن ابن عباس[2]: رضى الله عنهما.

«كنت خلف رسول الله ﷺ يوما فقال:

«ياغلام، إنى أعلمك كلمات:

«احفظ الله يحفظك،

«احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف».

ومن الأحاديث التى تعبر عن خصائص الألوهية أصدق تعبير، وتبين لنا أن الملك، والخلق، والتقدير، لله وحده لاشريك له، مارواه أبو سعيد الجولانى:

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك وقال صحيح الإسناد.

(٢) أخرجه الترمذى وقال حديث حسن صحيح، وفى رواية غير الترمذى «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشده، وأعلم أن ما أخطاك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، وأعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا».

عن أبى ذر جندب بن جنادة رضي الله عنه عن النبي ﷺ – فيما يروى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:

«ياعبادى: إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته محرما فلا تظالموا،

ياعبادى: كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدونى أهدكم،

ياعبادى: كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعمونى أطعمكم،

ياعبادى: كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسونى أكسكم،

ياعبادى: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعا، فاستغفرونى أغفر لكم.

ياعبادى: إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى،

ياعبادى: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا،

ياعبادى: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم مانقص ذلك فى ملكى شيئا،

ياعبادى: لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته مانقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر،

ياعبادى: إنما هى أعمالكم أحصيها لكم، ثم أرجعها لكم فمن وجد خيرا فاليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه[1]» أ.هـ.

الله الصمد:

والصمد من معانى لا إله إلا الله، ومادام هو الذى تتجه إليه الآمال فإن لمعناه آفاقا واسعة وهذه الآفاق تزداد بتعدد حاجات الناس وآمالهم،

(١) أخرجه الامام مسلم، والإمام أحمد فى مسنده، وقال الإمام أحمد رحمه الله: ليس لأهل الشام حديث أشرف من هذا الحديث، وقال أبو سعيد كان أبو ادريس إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه.

والصمد توجيه لهم إلى أن كل حاجاتهم وآمالهم يجب أن ترجع إلى الله الصمد.

يقول الإمام القشيرى:

«إن اله تعالى مغن عباده بعضهم عن بعض، لأن الحوائج على الحقيقة لا تكون إلا إليه، فالمخلوق لايملك لنفسه نفعا ولاضرا، فكيف يملك ذلك لغيره؟»

ولهذا قيل:

«تعلق الخلق بالخلق تعلق المسجون بالمسجون»

وقيل: «من رفع حاجته إلى الله ثم رجع عن حاجته إليه إلى غيره ابتلاه الله بالحاجة إلى الخلق ثم نزع رحمته من قلوبهم[1]» أ.هـ.

من معانى الصمد:

إن سورة الاخلاص تسمى سورة التجريد، لأن من تعلق بها تجرد -كما يقول الإمام الصادق- عن الأغيار،

وتسمى صورة الصمد لأنه ذكر فيها:

«والصمد هو الذى تتوجه إليه المطالب، وتتعلق به الآمال، ومن أجل ذلك يتجه الإنسان بالدعاء إليه.

فبين لنا سبحانه أنه قريب، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه، ولايفعل ذلك إلا من كان له الملك والخلق، والتقدير، بل إن الله يطلب منا صراحة أن ندعوه،

يقول سبحانه:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[2].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾[3].

(١) الرسالة القشيرية للإمام القشيرى والتحبير فى التذكير له أيضا.
(٢) سورة غافر الآية: ٦٠.
(٣) سورة البقرة الآية: ١٨٦.

ويقول الله سبحانه وتعالى على لسان نبى الله صالح عليه السلام:

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[1].

ويبين لنا سبحانه أنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء:

﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾[2].

ويقول سبحانه:

﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾[3].

على أن الحديث الذى يظهر لنا عظمة ملك الله سبحانه وتعالى وخلقه وتقديره: هو:

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله تعالى إياها أوصرف عنه السوء بمثلها مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم..».

فقال رجل من القوم: إذا نكثر

قال: «الله أكثر[4]».

وبعد: فإن الدعاء اتجاه إلى الصمد، يجيب الله المتجه إليه بالدعاء مسألة أو استعانة.

«إذا سألت فسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله».

«لا إله إلا الله، وخصائص الألوهية:

«لا إله إلا الله المتصرف المطلق فى الكون، خلق كل شىء فى الكون فقدره تقديرا، وتصرفات الله فى الكون لاحصر لها، وهى تظهر لنا بعض عظمة ملكه وخلقه، ومن أمثلة ذلك:

(١) سورة هود الآية: ٦١.
(٢) سورة النمل الآية: ٦٢.
(٣) سورة النساء الآية: ٣٢.
(٤) رواه الترمذى والحاكم فى المستدرك.

يأتى مثلا جيش أبرهة يريد أن يهدم الكعبة، جيش جرار أسلحة، وفيلة، وخيلة وسيوف، ورجال، ويأتى جبارا طاغيا يريد هدم الكعبة ماذا يكون؟

«طير يرمى بحجارة من سجيل وينتهى الجيش الجرار وينتهى الطغيان فى لحظة وبصورة يسيرة.

«لا إله إلا الله» فى غزوة بدر وكان المسلمون قليلى العدد:

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾(١).

كانوا أذلة قلة فى العدد قلة فى السيوف، قلة فى الخيل، قلة فى كل شىء، وكانوا ثلث جيش العدو كان مسلحا بكل شىء آتيا فى قوة وشدة، وجبروت.

وينصر الله الأقل عددا والأقل قوة لماذا؟

لأنهم يؤمنون بأن: «لا إله إلا الله».

فى هذا الموقف يبيت رسول الله ﷺ ينظم الجيش ويتخذ لكل أمر عدته، الصغيرة والكبيرة، وهو من قبل أن ينظم الجيش مؤمن بأن «لا إله إلا الله».

وفى أثناء تنظيم الجيش: «لا إله إلا الله».

تنظيم الجيش: لا إله إلا الله، الثقة المطلقة فى الله سبحانه وتعالى وعلى سبيل المثال أيضا:

إذا نظرت إلى الأجل، فالأجل محدود ولن ينفع الإنسان الجبن إذا كان جبانا لن ينفعه، فى إطالة العمر، فالآجال محدودة ولك أمة أجل،

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢).

والشجاعة لاتقصر من الأجل إن الآجال بيد الله

وهذا معانى: «لا إله إلا الله».

(١) سورة آل عمران الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٣٤.

والأرزاق بيد الله:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[١].

ثم يقسم الله سبحانه وتعالى على ذلك، لأن الإنسان قلق دائما من ناحية الرزق.

﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ...﴾[٢].

لقد حدد الله الآجال، وضمن الرزق، والإنسان العاقل المتزن هو الذى يثق فى الله وحده.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[٣].

التوحيد بمعنى العبادة

إياك نعبد وإياك نستعين:

يقول الله سبحانه وتعالى فى سورة الفاتحة:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

روى الإمام ابن كثير فى تفسير سورة الفاتحة عن بعض السلف قوله:

«إن الفاتحة سر القرآن وسرها هذه الكلمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

فالأول: -«أى قوله - إياك نعبد»، تبرؤ من الشرك.

والثانى: - أى قوله تعالى - «وإياك نستعين» تبرؤ من الحول والقوة وتفويض الأمر إلى الله عز وجل:

وهذا المعنى ورد فى كثير من آيات القرآن، منها قوله تعالى.

«فاعبده وتوكل عليه» أ. هـ.

(١) سورة الذاريات الآية: ٢٢.
(٢) سورة الذاريات آية: ٢٣.
(٣) سورة الفرقان الآية: ٢.

وهذه الكلمة القرآنية قد قدم الله سبحانه وتعالى لها بما يعد أساس ومبررا بقوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1] تفسير ابن كثير

والله سبحانه وتعالى يخاطب رسوله ﷺ قائلا له

﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾[2].

ويقول سبحانه:

﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[3].

وما من شك فى أن الآية الكريمة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تعنى عناية واضحة بوجوب إخلاص العبادة لله وحده، وقصر الاستعانة عليه وحده سبحانه وتعالى:

والقرآن يوضح بما لامزيد عليه أن الله سبحانه وتعالى هو وحده المتصرف فى الكون.

«إنه المتصرف فى اليسير من أمر الكون وفى العظيم منه.

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[4].

وهو سبحانه كما يملك السموات والأرض وكما يمسكهما أن تزولا «ولئن زالتا ان أمسكهما من أحد من بعده.

فإنه يملك كل جزئية من جزئيات العالم:

إنه يملك البصر فى العين ويملك السمع فى الاذن، كما يملك العين والأذن.

(١) سورة هود الآية: ١٢٣.
(٢) سورة الملك الآية: ٢٩.
(٣) سورة المزمل الآية: ٩.
(٤) سورة آل عمران الآية: ٢٦.

ويملك الصحة فى الجسم الصحيح، ويملك استمرار الجاه عند ذوى الجاه ولو شاء الله سبحانه لأزال ذلك كله ومنع استمراره،

إن قوله تعالى: «وإليه يرجع الأمر كله» عام شامل.

ومن أجل ذلك يجب ان تكون العبادة له وحده خالصة له وأن الاستعانة يجب أن تقتصر عليه.

الوسيلة الصحيحة للاستعانة بالله سبحانه وتعالى، إنما هى إخلاص العبادة له وحده، فمن أحب أن يكون الله سبحانه وتعالى معه... من أحب أن يستجيب الله له، فليحقق العبودية له سبحانه: «إياك نعبد» وسيلة لتحقيق: «وإياك نستعين».

روى الإمام البخارى فى حديث قدسى:

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه:

«من عادى لى وليا فقد أذنته بالحرب، وماتقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى من أداء ما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به. ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذ بى لأعيذنه[1].

وهذا الحديث الشريف يبين لنا بوضوح أن أحب شىء يتقرب به الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، إنما هو أداء ما افترضه عليه، وأن الإكثار من النوافل مع أداء الفرائض وسيلة إلى حب الله سبحانه وتعالى لعبده.

وبعد: فإن «إياك نعبد وإياك نستعين»، هى النموذج الكامل للتوحيد فى العبادة، هى تحقيق للإيمان الصحيح والتقوى الصادقة.

---

(١) رواه أبو هريرة وأخرجه الإمام البخارى.

التوحيد فى الأخلاق

على أن الآيات التى تبين لنا التوحيد فى الأخلاق والتى رسم الله سبحانه وتعالى فيها منهجا ووسيلة ورسمه مبادئ وقواعد، وغايات، وأهدافا هى قوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾.

ومما يبين أيضا ذلك قول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى.

«ياعبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم».

إن الهداية من الله سبحانه وتعالى «ومن يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له»، وإذا هدى الإنسان إلى الصراط المستقيم فقد فاز بالخير الذى أحبه الله للانسان كاملا، والصراط المستقيم هو الإيمان الصادق، الإيمان الاتباعى.

أى الإيمان الذى تتحكم فيه التعاليم الإلهية تحكما تاما ويسير فى إطارها راضيا مسلما مستسلما.

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[1].

فالإنسان لايؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ، فى أمور عقيدته، وفى أمور أخلاقه، وفى أمور تشريعه، بل وحتى يتقبل ذلك كله فى سكينه وإطمئنان واغتباط.

ويصف الله المؤمنين الصادقين فيقول:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[2]

وهذا الوصف للمؤمنين، يتناول وصف الإيمان القلبى: إنه إيمان لاريب فيه.

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٥.
(٢) سورة الحجرات الآية: ١٥.

ويتناول الأثر والمظهر، إنه الجهاد فى سبيل ما آمن به:

جهاد النفس، وجهاد المال، وجهاد بجميع أقطار النفس وجهاد بكل ماتملك.

وهذه الآية تعتبر مقياسا صادقاً لكل من أراد أن يتبين حقيقة إيمانه.

والصراط المستقيم غايته ونهايته التى يؤدى إليها، إنما هى الله سبحانه وتعالى:

وقد حددها سبحانه بقوله:

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾[1].

وليس دون الله منتهى للمؤمن، وغاية المؤمن كل غايته، إنما هى الله سبحانه وتعالى.

على أن الله سبحانه وتعالى يصف المؤمنين مبينا خطواتهم فى الطريق إلى الله سبحانه وتعالى، أو مبينا الطريق نفسه فى تساميه، وتدرجه، فيقول سبحانه فى وصفهم.

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

ولقد بدأ الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين بقوله: «التائبون[2]».

إن السير إلى الله يبتدئ بالتوبة الخالصة النصوح، وهى أول خطوة على الصراط المستقيم، والله سبحانه وتعالى يقول.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3].

ويقول فى حديث قدسى:

«ياعبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميع فاستغفرونى أغفر لكم».

---

(١) سورة النجم الآية: ٤٢.
(٢) سورة التوبة الآية: ١١٢.
(٣) سورة النور الآية: ٣١.

ورسول لله ﷺ يقول فيما أخرجه البخارى عن أبى هريرة «والله انى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة» ويقول ﷺ فيما رواه الإمام مسلم عن الأغر بن يسار رضي الله عنه:

«يأأيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإنى أتوب فى اليوم مائة مرة».

والصراط المستقيم إذن: يبدأ بالتوبة الخالصة النصوح، وليس له دون الله منتهى، وبعد: فلقد أنهى الله سبحانه وتعالى وصف المؤمنين الذين لايسيرون على الصراط المستقيم بقوله سبحانه.

«وبشر المؤمنين».

وهذا القول لاتجده حدود، ولايقيده قيود، فالبشرى مطلقة، إنها بشرى الله لهم بالنجاه وبالفوز فى الدنيا والآخرة.

تحديد الإيمان الصادرعن التوحيد فى الأخلاق:

سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال:

«إنه الإخلاص»

ويقول سبحانه:

﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[1] فكل ماليس خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى لايثيب عليه ولا يتقبله».

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الرياء على اختلاف صوره شرك يحبط العمل، يقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الإمام أحمد: «إن أخوف ما أخاف على أمتى الشرك الأصغر»، قالوا: ومالشرك الأصغر يارسول الله؟

قال: «الرياء»، يقول الله عز وجل: اذا جزى الناس بأعمالهم «اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء؟

والرياء مجموعة من الآثام تنزل بالإنسان إلى مستوى من الأخلاق غير كريم.

من ذلك ما قاله ﷺ - فيما رواه البيهقى:

(١) سورة الزمر الآية: ٣.

«من صام يرائى فقد أشرك، ومن صلى يرائى فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك[١]».

إن كل عمل لايراد به وجه الله تعالى شرك، يتنافى مع التوحيد لايتقبله الله ولايثيب عليه.

على أن الفيصل فى هذا مارواه الإمام البخارى رضي الله عنه بسنده عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها، أوامرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه».

ومن هنا نرى أن الدعوة الاسلامية بدأت بالاتجاه إلى الله وحده كما بدأت تشريعها بشرع الأخلاق الفاضلة، من أول يوم نادى به الرسول ﷺ، بالاتجاه إلى الله، والعمل بمكارم الأخلاق، قال ﷺ: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق[٢]».

وكان التوحيد بمعنى تفرد الله عز وجل بالخلق والتدبير هو المرحلة الأولى والوسيلة إلى إفراد الله عز وجل بالعبادة، وهى وسيلة فطرية مرتكزة فى نفوس العرب، وبخاصة فى نفوس عقلائهم، ولم يقف بهم القرآن عند تقرير هذه العقيدة المنحصرة فى نفى الشريك، واعتقاد أن الله واحد فى ذاته وصفاته وأفعاله إلا ريثما ينقلهم منها إلى أن يتجهوا بعبادتهم وقيمهم إلى الله الصمد، وهى المرحله الفاصلة بين صفاء عقيدة الإسلام وماكان يشوب عقيدة الجاهلية المؤمنة بالله، مع الإشراك به فى العبادة وكان التوحيد فى الأخلاق على قمته هذا الهدف الأصيل الذى يوائم بين العقيدة والعمل وجلال المقصد والغاية، وهو الإخلاص فى العمل ومن هنا نرى أن الإسلام جاء بعقيدة التوحيد كاملة صافية، ينسجم فيها الاعتقاد، والقصد والعمل:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[٣].

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه مالك فى الموطأ بلاغا عن النبى ﷺ، وقال ابن عبد البر هو متصل من وجوه صحاح عن أبى هريرة وغيره، منها مارواه أحمد والخرائطى فى أول المكارم بسند صحيح عن أبى هريرة مرفوعا، ومنها ما رواه الطبرانى فى الأوسط ومنها ماعزاه الديلمى لأحمد فى مسنده عن معاذ رضي الله عنه.
(٣) سورة الروم الآية: ٣٠.

الفصل الثالث

فضل الله على العباد وتنزهه عن المماثلة

﴿تَبارَكَ الَّذي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾.

يحمل العلماء لفظ تبارك على معنيين: وهو بمعنى تزايد خيره وتكاثره، أو على محمل التنزيه، أي تعالى عن كل شيء في صفاته وأفعاله، فعلى المعنى الأول: وهو تزايد خيره وتكاثره يقول الراغب الأصفهاني:

«البركة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، قال تعالى:

﴿.... لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[1]

وسمى بذلك لثبوت الخير فيه ثبوت الماء في البركة، وقوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾[2].

فتبينه على ما يفيضه علينا من نعمه بواسطة هذه البروج النيرات المذكورة في هذه الآية، وقوله تعالى:

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[3]

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾[4]

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّاتٍ﴾[5]

كل ذلك نبينه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة مع ذكر «تبارك» أما الوجه الثاني: الذي حمل عليه اللفظ، فهو مذكور في تفسير الفخر الرازي:

فبعد أن ذكر الوجه الأول قال نقلا عن الزجاج:

«والثاني»: تزايد عن كل شيء، وتعالى عنه: في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وهو المراد من قوله:

---

(١) سورة الأعرف الآية: ٩٦.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٦١.
(٣) سورة المؤمنون الآية: ١٤.
(٤) سورة الفرقان الآية: ١.
(٥) سورة الفرقان الآية: ١٠.
(٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٤٣.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[١]

وأما تعاليه عن كل شيء فى ذاته: فيحتمل أن يكون المعنى: بل بوجوب وجوده وقدمه، عن جواز الغناء والتغير عليه، وأن يكون المعنى تنزه بفردانيته، ووجدانيته عن مشابهة شيء من الممكنات.

وأما تعاليه عن كل شيء فى صفاته فيحتمل أن يكون المعنى: أن جل أن يكون علمه ضروريا، أو كسبيا، أو تصورا، أو تصديقا، وفى قدرته أن يحتاج إلى مادة ومدة وجلب غرض ومثال.

وأما فى أفعاله: فجل أن يكون الوجود والبقاء وصلاح حال الوجود إلا من قبله[٢]».

ولم يتعرض الفخر الرازى لتحديد المراد من لفظ تبارك فى الآية، بل ذكر أنها تحتمل المعنيين:

تكاثر الخير، أو التنزيه.

والواقع أن كلا المعنين يناسب السورة، ولم يقم عليهما أى خلاف، بين المفسرين ، يقول الإمام الألوسى:

«تبارك» بالمعنى الأول على إنزاله جعل شأنه الفرقان، أما أنه ناطق بعلو شأنه سبحانه وسمو صفاته، وابتناء أفعاله على أساس الحكم والمصالح وخلوها عن شائبة الخلل بالكلية، وترتيب ذلك بالمعنى الثانى عليه، لما فيه من الخير الكثير، لأنه هداية ورحمة للعالمين[٣]، وفيه ما ينتظم به أمر المعاش والمعاد، وكلا المعنين مناسب للمقام»أ.هـ.

على أن الذى جمع بين التفسيرين فى قالب واحد هو الإمام أبو حيان فى تفسيره البحر المحيط[٤] يقول:

إنه لما ذكر فى السورة التى قبلها وجوب مبايعة المؤمنين للرسول ﷺ وأنهم إذا كانوا معه فى أمر مهم، توقف انفصال واحد منهم على اذنه وحده من يخالف أمره،

---

(١) سورة الشورى الآية: ١١.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٤٤.
(٣) تفسير الألوسى جـ ١٨ ص ٢٣١.
(٤) جـ٦ ص ٤٧٨ من تفسير البحر المحيط.

وذكر أن له ملك السموات والأرض، وأنه تعالى عالم بما هم عليه ومجازيهم على ذلك، فكان ذلك غاية فى التحذير والإنذار، ناسب أن يفتتح هذه السورة، بأنه تعالى منزه فى صفاته عن النقائص، كثير الخير، ومن خيره: أنه نزل الفرقان على رسوله منذرا لهم فكان فى ذلك إطماعا فى خيره وتحذيرا من عقابه[١].

واسناد الفعل إلى «الذى» مع أن الكفار لا يقرون بأن الله تعالى هو الذى نزل الفرقان نظرا، لأنه قد قام الدليل على إعجازه؛ ولقوة هذا الدليل وعدم خفائه أجراه الله تعالى مجرى المعلوم؛

يقول الإمام الألوسى:

«وإبراز تنزيل الفرقان فى معرض الصلة التى نعتها أن تكون معلومة الثبوت للموصول عند السامع مع إنكار الفكرة له لإجرائه مجرى المعلوم المسلم: تنبيها على قوة دلائله، وكونه بحيث لايكاد يجهله أحد كقوله تعالى: ﴿لاريب فيه﴾ .

وكذا يقال فى نظائره من الصلات التى ينكرها الكفرة[٢].

وذكر الإمام الألوسى قولا آخر يقول:

«وقال بعضهم: لا حاجة لما ذكر إذ يكفى فى الصلة أن تكون معلومة للسامع المخاطب بها ولا يلزم أن تكون معلومة لكل سامع، والمخاطب بها هنا هو رسول الله ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام عالم ثبوتها للموصول[٣]»؛ على أن الإمام الألوسى يعود فيؤكد مرة أخرى على رجحان الرأى الأول بقوله:

وما ذكر أولا من تنزيلها منزلة المعلوم أبلغ لكونه كناية عما ذكر مناسبة للرد على من أنكر النبوة وتوحيد الله تعالى.

«نزل»:

يقول الراغب الأصفهانى فى معنى «نزل» و«أنزل»:

«النزول فى الأصل هو انحطاط من علوم، يقال نزل عن دابته، ونزل فى مكانه كذا حط رحله فيه، وأنزله غيره، قال:

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان جـ٦ ص ٤٨٧.
(٢) تفسير الألوسى جـ ١٨ ص٢٣٢.
(٣) تفسير الألوسى جـ ١٨ ص٢٣٢.

«أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين»

والفرق بين الإنزال فى وصف القرآن والملائكة: أن التنزيل يختص بالموضع الذى يشير إليه إنزاله مفرقا مرة بعد أخرى، والإنزال عام فيما ذكر فيه التنزيل قوله:

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ﴾[1]

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2]

﴿وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[3] أ. هـ

« الفرقان »:

وعلى هذا الرأى: يكون معنى «الفرقان» أنه فرق فى النزول مفصلا بين بعضه وبعض فى الإنزال.

ويرجح هذا الرأى الإمام الرازى والإمام القاسمى، يقول الفخر الرازى:

«لانزاع أن الفرقان هو القرآن وصف بذلك من حيث إنه سبحانه فرق به بين الحق والباطل فى نبوة محمد ﷺ وبين الحلال والحرام أو لأنه فرق فى النزول كما قال:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[4]

وهذا التأويل أقرب، لأنه قال : «نزل الفرقان».

ولفظة «نزل» تدل على التفريق، وأما لفظة «أنزل» فتدل على الجمع ولذلك قال فى سورة آل عمران:

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[5] أ.هـ

أما الإمام القاسمى فيقول:

«الفرقان» مصدر فرق بين الشيئين إذا فضل بينهما وسمى به القرآن لفصله بين الحق والباطل أو لأنه لم ينزل جملة واحدة ولكن مفرقا مفصلا بين بعضه وبعض فى الإنزال.

(١) سورة الشعراء الآية: ١٩٣.
(٢) سورة الحجر الآية: ٩.
(٣) سورة الزخرف الآية: ٣١ أنظر الراغب ص ٦٠٥.
(٤) سورة الإسراء الآية: ١٠٦.
(٥) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٤٤٤.

ألا ترى إلى قوله:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾.

قال الناصر: والأظهر هنا هو المعنى الثانى، لأن فى اثناء السورة بعد آيات:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾

قال الله تعالى: «كذلك» أى أنزلناه مفرقا كذلك لنثبت به فؤادك فيكون وصفه بالفرقان فى أول السورة – والله أعلم – كالمقدم والتوطئة لما يأتى بعد[1] أ.هـ

والظاهر أن المفسرين الذين فسروا هذا التفسير رجحوه بناء على وضع السورة نفسها ومعناها المتوافق بالنسبة للفظ نزل وبالنسبة للآيات التى أتت بعد ذلك وهو ما نرجحه من التفسير.

على عبده:

يقول ، الراغب: العبودية إظهار التذلل ولايستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى، ولهذا قال:

«ألاتعبدوا الا إياه»

والعبادة ضربان: عبادة بالتسخير، وعبادة بالاختيار، وهى لذوى النطق، وهى المأمور بها فى نحو قوله تعالى:

﴿اعبدوا ربكم﴾، ﴿واعبدوا الله﴾

والعبد يقال على أربعة أضرب:

الأول: عبد بحكم الشرع، وهو الإنسان الذى يصح بيعه وابتياعه نحو: والعبد بالعبد، وعبدا مملوكا لا يقدر على شيء.

الثانى: عبد بالإيجاد ، وذلك ليس إلا الله وإياه قصد بقوله:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾

والثالث: عبد بالعبادة والخدمة، والناس فى هذا ضربان: عبد لله مخلص، وهو المقصود بقوله:

(١) محاسن التأويل للإمام جمال الدين القاسمى جـ ١٢ ص ٤٥٦٢.

﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾[(١)]، ويقول : ﴿إِنَّهُ[(٢)] كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[(٣)]

وقوله ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾

وعبد للدنيا وأغراضها، وإياه قصد النبى ﷺ بقوله: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار»[(٤)]

وعلى هذا النحو يصح أن يقال:

ليس كل إنسان عبد الله ، فان العبد على هذا بمعنى العابد، لكن أبلغ من العابد؛ والناس كلهم عباد الله، بل الأشياء، كلها كذلك لكن بعضها بالتسخير، وبعضها بالاختيار.

وجمع العبد الذى هو مسترق عبيد، وقيل عبد.

فالعبيد إذا أضيف إلى الله أعم من العباد، ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[(٥)]

فنبه أنه لا يظلم من يختص بعبادته، ومن انتسب إلى غيره من الذين تسموا بعبد شمس، وعبد اللات ونحو ذلك[(٦)].

ليكون للعاملين نذيرا:

يقول الراغب الأصفهانى:

العالم اسم للملك وما يحويه من الجواهر والأعراض، وهو فى الأصل اسم لما يعلم به، كالطابع والخاتم، لم يطبع ويختم به، وجعل بناؤه على هذه الصيغة لكونه كالآلة، والعالم آلة فى الدلالة على صانعه، ولهذا أحالنا تعالى عليه فى معرفة وحدانيته فقال:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[(٧)].

وأما جمعه فلأن من كل نوع من هذه قد يسمى عالما فيقول: عالم الإنسان، وعالم الماء، وعالم النار، أيضا وقد روى أن لله بضعة عشر ألف عالم، وأما جمعه جمع السلامة فلكون الناس فى جملتهم والإنسان إذا شارك غيره فى اللفظ غلب حكمه.

---

(١) سورة ص الآية: ٤١.
(٢) أى نوحا عليه السلام
(٣) سورة الإسراء الآية: ٣.
(٤) أخرجه البخارى وابن ماجة عن أبى هريرة (ض) مرفوعا.
(٥) سورة ق الآية: ٢٩.
(٦) الراغب ص ٣٢٢.
(٧) سورة الأعراف الآية: ١٨٥.

وقيل: إنما جمع هذا الجمع لأنه عنى به أصناف الخلائق من الملائكة والجن، والانس وغيرها(١).

نتبين من كلام الراغب: أن المقصود بقوله تعالى ﴿للعالمين﴾ هو أن العالم كل ما سوى الله تعالى، ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة:

على أن الإمام الرازى يعترض على كون الرسول ﷺ، كان مرسلا أيضا إلى الملائكة فيقصر الرسالة على الإنس والجن جميعا يقول:

«إن العالم كل ما سوى الله تعالى، ويتناول جميع المكلفين من الجن والإنس والملائكة، لكنا أجمعنا أنه عليه السلام لم يكن رسولا إلى الملائكة، فوجب أن يكون رسولا إلى الجن والإنس جميعا، ويبطل بهذا قول من قال: انه كان رسولا إلى البعض دون البعض»(٢)

ويؤيد هذا الرأى صاحب تفسير البحر المحيط فيقول:

وللعالمين عام للانس والجن من عاصره أو جاء بعده وهذا معلوم من الحديث المتواتر وظواهر الآيات:

وقرأ ابن الزبير للعالمين للجن والانس وهو تفسير للعالمين، ولما سبق فى أواخر السورة:

﴿أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٣)

فكان إخبارا بأن ما فيهما ملك له أ.هـ(٤)

ويقابل هذا الفريق المخصص للعالمين بكونهم الإنس والجن فريق آخر ذكره الإمام الألوسى يقول:

والمراد بالعالمين عند جمع من العالمين الإنس والجن ممن عاصره صلى الله عليه وسلم، إلى يوم القيامة.

ويؤيده قراءة ابن الزبير للعالمين للجن والإنس وإرساله ﷺ إليهم معلوم من الدين بالضرورة فيكفر منكره، وكذا الملائكة، كما رجحه جمع محققون، كالسبكى ومن تبعه، ورد على من خالف ذلك.

---

(١) الراغب ص ٣٤٩.

(٢) تفسير الفخر الرازى ص ٤١٤ جـ٦.

(٣) سورة يونس الآية: ٥٥.

(٤) تفسير البحر المحيط (أبى حيان) جـ ٦ ص ٤٧٨.

وادعى بعضهم دلالة الآية عليه، لأن العالم ما سوى الله تعالى وصفاته العلى، فيشمل الملائكة عليهم السلام، وصيغة جمع العقلاء للتغليب، أو جمع بعد تخصيصه بالعقلاء(١)

على أنه يمكن التوفيق بين الرأيين:

نقول: نعتقد أنه يسمو بنا عن الدخول فى أى جدل حول هذا الموضوع بذكر رأى هو فى نظرنا القول الصواب، وقد ذكره الإمام الألوسى فى خاتمة بحثه بعد أن عرض الآراء فى تفسير العالمين يقول:

ومن قال كالبارزى: أنه عليه الصلاة والسلام أرسل حتى إلى الجمادات بعد جعلها مدركة لظاهر خبر مسلم، وأرسلت إلى الخلق كافة لم يخصص، واكتفى بالتغليب.

وفائدة الإرسال للمعصوم وغير المكلف طلب اذعانهما لشرفه عليه الصلاة والسلام ودخولهما تحت دعوته وأتباعه تشريفا على سائر المرسلين عليهم السلام(٢)

«نذيراً»:

يقول الراغب: والانذار اخبار فيه تخويف كما أن التبشير اخبار فيه سرور قال:

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّىٰ﴾(٣)

﴿أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾(٤)

﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ﴾(٥)

والنذير المنذر ويقع على كل شيء فيه انذار انسانا كان أو غيره:

﴿إنى لكم نذير مبين﴾

إنى أنا النذير المبين،

والنذر جمعه، قال

هذا: نذير من النذر الأولى

أى من جنس ما أنذر به الذين تقدموا قال:

﴿كذبت ثمود بالنذر﴾

وقد نذرت أى علمت ذلك وحذرت(٦)

---

(١) تفسير الألوسي جـ ١٨ ص ٢٣١.

(٢) تفسير الألوسى جـ ١٨ ص ٢٣٢.

(٣) سورة الليل الآية: ١٤.

(٤) سورة فصلت الآية: ١٣.

(٥) سورة الأحقاف الآية: ٢١.

(٦) الراغب ص ٤٨٧.

والمعنى أن الله سبحانه وتعالى أرسل الرسول ﷺ بالفرقان ليكون للعالمين جميعا نذيرا ومخوفا لهم إذا لم يؤمنوا بما جاء به سيدنا محمد ﷺ، سواء من ناحية العقيدة أو من ناحية التشريع، وكما جاء بالقرآن، وهذا للدلالة على أهمية ما جاء به الرسول ﷺ مما يستدعى الانذار لمن لا يؤمن به من العالمين.

على أن المقام هنا يوجب ذكر نوع من التبشير نظرا لقوله تبارك فى أول الآية وهى تدل على كثرة الخير والبركة ، فكيف جاز الانذار هنا؟

يرد الفخر الرازى على هذا الاعتراض بقوله:

إن هذا الإنذار يجرى مجرى تأديب الولد وكما أنه كلما كانت المبالغة فى تأديب الولد أكثر كان الإحسان إليه أكثر لما أن ذاك يؤدى فى المستقبل إلى المنافع العظيمة، فكذا ههنا كلما كان الإنذار كثيرا كان رجوع الخلق إلى الله أكثر فكانت السعادة الأخروية أتم وأكثر، وهذا كالتنبيه على أنه لا التفات إلى المنافع العاجلة. وذلك أن سبحانه لما وصف نفسه بأنه الذى يعطى الخيرات الكثيرة لم يذكر إلا منافع الدين ، ولم يذكر البته شيئا من منافع الدنيا[1].

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾[2]

جمعت هذه الآية الكريمة بين خصائص الألوهية، وهى الملك والخلق والتقدير والاستغناء عن الولد والشريك، وبينت أن الذى يتصف بهذه الخصائص هو: الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا.

فهو حقيق أن يؤمن به المشركون، ويتبعوا رسالة نبيه ﷺ.

فإننا إذا تتبعنا هذه الخصائص نجد أنها لاتكون إلا لله سبحانه وتعالى، ولا يتأتى لها أن تتوافر فيمن سواه.

﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

يقول الإمام أبو حامد الغزالى:- فى تعريف الملك- فى شرحه لأسماء الله الحسنى:

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٤٤٥.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٢.

هو الذى يستغنى فى ذاته وصفاته عن كل موجود بل لايستغنى عنه شىء فى شىء لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى وجوده ولا فى بقائه، بل كل شىء سواه، فهو له مملوك فى ذاته وصفاته، وهو مستغن عن كل شىء فهذا هو الملك المطلق[١]

فكيف ندعى الألوهية لغيره سبحانه وتعالى؟ وغيره مفتقر إليه ، فإنه لا يتصور أن يكون غيره ملكا مطلقا يستغنى عن جميع الموجودات وتكون هى محتاجة إليه.

على أنه إذا كان المالك مشتق من الملك فإننا يمكننا أن نضيف إلى قولنا بأنه:

مالك الملك، والتى يقول الإمام أبو حامد الغزالى عنها:

هو الذى ينفذ مشيئته فى مملكته كيف شاء، وكما شاء، إيجاد واعداما وابقاء، وافناء، والملك ههنا بمعنى المملكة، والمالك بمعنى القادر التام[٢] القدرة.

على أنه إذا كان تحقيق الملك عند أهل التحقيق القدرة على الإبداع والانشاء، فلا مالك فى الحقيقة إلا الله، وفى غيره مجاز فإذا أثبت لزم العبد أن يتبرأ من الاضافة إلى نفسه فلا يقول: بى ولا لى، ولا منى، ولهذا قيل:

التوحيد اسقاط الياءات «يعنى ياءات الاضافة إلى نفسه، كما يقول الامام القشيرى[٣]

فإننا يمكننا أن نأخذ من قوله سبحانه وتعالى:

«الذى له ملك السموات والأرض» دلالة الأثر على المؤثر، وهو دليل منطقى مشهور، يستدل به ، وإذا كنا نضيفه إلى التفاسير السابقة، فإننا نشارك فى هذا الرأى الامام الفخر الرازى حيث يقول فى تفسيره:

قوله: «الذى له ملك السموات والأرض»، وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه، لأنه لا طريق إلى اثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب.

وقوله : «له ما فى السموات والأرض» إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها، وزمان بقائها فى ماهيتها وفى وجودها.

وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء[٤]

---

(١) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى للإمام أبى حامد الغزالى ص ٥٤.
(٢) المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى للإمام الغزالى.
(٣) التحبير فى التذكير للإمام عبد الكريم القشيرى ص ٢٦.
(٤) تفسير الفخر الرازى جـ ٦.

ولم يتخذ ولدا:

يقول الراغب:

الأخذ حوذ الشيء وتحصيله[١]

ومن هنا يمكننا أن نفهم المقصود من قول الإمام الألوسي:

«ولم يتخذ ولدا» أي لم ينزل أحد منزلة الولد[٢]

رداً بذلك على النصارى ودعواهم هم واليهود، بأن المسيح أو العزيز لا يشترط أن يكونوا أبناء لله من صلبه بل هم أبناء بالاتخاذ، فكان هذا أبلغ رد على تلك الدعوى، فانه سبحانه وتعالى – كما يقول الامام الفخر الرازي– في قوله:

«ولم يتخذ ولد»[٣]

فبين سبحانه أنه هو المعبود أبدا، ولا يصح أن يكون غيره معبودا ووارثا للملك عنه، فتكون هذه الصفة كالمؤكدة لقوله «تبارك»، ولقوله: «له ملك السموات والأرض» وهذا كالرد على النصارى.

ولم يكن له شريك فى الملك:

يقول الراغب الاصفهاني – في مفردات القرآن – بالنسبة للفظ شرك:

الشركة والمشاركة خلط الملكين.

وقيل: هو أن يوجد شيء لاثنين تصاعدا عينا كان ذلك الشيء أو معنى كمشاركة الإنسان والفرس في الحيوانية ومشاركة فرس وفرس في الكمتة والدهمة، وشرك الإنسان في الدين ضربان:

أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، يقال: أشرك فلان بالله، وذلك أعظم كفر، قال:

﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾

والثاني: الشرك الصغير وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء، والنفاق[٤]

---

(١) الراغب ص١٢.

(٢) تفسير الإمام الألوسي جـ١٨ ص ٣٣٢.

(٣) تفسير الفخر الرازي ص ٤٤٥ جـ٦.

(٤) الراغب ص ٢٦٠.

والواقع: أننا إذا نظرنا إلى الآية نجد أنها تنفى الشريك عن الله تعالى نفيا قاطعا لا لبس فيه، فهو الذى خلق كل شىء وقدره تقديرا، وهذه الآية فيها الرد على كل القائلين بتعدد الآلهة كالثنوية والقائلين بعبادة النجوم وعبادة الأوثان.

فإن ملكية الله سبحانه وتعالى، للسموات والأرض ملكية مطلقة على عكس الملوك الآخرين، الذين يكون لهم الاحتياج إلى بعض الأفراد أو محتاجين إلى الولد والقريب لمساندتهم فى ملكهم.

وخلق كل شىء فقدره تقديرا:

يقول الراغب الأصفهانى فى معنى الخلق:

الخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل فى ابداع الشىء من غير أصل ولا احتذاء.

خلق السموات والأرض «أى أبدعها بدلالة قوله ﴿بديع السموات والأرض﴾، وليس الخلق الذى هو الابداع إلا لله تعالى، ولهذا قال فى الفعل بينه تعالى وبين غيره:

«أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون»[١]

وعلى ذلك يكون المعنى الكلى لخلق كل شىء فقدره تقديرا:

هو كما بينه الإمام الألوسى بقوله:

«وخلق كل شىء» أى أحدثه احداثا جاريا على سنن التقدير والتسوية حسبما اقتضته ارادته المبنية على الحكم البالغة، كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة، وصور وأشكال معينة.

«فقدره» أى هيأه لما أراد به من الخصائص والأفعال اللائقة به.

«تقديرا» بديعا لا يقدر قدره، ولا يبلغ كنهه كتهيئة الإنسان للفهم. والإدراك، والنظر، والتدبر، فى أمور المعاد والمعاش، واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة[٢].

ونرى مع الإمام الألوسى أنه لا يوجد أى تكرار فى الآية، لأن التقدير الدال عليه الخلق بمعنى التسوية.

(١) الراغب ص ١٥٧.
(٢) تفسير الألوسى جـ ١٨ ص ٢٣٣.

والتقدير المذكور فى الآية، بمعنى التهيئة وهما مختلفان.

وفى نظرنا أن هذا هو أسلم تفسير للآية وهو يبعد بنا عن الشطط والجدل، حيث أن كثيرا من المفسرين قد بعدوا عن التفسير الأصلى للآية، ودخلوا فى مناقشات كثيرة، قد لا تفيدنا هنا باعتبار أننا نناقش موقف السورة من الألوهية، والسورة لم تتعرض لأى نقاش فى هذا الموضوع.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾[1].

حددت لنا الآيات السابقة خصائص الألوهية الكاملة، وبينت لنا أن الله سبحانه وتعالى هو المتصف بهذه الصفات، وأنه لذلك هو المستحق للعبادة، وأنه حقيق بنا أن نتبع رسوله الذى نزل عليه الفرقان.

ثم أخذت السورة الكريمة تبين لنا ما يعبده المشركون ويتخذونهم آلهة من دون الله، هذه الآلهة لاتستطيع خلق شىء، أو فعل شىء من تصريف الكون، وكيف يستطيعون ذلك، وهم أنفسهم مخلوقون ، فهم فى احتياج إلى الآخرين، وهم يخلقون أساسا من الله، وتصويرا بصنع عبدتهم لهم بالنحت.

ثم تبين الآيات حال هؤلاء الآلهة بعد وجودهم بأنهم:

﴿لا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا﴾.

يقول الإمام الألوسى:

وقيل: لأنفسهم ليدل على غاية عجزهم، لأن من لايقدر على ذلك فى حق نفسه، فلأن لايقدر عليه فى حق غيره من باب أولى[2]أ.هـ

هذا على الرغم من أن من أهم خصائص الإلهة قدرته على التصرف بالنسبة لغيره ولذاته.

ثم تتبع الآية قولها:

﴿ولا يملكون موتا ولا حياة ولانشورا﴾ وهذا زيادة بيان لما سبق من عجزهم عن إتيان أى شىء من الأفعال، فهم لا يستطيعون اماتة الأحياء ولا إحياء الموتى ولا على الجزاء الأخروى فكيف يكونون آلهة وهم يقدرون على شىء؟

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٣.

(٢) تفسير الألوسى ص ٢٣٤ جـ٨.

موقف المشركين من عبادة الأوثان:

يثور هنا بنا سؤال أننا نجد فى كثير من الآيات القرآنية، ما يفهم منه أنهم كانوا يؤمنون بوجود رب، فكيف يكون ذلك، كقوله تعالى:

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1].

وقال تعالى:

﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ؟؛
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ.
قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ؟؛
سَيَقُولُونَ: لِلَّهِ قُلْ: أَفَلا تَتَّقُونَ ؟
قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟.
سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾[2] ؟

وقال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[3]

للإجابة على هذا السؤال:

أن مشركى العرب كانوا مقرين بوجود إله، وأنه رب كل شيء وخالقه ولكنهم مع ذلك أثبتوا الشفعاء الذين جعلوهم أندادا لله سبحانه وتعالى من الأوثان وغيرها.

بل إن الإمام ابن تيمية يقول:

ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر، والكواكب ويدعوها كمايدعو الله تعالى ويصوم لها وينسك لها ويتقرب إليها. ثم يقول:

إن هذا ليس بشرك ، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنهاهى المدبرة لى، فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا أ.هـ[4].

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٦.
(٢) سورة المؤمنين الآيات من ٨٤ – ٨٩.
(٣) سورة العنكبوت الآية: ٦١.
(٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول شيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقى ص ١٣٧ وص ١٣٨.

فيكون قول الله تعالى أنهم جعلوا دونه آلهة، المراد بها أنهم زاد بهم الطغيان فى التقرب إلى أصنامهم.

ومما يشرح لنا هذه الفكرة شرحا وافيا قول الإمام ابن تيمية:

وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد أن الله وحده خلق العالم، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام، ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد، ويظن هؤلاء أنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه، فقد فنوا فى غاية التوحيد.

وكثير من أهل الكلام يقول: التوحيد له ثلاث معان:

وهو واحد فى ذاته لا قسيم له أو لا جزء له.؛

وواحد فى صفاته لا شبيه له.

وواحد فى أفعاله لاشريك له.

وهذا المعنى الذى تتناوله هذه العبارة، فيها مايوافق ما جاء به رسول الله ﷺ، وفيها ما يخالف ماجاء به الرسول ﷺ، وليس الحق الذى فيها هو الغاية التى جاء بها الرسول، بل التوحيد الذى أمر به يتضمن الحق الذى فى هذا الكلام وزيادة أخرى، فهذا من الكلام الذى التبس فيه الحق بالباطل، وكتم الحق، وذلك أن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالى من الصفات، تنزهه عن كل ماينزه عنه، وأقر بأنه وحده خالق كل شىء لم يكن موحدا بل ولامؤمنا، حتى يشهد أنه لا إله إلا الله، فيقر بأن الله وحده هو الإله المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لاشريك له، والإله هو بمعنى المألوه المعبود الذى يستحق العبادة، وليس هو الإله بمعنى القادر على الخلق، فإذا فسر المفسر الإله بمعنى القادر على الاختراع، وأعتقد أن هذا أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا التوحيد هو الغاية فى التوحيد، كمايفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية، وهو الذى ينقلونه عن أبى الحسن وأتباعه، لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذى بعث الله به رسله، فإن مشركى العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالق كل شىء ، وكانوا مع هذا مشركين.

فليس كل من أقر أن الله رب كل شىء وخالقه يكون عابدا له دون ماسواه، داعيا له دون ما سواه، راجيا له خائفا منه، دون ماسواه يوالى فيه ويعادى فيه، ويطيع رسله

ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه، وقد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾(١).

وعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شىء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم معه وجعلوا له أندادا(٢)

قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَ لَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ ۝ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾(٣).

وبهذا تتضح عقيدة المشركين على ضوء موقف سورة الفرقان من الألوهية.

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٣٩.

(٢) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول للإمام ابن تيمية تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ومحمد حامد الفقى ص ١٣٧ وص ١٣٨.

(٣) سورة الزمر الآيات: ٤٣ - ٤٤.


الباب الثاني
موقف سورة الفرقان من النبوة
الفصل الأول: تحديد معنى النبوة، وبيان حاجة البشر إليها.
الفصل الثانى: إثبات النبوة المحمدية عن طريق النظر فى سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة.
الفصل الثالث: شبه على دليل الرسالة وهو القرآن والرد عليها.
الفصل الرابع: شبهات المشركين على صاحب الرسالة والرد عليها.
الفصل الخامس: خلق رسول الله ﷺ ومعجزاته الحسية.

الفصل الأول

تحديد معنى النبوة وبيان حاجة البشر إليها

لفظ النبى مأخوذ من الإنباء، فيتضمن هذا معنى الإعلام والإخبار، لكنه فى عامة موارد استعماله أخص من مطلق الإخبار، فهو يستعمل فى الإخبار بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة، كما قال تعالى:

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾(١)

وقال: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا ؟ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٢)

وجمع النبى، وهو من النبأ، وأصله الهمزة، وقد قرئ بها، وهى قراءة نافع، يقرأ النبئ، لكن لما كثر استعماله لينت همزته كما فعل مثل ذلك فى الذرية وفى البرية.

وقد قيل: هو من النبوة بفتح النون، وسكون الباء، وهى العلو فمعنى النبى: المعلى الرفيع المنزلة، والتحقيق أن هذا المعنى لازم للأول فمن أنبأه لله وجعله منبئا عنه، فلا يكون إلا رفيع القدر عليا، وأما لفظ العلو والرفعة فلا يدل على خصوص النبوة، إذ يوصف بهذا من ليس بنبى كما قال تعالى:

﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾(٣)

يقول الإمام ابن تيمية:

وقراءة الهمزة قاطعة بأنه مهموز، وماروى عن النبى ﷺ أنه قال:

«أنا نبى الله ولست نبئ الله»

فما رأيت له إسنادا، لامسندا ولا مرسلاً ولا رأيته فى شىء من كتب الحديث، ولا السير المعروفة، ومثل هذا لايعتمد عليه،

ويبين رحمه الله أننا إذا اعتبرنا النبى مهموز الأصل، فإن الهمزة يمكن أن تلين فذلك جائز، فتصير حرفا معتلا فيعبر عنه باللفظين فترد إليه القرائتين بخلاف المعتل

(١) سورة آل عمران الآية: ٤٩.
(٢) سورة التحريم الآية: ٣.
(٣) سورة آل عمران الآية: ١٣٩.

فإنه لا يجعل همزة، فيجب القطع بأن النبى مأخوذ من الإنباء لا من النبوة بفتح النون وسكون الباء والله أعلم[١].

هذا هو التحديد اللغوى لمعنى النبوة، قد رجحنا فيه أن لفظ النبى مأخوذ من الإنباء، ففيه معنى الإخبار، لكنه فى عامة استعمالاته خاص بالأمور الغائبة المختصة دون المشاهدة المشتركة: اللفظ من النَّبْوَة (بفتح النون وسكون الباء) وهى العلو، فمعنى النبى عندهم: المعلى الرفيع المنزلة والأصح أن هذا المعنى لازم الإنباء والإخبارفان لفظ العلو ورفعة المنزلة قد يوصف بها من ليس نبى فلا يدل على خصوص النبوة، ولا يدل على خصوص صفة النبى أن من كان نبيا كان رفيع الشأن عالى المنزلة، كما قدمنا على أنه إذا كان هذا هو التحديد اللفظى واللغوى لمعنى النبوة، فإن أغلب تحديدات معنى النبوة تدور حول هذا ولاتزيد عنه إلا قليلا.

فإن المشهور فى عرف الشرع - كما يقول الإمام الألوسى- :

«أن النبى محمد أوحى إليه سواء أمر بالتبليغ أم لا[٢]»

أما صاحب شرح المقاصد على المواقف فيقول:

«أن النبوة هو كون الإنسان مبعوثا من الحق إلى الخلق[٣]»

أما الإمام تقى الدين أحمد بن تيمية فيحددها فى معرض كلامه على النبوة فيقول:

«أن النبى هو الذى ينبئه الله وهو ينبئ بما أنبأ الله به[٤]»

أما الإمام محمد عبده فإنه لا يحدد معنى النبوة بتعريفها، بل يحددها وبهدفها ويوجز ذلك فى مقدمة كلامه، ثم يفصله بعد ذلك، ويذكرها قوله مقدمة كلامه عن النبوة:

---

(١) نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم فى القرآن تأليف الدكتور حسن ضياء الدين عتر بن محمد، وينظر فى ذلك أيضا النبوات لتقى الدين أحمد بن تيمية ص ٣٢٢ إلى ص٣٢٣ وينظر أيضا لسان العرب والقاموس المحيط والمفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى.

(٢) وعندنا أن كل نبى وكل رسول مأمور بالتبليغ على تفصيل سنذكره فيما بعد. روح المعانى للإمام الألوسى جـ١٧ ص ١٧٣ فى معرض تفسير للآية ٥٢ من سورة الحج . «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته».

(٣) شرح المقاصد على المواقف جـ٢ ص ١٢٨.

(٤) كتاب النبوات للامام تقى الدين أبى العباس أحمد بن تيمية ص ١٧٦.

«النبوة تحدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات، وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقدمات عرفانهم، لكنها لاتختم إلا ما فيه الكفاية للعامة[١]»

على أننا إذا نظرنا إلى مجموع هذه التحديدات لمعنى النبوة نجد أنها لاتكفى كفاية تامة لتحديد معنى النبوة،

فلم تحدثنا مثلا هذه التعريفات، عن علامات الرسل وسماتهم المحدودة، ومن خلقهم قبل الإصطفاء للنبوة، وبالتأكيد فإن هذه التعريفات لم تخرج عن نطاق التحديد اللفظى للنبوة إلا قليلا ولم يخرج عن هذا النطاق سوى الإمام محمد عبده، حيث تكلم عن أهدافها دون تحديد تعريف لها.

ولكن كيف يتأتى لنا أن نحدد معنى النبوة؟

إن التعريف الذى يحدد لنا معنى النبوة هو التعريف القرآنى، وهو الذى يخرجنا من هذه الدائرة الضيقة المحدودة للتعريفات السابقة.

وتبدو لنا أولى الآيات التى تحدد لنا المعنى المراد فى قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٢]

ويقول: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣]

ويقول: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾[٤]

تدلنا هذه الآيات على أن الله يصطفى الأنبياء ويجتبيهم لنفسه، ويرسم حياتهم قبل ميلادهم، فيختار لهم النسب الشريف الذى يميزهم عن غيرهم ويصنعهم على عينه،

يقول رسول الله ﷺ:-

«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم، إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة، واصطفى من بنى كنانة: قريشا، واصطفى من قريش، بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم[٥]»

---

(١) رسالة التوحيد للأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ٧٢.
(٢) سورة آل عمران الآية: ٣٢.
(٣) سورة النساء الآية: ١٢٥.
(٤) سورة طه الآية: ٢٩.
(٥) رواه الإمام مسلم (مختصر صحيح مسلم) للحافظ المنذرى بتحقيق السيد محمد ناصر الدين الألبانى.

وليس هناك دليل على ماذكرنا من قبل أكثر من قول الله سبحانه وتعالى عن سيدناعيسى عليه السلام قبل أن يولد:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1]،

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾[2]

ولعل مما يشرح الآيات السابقة بتفصيل أوسع ذلك الحديث الذى ذكره الإمام البخارى عن كيفية استدلال هرقل على صدق رسول الله ﷺ وفيه ركز هرقل تركيزا كبيراً على حياة الرسول ﷺ قبل البعثة:

حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، قال: أخبرنا شعيب عن الزهرى، قال: أخبرنى عبدالله بن عبدالله بن عتبه بن مسعود أن عبدالله بن عباس أخبره: أن أبا سفيان بن حرب أخبره: «أن هرقل أرسل إليه فى ركب قريش وكانوا تجارا بالشام، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ ماد فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيليا فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال:

أيكم أقرب نسبا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟

فقال: أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم نسبا:

فقال: أدنوه منى وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه:

قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل فان كذبنى فكذبوه، فوالله لولا الحياء من أن يأثروا على كذبا لكذبت عنه.

ثم كان أول ماسألنى عنه: أن قال: كيف نسبه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟

قلت: لا.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا،

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟

---

(١) سورة آل عمران الآيات: ٤٥ - ٤٦.

(٢) سورة مريم الآية: ٢١.

فقلت: بل ضعفاؤهم،

قال: أيزيدون أم ينقصون؟

قلت: بل يزيدون.

قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟

قلت: لا،

قال: فهل يغدر؟ قلت: لا ونحن منه فى مدة لا ندرى ما هو فاعل فيها،

قال: ولم يمكن كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة.

قال: فهل قاتلتموه قلت نعم،

قال: فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال: ينال منا وننال منه،

قال: ماذا يأمركم؟

قلت يقول: اعبدوا الله وحده، ولاتشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف والصلة،

فقال للترجمان: قل له: سألت عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يأتسى بقول قيل قبله.؛

وسألتك هل كان من أبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت فلو كان آبائه من ملك؟ قلت: رجل يطلب ملك أبيه،

وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد عرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله،

سألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟

فذكرت أن ضعفاؤهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتكم أيزيدون أم ينقصون؟

فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم،

وسألتك : أيرتد أحد منهم سخطه لدينه بعد أن يدخل فيه؟

فذكرت : أن لا ، وكذلك أمر الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بما يأمركم؟

فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئا ، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف.

فإن كان ما تقول حقا فسيملك موضع قدمى هاتين.

وقـد كنت أعلم أنه خـارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أنى أعلم أنى أخلص إليـه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه[1].

ثم نأتى للجزء الثانى من المنهج القرآنى لتحديد النبوة وهوحالة تلقى الوحى؛ فبعد أن يصطفى الله رسله ويربيهم ويعنى بهم العناية الكاملة، يفاجئهم بتلقى الوحى،

يقول الدكتور عبدالحليم محمود فى كتابه «التوحيد الخالص» أو الإسلام والعقل عن مرحلة بدء الوحى – وهو فى هذه النقطة يسير معنا فى دائرة الاتجاه القرآنى – يقول:

فإذا أصبحت نفوسهم – أى الأنبياء – بتربية الله وعنايته أهلا للتلقى فاجأها الوحى وهى سائرة، فى الوادى المقدس وفى البقعة المباركة.

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾؟

﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لأَهْلِهِ:

﴿امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي ﴿١٤﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ﴾[2]

---

(١) رواه الإمام البخارى فى صحيحه.

(٢) سورة طه الآيات: ٩ – ١٦.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1].

ويفاجئ الرسول ﷺ الوحى وهو فى غار حراء.

وعندنا فى الإسلام الوثيقة الوحيدة فى العالم كله عن كيفية بدء الوحى وهى وثيقة تحمل فى طياتها كثيرا من المعانى الخاصة بالنبوة، وصفات الرسول ﷺ، وهى تشير فى صراحة ويسر وسهولة إلى كثير من الآيات الدالة على صدق رسول الله ﷺ وخاتم النبيين:

«وهذه الوثيقة رويت بشتى الطرق ومختلف الاسانيد، والقرآن يشير إلى الحالة التى نذكرها بصراحة لالبس فيها، يقول سبحانه:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[3]أ.هـ

والوثيقة التى يحدثنا عنها كتابنا (التوحيد الخالص) وردت فى صحيح البخارى: عن السيدة عائشة أم المؤمنين أنها قالت:

أول ما بدئ به رسول الله، ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لايرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلوا بغار حراء، فيتحنث فيه: وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال: اقرأ،

قال: ما أنا بقارئ.

قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد، ثم أرسلنى،

فقال: اقرأ.

قلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى الثانية حتى بلغ منى الجهد،

فقال: اقرأ.

فقلت: ما أنا بقارئ فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى،

(١) سورة القصص الآيات: ٢٩ - ٣٠. (٢) سورة الشورى الآية: ٥٢. (٣) سورة الشعراء الآيات: ١٩٣ - ١٩٥.

فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾

فرجع بها رسول الله ﷺ، يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنهما، فقال: زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر:

لقد خشيت على نفسى.

فقالت خديجة:

كلا، والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعيين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى- ابن عم خديجة- وكان امرؤ قد تنصر فى الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية إلى ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمى،

فقالت له خديجة:

«ياابن عم، اسمع من ابن أخيك:

فقال له ورقة: ياابن أخى، ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ، خبر ما رأى،

فقال له ورقة: هذا الناموس، الذى نزل الله على موسى ياليتنى فيها جذعا، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك؟

فقال رسول الله ﷺ: أومخرجى هم؟

قال: نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وان يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزرا، ثم لم ينشب ورقة أن توفى وفتر الوحى[1].

هذا هو المنهج القرآنى لتعريف النبوة والذى يمثل لنا التعريف الصحيح لها باعتباره النص الذى أتانا من عند الله سبحانه وتعالى، وعن سيدنا محمد ﷺ المعصوم، ولنا أن نوجزه فنقول:

النبوة سفارة بين الله وخلقه يقصد بها إصلاح أمرهم، وهبة من الله سبحانه وتعالى يمنحها لمن يصطفهم من عباده بعد أن يربيهم التربية الصحيحة التى بها يكونون مؤهلين لتلقى الوحى من الله سبحانه وتعالى فى أى وقت.

(١) رواه البخارى فى باب كيف كان بدء الوحى، وفى كتاب التفسير عند تفسير سورة: «اقرأ»، وفى كتاب التعبير ورواه الامام مسلم فى باب بدء الوحى إلى رسول الله ﷺ.

الفرق بين النبى والرسول

هل هناك فرق بين النبى والرسول؟

الواقع أن العلماء فى الإجابة على هذا السؤال انقسموا إلى فرقتين:

الفرقة الأولى:

قررت هذه الفرقة أن لايوجد أى فرق بين النبى والرسول فكلا اللفظين معناهما الأنباء والأخبار، فالنبى هو من ينبئ والرسول يبلغ الرسالة وعلى ذلك فلا فرق بينهما.

والواقع أن أصحاب هذا الرأى استندوا فى تفسيرهم للفظين إلى اللغة باعتبار أن النبى اسم فاعل أو اسم مفعول.

والرسول اسم مفعول، وبناء على هذا قرروا عدم وجود فرق بين اللفظين.

أما الفرقة الثانية:

وهم جمهور العلماء، فقد قرروا وجود فرق بين لفظى نبى ورسول، واستندوا فى ذلك على القرآن الكريم والاحاديث الشريفة. التى تؤيدهم فى هذا، ومن ذلك:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[١].

يقول الإمام الألوسى فى تفسير الآية:

وعطف نبى على رسول، يدل على المغايرة بينهما وهو الشائع، ويدل على المغايرة أيضا ما روى أنه ﷺ سئل عن الآنبياء، فقال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا.

قيل: فكم الرسل منهم؟

قال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جما غفيرا[٢]

ونضيف نحن قوله تعالى:

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾

وقوله تعالى:

---

(١) سورة الحج الآية: ٥٢.

(٢) روح المعاني للإمام الألوسى جـ١٧ ص ١٥٢ وعقب الامام الألوسى على الحديث بقوله: وقد أخرج ذلك كما قال السيوطى (أحمد وابن راهوية فى مسنديهما من حديث أبى أمامة وأخرجه ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه من حديث أبى ذر.

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾.

فإن توارد الصفتين الرسول والنبى على موصوف واحد فى التنكير والتعريف يقتضى تباينا ولو من وجه كما يقتضى تغايرا ولو فى المفهوم على مابيناه فى آخر المقام.

هذه هى أهم الأدلة على وجود الفرق بين النبى والرسول وبها يرجح رأى الفرقة الثانية.

الفرق بين النبى والرسول: على أشهر الآراء:

اختلفت آراء العلماء فى تحديد الفرق بين النبى والرسول، بل إن بعضهم اختلفوا هم أنفسهم على قولين وباستقراء الآراء فى تحديد الفرق بين النبى والرسول نجدها كالآتى:

أولا: الرسول: هو من له كتاب أو نسخ لبعض أحكام الشريعة السابقة، والنبى قد يخلو من ذلك كيوشع عليه السلام[1].

ثانيا: وفى كلام بعض المعتزلة: أن الرسول صاحب الوحى بواسطة الملك، والنبى هو المخبر عن الله تعالى بكتاب أوإلهام أوتنبيه فى المنام.

ثالثا: الرسول من يأتيه الملك عليه السلام بالوحى يقظة والنبى يقال له ولمن يوحى إليه فى المنام لاغير.

هذا وقد عدد الإمام الألوسى بعض الآراء التى تمثل الجو العام للتفرقة بين النبى والرسول نذكر منها.

رابعا: الرسول ذكر حر بعثه الله بشرع جديد يدعو الناس إليه، والنبى يعمه ومن بعثه لتقرير شرع سابق، كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا بين موسى وعيسى عليهما السلام.

خامسا: الرسول ذكر حر بعثه الله تعالى إلى قوم بشرع جديد بالنسبة إليهم وإن لم يكن جديدا فى نفسه، كإسماعيل عليه السلام، إذ بعث لجرهم أولا والنبى يعمه ومن بعث بشرع غير جديد كذلك.

---

(١) شرح المقاصد على المواقف لعضد الدين الأيجى جـ٢ ص ١٢٩.

سادسا: أن المشهور فى عرف الشرع أن النبى أعم من الرسول، فإنه من أوحى إليه وأمر بالتبليغ أ.هـ.[1]

وبدراستنا لهذه الآراء نجد أنها جميعا لاتقدم لنا الفرق الكافى بين لفظى النبى والرسول، بل إن بعضها يتهافت فى نفسه عندل أول طعن، كالرأى الثالث الذى نقضه الإمام الألوسى.

وإذا كان أهم هذه الآراء وأشهرها وهو الرأى السادس.

فإننا بدراسته نجد أنه لايحدد لنا الفرق بين نبى ورسول تحديدا بينا، فهو يخلط بينهما فهو يجعل النبى نبيا إذا لم يؤمر بالتبليغ، ويجعله رسولا إذا أمر بالتبليغ، مما لايجعلنا نرى هناك فرقا واضحا بينهما، ونشارك فى ذلك الرأى الإمام الألوسى بقوله تعقيبا على هذا الرأى.

«ولايصح إرادة ذلك لأنه إذا قوبل العام بالخاص يراد بالعام ماعدا الخاص، فمتى أريد بالنبى ماعدا الرسول، كان المراد به من لم يؤمر بالتبليغ، وحيث تعلق به الإرسال صار مأمورا بالتبليغ، فيكون رسولا فلم يبق فى الآية بعد تعلق الإرسال رسول ونبى مقابل له[2]».

---

(١) شرح المقاصد على المواقف لعضد الدين الأيجى جـ٢ ص ١٢٩.

(٢) العبارة للامام الألوسى نقلا عن الفخر الرازى وقد نقضه الإمام الألوسى بقوله: وهذا أغرب الأقوال ويقتضى أن بعض الأنبياء عليهم السلام لم يوح إليه إلا مناما وهو بعيد فى مثله لايقال بالرأى، روح لمعانى جـ ١٧ ص١٧٣.

(٣) روح المعانى للامام الألوسى جـ١٧ ص ١٧٣.

(٤) روح المعانى للامام الألوسى جـ ١٧ ص ١٧٣.

منهج القرآن فى تحديد كل من النبى والرسول

١ - أنه ليس من الضرورى، أن يأتى الرسول بشريعة جديدة، وهذا نأخذه عن قوله، سبحانه وتعالى، عن سيدنا يوسف عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً﴾(١)

وقوله تعالى:

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٢).

فإن سيدنا يوسف كان يسير على شريعة إبراهيم عليه السلام، وسيدنا داود وسليمان كانوا يسيرون على شريعة التوراة، ومع ذلك كانوا من الرسل.

٢ - أن الأنبياء عليهم السلام يأتيهم وحى من الله سبحانه وتعالى فيبلغونه للمؤمنين، مع وجود شريعة يعمل بها، وهذا يكون كالفهم لها، ولكنه فهم موحى به من قبل الله سبحانه وتعالى.

وهؤلاء كأنبياء بنى إسرائيل، ونرى ذلك كما فى قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلأِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا﴾(٣).

فهم يطلبون وحيا من الله يخبرهم بملك يقاتلون تحت قيادته.

٣ - عند قراءتنا لقوله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾(٤).

نجد أنه إرسال يشمل النبى والرسول اذن فهناك اشراك فى جزء من الرسالة للنبى.

---

(١) سورة غافر الآية: ٣٤.
(٢) سورة النساء الآيات: ١٦٣ - ١٦٤.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٤٦.
(٤) سورة الحج الآية: ٥٢.

ويعلق على ذلك الإمام ابن تيمية بقوله:

قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾.

وقوله: «من رسول ولانبى» فذكر إرسالا يعم النوعين، وقد خص أحدهما بأنه رسول، فإن هذا هو الرسول المطلق، الذى أمر بتبليغ رسالته إلى من خالف الله، كنوع وقد ثبت فى الصحيح أنه أول رسول بعث إلى أهل الأرض، وقد كان قبله أنبياء كشيث وإدريس، وقبلهما آدم كان نبيا ومكلما. قال بن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام، فأولئك الأنبياء يأتهيم وحى من الله بما يفعلونه، ويأمرون به المؤمنين، الذين عندهم، لكونهم مؤمنين بهم، كما يكون أهل الشريعة الواحدة يقبلون مايبلغه العلماء عن الرسول[1] أهـ.

ومن هنا وبناء على ماذكرناه استنادا إلى كتاب الله تعالى، فاننا نرتضى رأى الإمام ابن تيمية فهو الذى يسير مع المنهج القرآنى حيث يقول: «النبى هو الذى ينبئه الله، وهو ينبئ بما أنبأه الله به، فان أرسل مع ذلك إلى من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله إليه فهو رسول.

أما إذا كان يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلى أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبى وليس برسول.

ونحن نضيف إلى كلام ابن تيمية أن مهمة النبى تتناول التبليغ عن الله عزوجل، فى أمور تتعلق بمصلحة المؤمنين، والفصل فى قضاياهم العامة كما قال تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ﴾[2]

كما نتناول الإشراف على سياسة الدولة وتولية المناصب من لدن الله عزوجل، كما قال تعالى:

(١) النبوات لابن تيمية ص ١٧٣.
(٢) سورة المائدة الآية: ٤٤.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٤٦.
(٤) سورة البقرة الآية: ٢٤٩.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ﴾[1].

وكذلك نتناول التشريع فى مسائل جزئية فيها صبغة التشريع المؤقت كما قال تعالى على لسان ذلك النبى.

﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾

أما مهمة الرسول فهى شاملة لكل التشريعات القديمة أو الجديدة، على أن تخصيص الرسول بإنزال كتاب جديد عليه قضية لم يقم عليها دليل.

ونحن نؤمن بأن جميع الأنبياء والرسل لابد أن يكون معهم كتاب يكون دستورا للشريعة التى يحكمون بها، قال تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾

---

(١) سورة البقرة الآية: ٢١٣.

حاجة البشر إلى النبوة والحكمة فى إرسال الرسل

إننا إذا نظرنا إلى النبوة فى جوهرها نجد أنها تتمثل فى الهداية الكاملة للبشر، الهداية فى العقيدة، والهداية فى التشريع، والهداية فى الأخلاق. إن العقل الانسانى مهما بلغ به التقدم والرقى لايمكن له الوصول إلى الهداية الكاملة الآتية له من الوحى الالهى المعصوم، لقد حاول كثير من الناس –على مدار الأزمنة– الوصول إلى الهداية عن طريق العقل، ولكن تلك المحاولات كلها قد باءت بالفشل.

لقد حاول ذلك الفلاسفة، وحاول ذلك علماء النفس والاجتماع ولكن كل تلك المحاولات لم تؤدى الا إلى تضارب الآراء والأفكار، ولم يصل أحد منهم إلى الرأى القاطع فى هذه المسألة، ولهذا كانت حاجة الانسانية إلى الوحى الإلهى المعصوم الآتى إلينا عن طريق الرسل، وذلك للدواعى الآتية:

١ - قصور العقل الانسانى عن الوصول إلى الإيمان الصحيح.

إننا إذا نظرنا إلى مراحل التاريخ المتعاقبة نجد أنه فى الأوقات التى كانت على فترة من الرسل كانت المجتمعات تضل فى ذلك الوقت ضلالا كبيرا بعبادة الأوثان، بل أن بعضها كان ينزل إلى أسفل الدرك من الضلال كما فعل بنوا اسرائيل عندما غاب عنهم سيدنا موسى عليه السلام، بعض الوقت، فعبدوا العجل المنصوب لهم من الذهب، ولعل خير شاهد لنا هو القرآن الكريم، عندما يذكر لنا حال المشركين قبل رسالة سيدنا محمد ﷺ، ومدى تنوع العبادة عندهم.

«أم اتخذوا من دونه آلهة»، (الأنبياء)، لقد عبدوا عدة آلهة.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، فبعضهم عبد إلهين[1].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[2].

لقد آمنوا بالألوهية وأنكروا الحياة الآخرة.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾[3].

لقد كفروا بالله وبالحياة الآخر.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[4].

---

(١) سورة النحل الآية: ٥١. (٢) سورة النحل الآية: ٣٨.

(٣) سورة الجاثية الآية: ٢٤. (٤) سورة النحل الآية: ٥٨.

لقد جعلوا لله البنات.

والبعض الآخر:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[١].

وبعضهم عبد الملائكة:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾[٢].

ثم يصور الله سبحانه وتعالى قيمة عبادتهم بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾[٣].

هذا هو التصوير القرآنى للفترة التى تبعد فيها الإنسانية عن الوحى المعصوم.

وفى هذه الفترات أيضا يظهر كثير من الفلاسفة والمصلحين، يحاولون جهدهم البحث فى أمور العقيدة، وماوراء الطبيعة، ولعل أبرز مثال لنا على ذلك هو المثال اليونانى أوجو المفكر اليونانى: إذا جئنا للجو اليونانى فاننا نجد أن أفلاطون فيما يتعلق بتصور الآلهة يختلف عن أرسطو.

وتصور أرسطو يختلف عن تصور الرواقيين.

وتصور الرواقيين يختلف عن تصور أبيقور، أو الأبيقوريين.

يصور أفلاطون الإله على أنه مثال للخير على رأس المثل، أومثال للجمال على رأس المثل، ومع أن أرسطو من سنة فانه يصور الله سبحانه وتعالى بصورة أخرى.

ويرى إنه المحرك الأول وهذا المحرك الأول ليس هو الذى يحرك العالم بإرادته، وليس هو الذى خلق العالم، وليس هو الذى صور العالم وكونه، بل أنه لايعلم عن العالم شيئا مطلقا.

إنه لايعلم شيئا يستوى فى ذلك: التافه من أمره والعظيم منه، إنه لايعلم حتى مجرد وجود العالم.

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٠٠.

(٢) سورة سبأ الآية: ٤٠.

(٣) سورة الأعراف الآيات: ١٩١ - ١٩٢.

وتأتى الرواقية فترى الله سبحانه وتعالى يمتزج بالكون أمتزاجا كاملا، فهو سره وهو فى كل ذرة من ذراته، وفى كل خلية من خلاياه.

ويأتى أبيقور ويقول:

ليس هناك شيء اسمه الله وليس هناك إله.

وتختلف هذه المدارس باختلاف أفرادها، وباختلاف رؤسائها[١].

إن المذاهب الفلسفية متخبطة فيما وراء الطبيعة.

وليس هناك ما يسمى بالرأى الفلسفى الواحد فيما يختص بعالم الغيب ونشارك فى ذلك الرأى الإمام أبا حامد الغزالى فى كتابه تهافت الفلاسفة.

يقول:

«ظلمات فوق ظلمات، لو حكاه الإنسان عن منام رآه لاستدل على سوء مزاجه أو لو أورد جنسه فى الفقهيات التى قصارى المطلب فيها تخمينات لقيل أنها نزهات لاتفيد غلبة الظنون[٢]».

ويقول: «لست أدرى كيف يقتنع المجنون من نفسه لمثل هذه الأوضاع فضلا عن العقلاء الذين يشقون الشعر بزعمهم فى المعقولات.

ويقول الإمام ابن تيمية فى ذلك مصورا قصور تفكير الفلاسفة والمفكرين عن الوصول إلى الحقيقة.

«ليتأمل اللبيب كلام هؤلاء الذين يدعون من الحذق والتحقيق ما يدفعون به ما جاءت به الرسل، كيف يتكلمون فى غاية حكمتهم ونهاية فلسفتهم بما يشبه كلام المجانين ويجعلون الحق للمعلوم بالضرورة مردودا والباطل الذى يعلم بطلانه بالضرورة مقبولا بكلام فيه تلبيس وتدليس».

إن علوم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الآتية إليهم عن طريق الوحى المعصوم هى الوسيلة الصحيحة للوصول إلى الإيمان المطلق، والعقل الإنسانى قاصر فى هذا المجال، ولو ذهبنا إلى استقراء جهود العقل الإنسانى فى هذا المجال لسطرنا آلاف الصفحات ولكن كل تلك الجهود ثبت تخبطها ولم تستطع الوصول بنا إلى الحقيقة الكاملة.

ومن هنا ثبتت حاجتنا إلى الوحى الإلهى المعصوم ليهدينا طريق الرشاد.

---

(١) كتاب الإسلام والإيمان للدكتور عبد الحليم محمود ص٢٩، وينظر فى ذلك أيضا تاريخ الفلسفة اليونانية لأليبرريقو ترجمة الدكتور أبو بكر ذكرى والدكتور عبد الحليم محمود وتاريخ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم.

(٢) كتاب تهافت الفلاسفة للإمام أبى حامد الغزالى ص ١٠٥.

(٣) كتاب تهافت الفلاسفة للإمام أبى حامد الغزالى ص ١٠٥.

(٤) موافقة صحيح المنقول لصريح المعقول لشيخ الاسلام ابن تيمية، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ومحمد حامد الفقى ص ١٣٧ وص ١٣٨.

حاجتنا إلى تشريع إلهى فى المعاملات

وبعد أن بينا فيما سبق قصور العقل الإنسانى عن الوصول إلى المعتقد الصحيح، وأن هذا المعتقد الصحيح لاينبغى له أن يكون إلا عن طريق الوحى الإلهى المعصوم، يتبين لنا بعد ذلك حاجتنا إلى تشريع إلهى فى المعاملات، ولعل نظرة عامة منا -على التشريعات الوطنية- التى وجدت تبين لنا تهافت تلك التشريعات وتباينها الكبير فيما بينها، فعلى سبيل المثال إذا أخذنا مشكلة الحرية المدنية فى عصرنا الراهن.

نجد كثيرا من الشعوب لاتعترف للمرأة بحق الحرية المدنية وتعتبرها فى حكم القاصر، فلا تجيز لها إجراء العقود ولاتحمل الالتزامات ولاتملك الأشياء، وتجعلها دائما تحت وصاية الرجل، سواء كانت تحت وصاية زوجها إن كانت متزوجة، أو تحت وصاية أبيها إن لم تكن متزوجة.

وكثير من الأمم لاتعترف بحق الحرية المدنية فى صورة كاملة إلا لأفراد شعبها فحسب، أو لمن يدينون بدين شعبها فحسب بينما تمن على الأجانب بجميع نواحى هذه الحرية أو ببعضها، وكثير من الشعوب لاتعترف بحق الحرية المدنية فى صورة كاملة إلا لبعض طوائف من المواطنين أنفسهم، بينما تحرم الطوائف الأخرى من جميع نواحى هذه الحرية أو من بعضها، ولعل أبرز مثال على ذلك موقف البيض من السود فى الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا، وروديسيا.

فإذا كان يقصد بالحرية المدنية الحالة التى تجعل الشخص أهلا لإجراء العقود، وتحمل الالتزامات، وتملك العقار والمنقول والتصرف فيما يملك.

فإننا إذا نظرنا إلى الوحى الإلهى المعصوم -كما جاء فى الإسلام- نجد أن الإسلام قد منح هذا الحق لجميع الأفراد، ماعدا الصبى والمجنون والسفيه، وقد استثنى الإسلام هؤلاء لمصلحتهم هم، من جهة ومصلحة ورثتهم ومصلحة المجتمع، والاقتصاد العام من جهة أخرى، بل إن الإمام أبا حنيفة ليذهب إلى عدم جواز الحجر على السفيه، معللا مذهبه بأن الحجر على السفيه: «إهدار لآدميته وإلحاق له بالبهائم».

وإن الضرر الإنسانى الذى يلحقه من جراء هذا الإهدار، وهذا الإلحاق يزيد كثيرا على الضرر المادى الذى يترتب على سوء تصرفه فى أمواله، وأنه لايجوز أن يدفع ضرر بضرر أعظم منه، فسوى الإسلام بذلك بين الرجل والمرأة، ولم يفرق بين الناس فى هذا الحق، تبعا لاختلاف شعوبهم، أوطبقاتهم، أوتفاوتهم فى الأحساب والأنساب، بل كلهم سواسية كأسنان المشط وسوى فى هذا الحق بين المسلمين وغير المسلمين، فنجد أن الذميين فى أى بقعة من الدولة الإسلامية لهم نفس حقوق المسلمين وواجباتهم فيما يتعلق بالمعاملات.

وأيضا نحتاج إلى التشريع الإلهى، لأن الإنسان فيه من الغرائز والميول والشهوات، مايدفعه دائما إلى حب السيطرة والارواء الغرزى، كلما تاق إلى ذلك، فإذا كان ذلك فى الإنسان، فإننا فى حاجة ماسة إلى التشريع الإلهى لتنظيم تلك الغريزة الموجودة فى الإنسان، فلا تصبح الحياة مجرد سعى إلى اللذة والشهوة من كل طريق، يقول الله تعالى:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾(١).

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾(٢).

---

(١) سورة يونس الآية: ٤٧.
(٢) سورة الحديد الآية: ٢٥.

الحاجة إلى الأخلاق القائمة على الوحى الإلهى

يقول الله تعالى فى سورة الشورى:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾[1]

تبين لنا هذه الآيات أنه مامن وحى إلآهى إلا وهو يهدى إلى الصراط المستقيم، سواء بالنسبة للعقيدة أو التشريع أو الأخلاق، الواقع: أن الأخلاق تمثل الجانب الأكبر من توجيهات الرسل لأتباعهم، فإن أمور هؤلاء الأتباع لاتستقيم إلا باتباع الأخلاق القويمة، بل إن من صفات المدح التى مدح بها الله سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ، قوله تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[2]

بل إن رسول الله ﷺ، بين لنا أهمية الأخلاق بالنسبة لبعثته فيقول:

«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[3].

فإذا كانت هذه قيمة الأخلاق فى نظر الوحى الألهى، فإننا لو تركنا تقييمها للأفراد لكانت نسبية تختلف باختلاف الأشخاص وتقييمهم وظروفهم وأحوالهم النفسية والبيئية، وليس أدل على ذلك ماحدث، ويحدث فى عصرنا الراهن من مصائب وكوارث، سببها نسبية الأخلاق من شخص لآخر، والبعد عن الأخلاق الآتية من الوحى المعصوم.

ولنستمع إلى قول روبرت ميلليكان العالم الطبيعى الأمريكى.

«إن أهم أمر فى الحاية هو الإيمان بحقيقة المعنويات وقيمة الأخلاق، ولقد كان زوال هذا الإيمان سببا للحرب عامه، وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أو لتقويته فلن يبقى للعلم قيمة بل يصير العلم نكبة على البشرية .

---

(١) سورة الشورى الآيات: ٥٢ – ٥٣.
(٢) سورة القلم الآية: ٣.
(٣) ذكر السيوطى فى الجامع الصغير أنه حديث صحيح رواه البخارى فى الأدب المفرد والحاكم فى المستدرك.

ويقول الدكتور ويلسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكية:

«وخلاصة المسألة أن حضارتنا ان لم تتقيد بالمعنويات فلن تستطيع المثابرة على البقاء بماديتها، وأنها لايمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الدينى فى جميع مسامها، ذلك هو الأمر الذى يجب أن تتنافس فيه معابدنا ومنظماتنا السياسية وأصحاب رؤوس أموالنا، وكل فرد خائف من الله محب لبلده».

ونقارن بين تلك الخشية التى أصابت الكثير من الزعماء والمفكرين على الحضارة الحديثة من الإنهيار نظرا لفقدان العنصر الأخلاقى فيها بصورة إسلامية تبين لنا قيمة العامل الأخلاقى الآتى من الوحى المعصوم وأثرة فى تكوين الفرد، تلك هى صورة سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه، الذى تربى فى مدرسة النبوة، فكان من أعظم الممثلين لها فى عصره، يقول ضرار بن ضرة: -وقد طلب منه سيدنا معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه أن يصف له سيدنا على بن أبى طالب رضي الله عنه لصحبته الطويلة له.

«والله كان بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلا ويحكم عدلا، يتفجر العلم من جوانبه ومن نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويسأنس بالليل وظلمته، كان والله غزير الدمعة، طويل الفكرة، يقلب كفه، ويخاطب نفسه، ويعجبه من اللباس ماخشن، ومن الطعام ماجشب، كان والله كأحدنا يجيبنا إذا سألناه ويبتدأنا إذا أتيناه ويأتينا إذا دعوناه، ونحن والله مع تقريبه لنا وقربه منا لانكلمه هيبة، ولانبتدره، فان تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يفطم أهل الدين، ويحب المساكين بطمع القوى فى باطله، ولاييأس الضعيف من عدله.

وأشهد بالله: لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سجوفه، وغارت نجومه وقد مثل فى محرابه قابضا على لحيته يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين، وكأنى أسمعه وهو يقول.

«يادنيا ألى تعرضت أم إلى تشوفت؟ هيهات، تحرى غيرى قد بنتك ثلاثا لارجعة فيها، فعمرك قصير، وعيشك حقير، وخطرك كبير، آه من قله الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق[1].

---

(١) ينظر فى كتاب صفوة الصفوة لابن الجوزى، وكتاب النبوة والأنبياء لأبى الحسن الندوى.

وإذا كنا قد ذكرنا أهم الدواعى والأسباب التى تبين الحاجة إلى الأنبياء ووحيهم الالهى المعصوم، فإن صاحب المقاصد على المواقف يذكر كثيرا من الدواعى والأسباب الداعية لإرسال الرسل والأنبياء يقول:

ومنها استفادة الحكم من النبى فيما لايستقل به العقل مثل:

الكلام، والرؤية، والمعاد الجسمانى،

ومنها: إزالة الخوف الحاصل عنه الإتيان بالحسنات، لكونه تصرفا فى ملك الله بغير إذنه وعند تركها لكونه ترك طاعة.

ومنها: بيان حال الأفعال التى تحسن تاره، وتقبح أخرى من غير اهتداء العقل إلى مواضعها.

ومنها: بيان منافع الأغذية والأدوية ومضارها التى لاتفى بها التجربة إلا بعد أدوار وأطوار مع مافيها من الأخطار.

ومنها: تكميل النفوس البشرية بحسب استعداداتهم المختلفة فى العمليات والعمليات.

ومنها: تعليم الأخلاق الفاضلة الراجعة إلى الأشخاص والسياسات الكاملة العائدة إلى الجماعات من المنازل والمدن.

ومنها: الإخبار بتفاصيل ثواب المطيع وعقاب العاصى ترغيبا فى الحسنات وتحذيرا عن السيئات، إلى غير ذلك من الفوائد.

(١) كتاب شرح المقاصد على المواقف لعضد الدين الإيجى جـ٢ ص ١٢٩.

الفصل الثانى

إثبات النبوة المحمدية

عن طريق النظر فى سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة

بيئة الرسول ﷺ قبل البعثة:

عندما ننظر فى بيئة الرسول ﷺ، قبل البعثة نجد أن المجتمع العربى فى ذلك الوقت يموج بتيارات عديدة: من الأفكار والمذاهب والأديان، وجلها كان يبحث عن الحقيقة، أوعن الطريق المعصوم الذى يؤدى إلى الحقيقة، لم يكن المجتمع كله مجتمعاً وثنياً عارياً عن الأخلاق والقيم، صحيح أن الغالبية كانت وثنية فى فكرها، منهارة فى بعض تقاليدها، ولكن الدهماء لايمثلون الأمة، وإنما الذى يمثل الأمة هم الطائفة المفكرة فيه.

وفى ذلك يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق:

«ومهما يكن من أمر العرب عند ظهور الدين المحمدى فإنهم لم يكونوا فى سذاجة الجماعات الإنسانية الأولى من الناحية الفكرية التى تهمنا، يدل على ذلك ماعرف من أديانهم، وماروى من آثارهم الأدبية»(١).

ويقول: «وكان العرب عند ظهور الإسلام يتشبثون بأنواع من النظر العقلى تشبه أن تكون من أبحاث الفلسفة العلمية، لاتصالها بما وراء الطبيعة، من الألوهية، وقدم العالم أو حدوثه، والأرواح والملائكة، والجن والبعث ونحو ذلك»(٢).

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود:

«إننا نعلم حق العلم أن الأكثرية العظمى فى جزيرة العرب كانت من البدو الرحل الذين شغلهم البحث وراء لقمة العيش، عن التفكير فى الدين، وفيما وراء الطبيعة، وليس من الطبيعى أن نتطلب من شخص يقاسى فى عنف شظف الحياة، أن يفكر تفكيراً مجرداً.

---

(١) الشيخ مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص١٠٢.

(٢) الشيخ مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص١٠٥.

إن الأغلبية العظمى من جزيزة العرب صحراء قاحلة وليس لساكنيها استقرار ما، وليس بها أمن مستتب، والحروب والغارات فى جبالها ووهادها لاتكاد تنقطع، فمن الطبيعى أن لايكون عند هؤلاء أوقات فراغ يقضونها فى التفكير فيما وراء الطبيعة.

ولكن إذا كنا لا نتخذ من عقلية الفلاح الحافى القدمين الذى قوس إنحناؤه على الفأس ظهره مثالا لحضارة المصريين وثقافتهم سواء كان ذلك فى العصر القديم أو فى العصر الحديث، وإذا كنا لانتخذ من الفرنسى الريفى الجاهل مثالا لحضارة فرنسا وثقافتها، فإنه من غير الطبيعى أن يكون البدو الرحل مقياساً للثقافة العربية فيما قبل الإسلام»[٢].

وإذا كانت هذه هى النظرة العامة لبيئة ا لرسول ﷺ، فاننا –وبتحديد أكثر دقة، نجد الجزيرة العربية تموج بالأفكار التالية:

الحنفاء: وهؤلاء كانت لهم أفكارهم وأشعارهم وسننهم وشرائعهم التى تؤمن بالله وباليوم الآخر، إلا أنهم ينتظرون النبوة ومن أشهرهم زيد بن عمرو بن نفيل وأمية ابن أبى الصلت، وخالد بن سنان، على أن أبرز نموذج يمكن أن نأخذه محلاً للدراسة ويكون ممثلا للجو العام لفكرة الحنفاء هو:

زيد بن عمرو بن نفيل:

أربا واحدا أم ألف رب *** أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً *** كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا ابنتيها *** ولاصنمى بن عمرو أزور
ولا هبل أدين وكان ربا *** لنا فى الدهر إذ حلمى يسير
عجبت وفى الليالى معجبات *** وفى الأيام يعرفها البصير
بأن الله قد أخى رجالا *** كثيراً كان شأنهم الفجور

---

(١) من مصادر هذا الجزء: الملل والنحل للشهرستانى –كتاب الأغانى للأصفهانى سيرة ابن هشام– الروض الأنف، فى الأدب الجاهلى للدكتور طه حسين –فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين– السيرة النبوية لابن كثير، سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد (السيرة الشامية)، بشائر النبوة الخاتمة للدكتور رؤوف شلى –التفكير الفلسفى فى الإسلام للدكتور عبد الحليم محمود– السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد محمد أبو شهبة –المعارف لابن قتيبة– روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى مجمع الأمثال للميدانى.

(٢) الدكتور عبد الحليم محمود التفكير الفلسفى فى الإسلام ص ٤٥.

وأبقى آخـــرين ببـــر قـــوم *** فـيـربو منهم الطفل الصـغـيـر
وبينا المرء يغـتــر ثاب يومــاً *** كـمـا يرتدع الغـصن المطيـر
ولكن أعـبـــد الرحــمن ربى *** ليـغـفـر ذنبى الرب الغـفـور
فـتـقـوى الله ربكم إحـفظوها *** مـتى مـاتحـفظوها لاتبـوروا
تـرى الأبـرار دارهــم جـنـان *** وللكفـار حـامـيـة سـعـيـر
وترى فى الحـيـاة وأن يموتوا *** بلا قـوامـاً تضـيق به الصـدور

وفى شعر آخر يقول:

وأسلمت وجـــهى لمن أسلمت *** له الأرض تحـمل صـخـراً ثقـالا
دحـاها فلمـا اسـتـوت شـدها *** سـواء وأرسى عليـهـا الجـبـالا
وأسلمت وجــــهى لمن أسلمت *** له المزن تحــمل عــذبا زلالا
إذا هى ســيـــقت إلى بلدة *** أطاعت فـصبت عليـها سـجـالا

ثم يتحول إلى البيت الحرام ويقول:

لبيك حقاً حقاً، تعبدا ورقاً، البر أربو لا الخال وهل يهجر كمن قال:

وقد تجنب زيد بن عمر ابن نفيل الأصنام واعتزلها وترك أكل ذبائح المشركين ونهى عن قتل المؤودة ولم يدخل فى أى دين من اليهودية ولا النصرانية بل كان يعبد رب إبراهيم، وكان يقول:

«يامعشر قريش: والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى».

ولكن هل كان يعرف الطريق إلى عبادة الله يبدو أنه لم يكن كذلك، ويدل على ذلك قوله:

«اللهم لو أنا أعلم أى الوجوه أحب إليك عبرتك ولكن لا أعلمه ثم يسجد على راحلته».

على أن القصة التالية توضح لنا الكثير الذى ينير لنا سبيل معرفته، وهذه القصة رواها ابن كثير، وكتاب الروض الأنف للسهيلى والأغانى واللفظ من كتاب السيرة النبوية لابن كثير يقول:

خرج زيد إلى الشام يلتمس ويطلب معنى أهل الكتاب الأول، دين إبراهيم ويسأل عنه، ولم يزل فى ذلك -فيما يزعمون- وحتى أتى الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل

حتى أتى الشام فجال فيها حتى أتى راهباً ببيعة من أرض البلقاء كان ينتهى إليه، علم النصرانية -فيما يزعمون- فسأله عن الحنيفية، دين إبراهيم، فقال له الراهب:

«إنك لتسأل عن دين ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، لقد درس من علمه وذهب من كان يعرفه، ولكنه قد أظل خروج نبى وهذا زمانه، وقد كان سأم اليهودية والنصرانية، فلم يرض شيئاً منها، فخرج سريعاً حين قال له الراهب ما قال، يريد مكة، حتى إذا كان بأرض لحم عدوا عليه فقتلوه، فقال ورقة يرثيه:

يا رشدت وأنعمت ابن عمرو وإنما *** تجنبت تنوراً من النار حامياً

بدينك رباً ليس رب كمثله *** وتتركك أوثان الطواغى كما هى

وقد تدرك الإنسان رحمة ربه *** ولو كانت تحت الأرض سبعين وادياً

يقول ابن كثير:

وقال محمد بن عثمان بن ابى شيبة: حدثنا أحمد بن طارق الرابشى، حدثنا عمرو بن عطية عن أبيه عن ابن عمر، عن زيد بن عمرو بن نفيل، أنه كان يتأله فى الجاهلية، فانطلق حتى أتى رجلا من اليهود فقال له:

أحب أن تدخلنى معك فى دينك.

فقال له اليهودى.

«لاأدخلك فى دينى حتى تبوء بنصيبك من غضب الله فقال: من غضب الله أفر.

فانطلق حتى أتى نصرانياً فقال له:

أحب أن تدخلنى معك فى دينك؟

فقال: لست أدخلك فى دينى حتى تبوء بنصيبك من الضلال: فقال من الضلالة أفر:

قال النصرانى:

فإنى أدلك على دين إن تبعته اهتديت،

قال: أى دين؟

قال: دين إبراهيم.

قال: فقال: اللهم إنى أشهدك أنى على دين إبراهيم، عليه أحيا وعليه أموت.

هذا هو زيد بن عمر وابن نقيل المثل الأكبر لجو الحنفاء وسواء أن كان نبياً كما قال بذلك قوم من المتكلمين، أم لم يكن كذلك.

كما قال فريق آخر، فإنه تاج باعتباره من أهل الفترة، بل من أفضلهم على الإطلاق، ويكفيه قوله فى يوم لأهل قريش.

«يا معشر قريش والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيرى».

الحكماء:

وهؤلاء كانوا يشبهون حكماء اليونان حتى أن الشهرستانى يعرفهم بقوله ومنهم -يقصد الفلاسفة- حكماء العرب وهم شرذمه قليلة، لأن أكثرهم حكمهم فلتات الطبع، وخطرات الفكر، وربما قالوا بالنبوات.

ويقول صاحب كتاب التفكير الفلسفى فى الإسلام.

وحكماء العرب هؤلاء هم: العلماء الذين كان يرجع إليهم فيما يعرض من مشاكل وهم فى الجملة: أعظم العرب حظاً فى الثقافة.

وكان مثلهم فى الحكمة: مثل حكماء اليونان.

لقد أثرت عنهم الحكم القصيرة التى تركزت فيها التجربة والحنكة مثل:

«مقتل الرجل بين فكيه»

من طلب شيئاً وجده وإن لم يجده يوشك أن يقع قريباً منه

«الحرب مأيمة»

وأن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»[1]

ومن أشهر هؤلاء الحكماء هم:

أكثم بن صيفى بن رباح، عبد المطلب بن هاشم، قس بن ساعدة.

كان عبد المطلب جد الرسول ﷺ يمنع نكاح المحارم، ويقطع يد السارق، وينهى الناس عن قتل الموؤدة.

أما قس بن ساعدة فقد استدل على وجود الله وعلى أمر الآخرة، أنظر إليه يقول:

(١) التفكير الفلسفى فى الاسلام للدكتور عبد الحليم محمود ص ٢٨، ص ٢٩.

كـلا بل هو الله الواحـد، إله واحـد، ليس ولوداً ولا والداً، أعـاد وأبدى، وإليـه المآت غداً»أ.هـ.

ومن شعره:

ياباكى الموت والأمـوات فى جـدث *** عليـهـمـو من بقـايا بزهم خـرق

دعـهم فـإن لهم يومـاً يصـاح بـهم *** كـمـا ينبـه من نومـاتة الصـعق

أما أكثم بن صيفى بن رباح فإن حكمته تظهر فى جلائها فى موقفه من رسالة سيدنا محمد ﷺ ودعوته قومه لاتباعه والسير على طريقه ومن حكمته -كما ذكرها الألوسى.

«إنه لما ظهـر النبى ﷺ بمكة، ودعى إلى الإسلام بعث أكثم ابنه حيث أتاه بخبره فجمع بنى تميم وقال:

«يابنى تميم لاتحضرونى سـقيما: فإنه إن يسمع يخل أن السفيه يوهن من فوقه ويثبط من دونه لاخير فيمن لاعقل له، كبرت سنى، ودخلتنى ذلة، فإذا رأيتم منى حسناً فاقبلوه، وإن رأيتم منى غير ذلك فقومونى أستقم إن إبنى شافه هذا الرجل مشافهة، وأتانى بخبره، وكتابه يأمر فيه بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويأخذ فيه بمحـاسن الأخـلاق ويدعـو الناس لتـوحـيـد الله تعـالى، وخلع الأوثان، وترك الحلف بالنيران، وقد حلف لاعرف) ذوو الرأى منكم أن الفضل فيما يدعو إليه، وأن الرأى ترك ماينهى عنه.

إن أحق الناس معونة محمد ومساعدته على أمره أنتم، فإن يكن الذى يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس، وإن يكن باطلا كنتم أحق الناس بالكف عنه، والستر عليه.

وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته وكان سفيان بن مجاشع يحدث به قبله وسمى ابنه محمداً فكونوا فى أمره أولا ولا تكونوا آخراً، ائتوا طائعين قبل أن تأتوا كارهين.

«إن الذى يدعوا إليه محمد: لو لم يكن دينا لكان فى أخلاق الناس حسنا».

أطيعونى واتبعوا أمرى أسأل لكم أشياء، لاتنزع منكم أبدا، وأصبحتم أعز حى فى العرب، وأكثر عددا وأوسعهم دارا، فانى أرى أمرا لايجتنبه عزيز إلا ذل، ولايأتيه ذليل إلا عز، آن الأول لم يدع للآخر شيئا، وهذا أمر له مابعده، ومن سبق إليه غمر المعالى، واقتدى به التالى، والعزيمة حزم والاختلاف عجز» أ.هـ.

فقال مالك بن نويرة: قد خرف شيخكم.

فقال أكثم: ويل للشجى من الخلى، ولهفى على أمر لم أشهده ولم يسبقنى: فذهب مثلا».

الحمس:

الحمس جمع أحمس، يقول صاحب مختار الصحاح:

وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال.

وكانت قريش قد ابتدعت هذا الرأى، لأنها إعتزت بجوارها للبيت ولكونهم من بنى إبراهيم وولاة البيت وساكنو مكة، فرأوا أن لهم من الحقوق، وعليهم من الواجبات خلاف الآخرين من غير قبيلتهم.

يقول ابن اسحاق:

«وقد كانت قريش -لا أدرى قبل عام الفيل أم بعده- ابتدعت رأى الحمس رأيا رأوه وأداروه، فقالوا: نحن بنو إبراهيم، وأهل الحرمة وولاة البيت وقطان مكة وساكنوها، فليس لأحد من العرب مثل حقنا، ولا مثل منزلتنا، ولاتعرف له العرب مثل ماتعرف لنا، فلا تعظموا شيئا من الحل كما تعظمون الحرم، فإنكم ان فعلتم ذلك استخف العرب بحرمتكم، وقالوا: قد عظموا من الحل مثل ماعظموا من الحرم، فتركوا الوقوف على عرفه والإفاضة منها، وهم يعرفون ويقرون بأنها من المشاعر، والحج، ودين إبراهيم ﷺ.

ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها، وأن يفيضوا منها، إلا أنهم قالوا: نحن أهل الحرم وليس ينبغى لنا أن نخرج من الحرمة ولانعظم غيرها كما نعظمها فنحن الحمس، والحمس أهل الحرم.

وقد حرم الحمس على أنفسهم وعلى الحجيج أشياء، وفرضوا أشياء أخرى فقالوا -كما يروى ابن اسحاق.

لاينبغى للحمس أن يأقطوا الأقط، ولايسلئوا السمن وهم فى حرم ولايدخلوا بيتا من شعر ولا يستظلوا أن استظلوا إلا فى بيوت الأدم ماكانوا حرما.

وقالوا أيضا:

«ولاينبغى لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا أو عمارا ولايطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا فى ثياب الحمس، فان لم يجدوا منها شيئا طافوا بالبيت عراة، فإن تكرم منهم متكرم -من رجل أو امرأة- ولم يجد ثياب الحمس فطاف فى ثيابه التى جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه، ثم لم ينتفع بها ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدا».

الحالة الروحية للجزيرة العربية

إذا كان ماذكرناه آنفا يمثل الحالة الروحية التى وصل إليها المجتمع المكى، فإن الجزيرة العربية كانت تشهد تحولا روحيا كبيرا يدل على أمر سيظهر عما قريب، يقول ابن قتيبة فى كتاب المعارف.

«كانت النصرانية فى ربيعة وغسان، وبعض قضاعة.

وكانت اليهودية فى خيبر وبنى كنانة وبنى الحارث ابن كعب وكندة.

وكانت المجوسية فى تميم منهم زرارة، وحاجب بن زرارة، ومنهم الأقرع بن حابس، كان مجوسيا.

ويذكر لنا صاحب لسان العرب أنه كان هناك من يدين بالرجعة يقول:

«والرجعة مذهب قوم من العرب فى الجاهلية معروف عندهم»

والغريب أن بعضهم كان قدريا والبعض الآخر مثبتا.

يقول صاحب التفكير الفلسفى فى الإسلام.

كان الأعشى قدريا وكان لبيد مثبتا.

قال لبيد:

من هداه سبل الخير اهتدى – ناعم البال ومن شاء أضل

وقال الأعشى:

«استأثر الله بالوفاء وبالعدل

وولى الملامة الرجلا»

تلك هى الصورة العامة للفكر الروحى فى البيئة المكية وما حولها من الجزيرة العربية قبل بعثة الرسول ﷺ.

لقد كانت جميعها حالة من التأله والتزهد تبشر باقترابها من الخلاص على يد من يحملها على الجاده ويسير بها إلى الطريق المستقيم.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه -الممتاز- خاتم النبين ﷺ: إن نظرت إلى العالم شرقا فى أقصاه، أو غربا فى أقصاه، أو القريب الدانى، أو البعيد النائى، فانك واجد أن العالم فى حاجة إلى من يهديه من ضلاله، فالفلسفه لاتصلح الناس ولو استقامت على الطريقة، لأنها إن أقنعت الخاصة لاتملأ نفوس العامة ولاتندبها إلى سواء السبيل، وهى مااستقامت فما أصلحت أحداً.

والعقائد قد اعتراها التحريف، فاليهود حرفوا التوراة عن معناها ونسوا حظاً كثيرا مما ذكروا به، ونظروا إلى الناس جميعا على أنهم دونهم، وأنهم ليسوا عباد الله مثلهم، وأن الله تعالى خالقهم، كما خلق غيرهم، بل زعموا أنهم المختارون، وأن كل الناس دونهم، وبذلك عاثوا فى الأرض فساداً، ولما ذلوا -وهم على اعتقاد بأنهم شعب الله المختار- حقدوا على الخليقه، وعملوا بكل الوسائل للكيد لغيرهم، غير متحرجين ولامتأثمين، بل أنهم يغرون بالعدواة بين الناس، وينشرون الفساد فى غير تحفظ ولامراعاه لأى جوار فى أى مكان، فكان لابد لنبى يأتى بدين قوى يكفكف غرورهم، وينهنه من غلوائهم والنصرانية انحرفت وخرجت عن مبادئ المسيح وغلوا فيه، واستبدلوا بأدب المسيح وسماحته استعلاء أواستكباراً فى الأرض وعتوا فساداً فكان لابد من رسول بشير ونذير يهدى إلى الحق إلى صراط مستقيم[١] ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

(١) خاتم النبين (ص) لفضيلة الشيخ محمد أبو زهرة الجزءا لأول ص ٩٨، ٩٩.
(٢) سورة المائدة الآية: ١٩.

كرم أصله وطيب منبته

عندما نتبع قصص الأنبياء فى القرآن الكريم،نرى:

أن الأنبياء والرسل كانوا دائما من أشرف الأسر، ومن أعلى القبائل نسبا، ونرى ذلك على سبيل المثال فى قوله تعالى حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾(١).

ومن هنا يتضح لنا المغزى العميق لسؤال هرقل لأبى سفيان بن حرب عن نسب رسول الله ﷺ وتعليق هرقل على إجابة أبى سفيان بأنه من أوسطهم نسبا بقوله:

«سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها»(٢)

«لقد كان من استدلال هرقل على صدق رسول الله ﷺ هو كونه من أوسط قريش نسبا وكذلك الأنبياء يكونون كذلك.

إن معنى كونه من أوسطهم نسبا ما يكفل له الإعداد السليم فى حياته، ويجعله منيعا فى قومه، لايردونه عند ظهور دعوته بدعوى من الدعاوى التى تلقى على أراذل القوم وأسافلهم.

وعلى الضعفاء من الناس مثل دعاوى طلب الغنى أو الملك أوغيرها صحيح أنهم وجهوا نفس التهم للرسول ﷺ، ولكن كان مردودا عليها من قبل اتهامها نظرا لما عرف عن الرسول ﷺ، من الشرف والرفعة والصدق والأمانة، وعدم السفاهة، ولعل أبرز مثال يوضح لنا ذلك هو موقف المشركين من المستضعفين من أتباع سيدنا محمد ﷺ.

كبلال بن أبى رباح، وعمار بن ياسر، وغيرهم.

والفرق بينه وبين موقفهم من سيدنا أبى بكر الصديق، وسيدنا عمر ابن الخطاب، من أصحاب العزة والمنعة، فكيف لو كان الرسول ﷺ هو المستضعف؟

(١) سورة هود الآية: ٩١ ، ٩٢.
(٢) والحديث بطوله أخرجه البخارى فى صحيحه.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة.

«لاشك أنه يجب أن يكون الرسول ﷺ منعة من قومه، لأنها يبادر الناس بالمجاهرة بغير مايعلمون، وما يعتقدون، ويصدع -مفاجئا- بما لايريدون، وأنهم -بلاريب- يجدون أنه لايدفع مايجئ على غير رغبتهم بالحسنى، بل بالمقاومة الحقيقية القوية، وإذا لم يكن له منعة من قومه يقتلونه فى فجر الدعوة قبل أن يصبح صباحها، يكون لها ضوء فى المجتمع، ولو كان ضئيلا، فإنه من بعد يكون نورا، ولو أطفيء النور عاش الناس فى ظلام لايضيء أبدا.

وانظر إلى قصة قوم شعيب إذا أنه لم يمنعهم من أن يقتلوه إلا رهطه، فقد قالوا -فيما حكاه القرآن الكريم عنهم:

«ولولا رهطك لرجمناك»[1]

أما عن النسب الشريف فذلك ماتدلنا عليه الأحاديث النبوية، وتبين لنا مبلغ هذا النسب من الرفعة،

ففى صحيح البخارى من حديث عمرو بن أبى عمرو عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ.

«بعثت من خير قرون بنى آدم قرنا فقرنا حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه».

وفى صحيح مسلم من حديث الأوزاعى عن شراد أبى عمار عن واءلة ابن الأسقع أن رسول الله ﷺ قال:

«إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانه، واصطفى من بنى كنانة قريشا، واصطفى من قريش بنى هاشم، واصطفانى من بنى هاشم».

وقال الإمام أحمد: حدثنا أبو نعيم عن سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن المطلب بن أبى وداعة قال: قال العباس: «بلغة ﷺ بعض ما يقول الناس قال:

فصعد المنبر فقال: من أنا،

(١) خاتم النبيين (ص) الجزء الأول محمد أبو زهرة ص ١٠٦، والآية رقم ٩١ من سورة هود.

قالوا: «أنت رسول الله.

قال: «أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه، وجعلهم فرقتين، فجعلنى فى خير فرقه، وخلق القبائل فجعلنى فى خير قبيلة، وجعلهم بيوتا فجعلنى فى خيرهم بيتا، فأنا خيركم بيتا وخيركم نفسا»[١].

وروى ابن كثير فى سيرته النبوية قال:

«وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسماعيل ابن أبى خالد عن يزيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث بن نوفل:

عن العباس بن عبد المطلب قال: قلت يارسول الله، ان قريشا إذا التقوا لقي بعضهم بعضا بالبشاشة، وإذا لقونا بوجوه لانعرفها، فغضب رسول الله ﷺ عند ذلك غضبا شديداً ثم قال:

والذى نفس محمد بيده لايدخل قلب رجل الإيمان حتى يحبكم لله ورسوله».

فقلت يارسول الله: ان قريشا جلسوا فتذاكروا أحلام فجعلوا مثلك كمثل نخلة فى كبوة من الأرض.

فقال رسول الله ﷺ.

«ان الله يوم خلق الخلق جعلنى فى خيرهم ثم لما فرقهم قبائل جعلنى فى خيرهم قبيلة، ثم حين جعل البيوت جعلنى فى خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا».

ورواه أبو بكر بن أبى شيبة عن ابن فضيل عن بن زيد بن أبى زياد عن عبد الله بن الحارث عن ربيعة بن الحارث قال:

«بلغ النبى ﷺ فذكره بنحو ماتقدم ولم يذكر العباس»[٢].

أما ذلك النسب الذى بلغ الذروة من الشرف والرفعة فهو:

محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي ابن كلاب، بن مرة بن كعب، بن لؤى، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن النضر، ابن كنانة ، بن خزيمة، بن مدركة، بن الياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

---

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق الشيخ أحمد شاكر حديث رقم ١٧٨٨.

(٢) الحافظ أبى الفداء اسماعيل بن كثير السيرة النبوية جـ١ ص ١٩٢، تحقيق الدكتور. مصطفى عبد الواحد.

لوائح الهداية

ومظاهر الخصوصية فيه ﷺ قبل البعثة

كان رسول الله ﷺ تفيض عليه مظاهر الخصوصية ولوائح الهداية واضحة للأعين قبل بعثته، وما كان قول للسيدة خديجة رضى الله عنها عندما جاءها يرتجف اثر نزول الوحى عليه:

كلا والله ما يخزيك الله أبدا، انك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق[1] بدعا من القول، بل كان الحقيقة كاملة ، لقد كانت حياة الرسول ﷺ قبل البعثة تبشيراً بأنه سيكون له شأن كبير:

لقد كانت ملامح الخصوصية والإعداد الآلهى قائمة فى هذه الفترة بأوضح معانيها، متمثلة فى سيدنا رسول الله ﷺ، وإذا كان لنا أن نتحدث عن هذه الفترة، فإننا نبدأ بارجاع هذه الخصوصية – أولاً- إلى تبشير الكتب السماوية السابقة به، مما يبين لنا أن رسول الله ﷺ هو خاتم النبيين، وأنه مبعوث رب العالمين إلى الخلق كافة، وليس مخصوصا بأمة من الأمم، وهذا من أهم مظاهر خصوصية عليه الصلاة والسلام.

تبشير الكتب السماوية السابقة به ﷺ:

إذا كان لنا أن نتحدث عن تبشير الكتب السماوية به ﷺ، فإننا لايجوز لنا القاء القول فى هذا الموضوع قبل ذكر النصوص الإسلامية التى تحدثنا عن هذا باعتبارها أوثق مصادر يمكننا الإعتماد عليها فى العصر الحديث ولن تكون المصادر الأخرى من الكتب السماوية السابقة سوى مصادر تابعة أو مؤيدة أو شارحة للنصوص الإسلامية:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾.

---

(١) رواه البخارى فى باب كيف كان بدء الوحى.

(٢) الوفا بأحوال المصطفى للإمام أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى جـ١ ص٧٦. تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد وكتب السيرة النبوية الأخرى.

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١)

فهذا النص يدلنا دلالة قوية ، على أن الله سبحانه وتعالى ذكر رسول الله ﷺ بهذه الصفات فى التوراة والإنجيل، وهذه الصفات هى بعينها الموجودة فى سيدنا رسول الله ﷺ.

يقول القرطبى:

«الأمى وهو منسوب إلى الأمة الأمية التى هى على أصل ولادتها لم تتعلم الكتابة ولا قراءتها»، قاله ابن عزيز.

وقال ابن عباس رضى الله عنهما:

«كان نبيكم ﷺ أميا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب».

قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾(٢)

ويقول القرطبى أيضاً فى قوله تعالى:

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ﴾(٣)

روى البخارى قال حدثنا محمد بن سنان قال حدثنا خليج قال حدثنا هلال بن عطاء بن يسار لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص قلت:

«أخبرنى عن صفة رسول الله ﷺ فى التوراة»؟

---

(١) سورة الأعراف الآيات: ١٥٥ - ١٥٧.
(٢) سورة العنكبوت الآية: ٤٨.
(٣) سورة الأعراف الآية: ١٥٧.

فقال: أجل، والله إنه لموصوف فى التوراه ببعض صفته فى القرآن:

«يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا، ونورا للأميين أنت عبدى ورسولى، سميتك المتوكل، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب فى الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله تعالى حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: «لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا[1]».

وذكر الطبرى فى تفسيره الرواية نفسها ثم قال:

حدثنا بشر ، قال حدثنا يزيد، قال: حدثنا سعد، عن قتادة، قال الله:

«الذى يجدونه مكتوبا عندهم»، يقول : يجدون نعته، وأمره ونبوته مكتوباً عندهم[2].

أما فى سورة الصف، فإننا نجد القرآن يعطينا زيادة فى التفصيل، تبين لنا الاسم ، وتبين لنا أيضاً موقف المشركين من الرسول ﷺ، واتهامه بالسحر.

يقول الله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[3]

يقول الطبرى: حدثنى يونس قال: أخبرنا بن وهب قال: أخبرنى معاوية بن صالح وسعيد بن سويد عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن عرباض بن سارية قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إنى عبدالله مكتوب بخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل فى طينته، وسأخبركم بأول ذلك:

دعوة أبى إبراهيم، وبشارة عيسى بى، والرؤيا التى رأت أمى وكذلك أمهات النبيين ترين، إنما رأت حين وضعتنى أنه خرج منها نور أضاءت، منه قصور الشام[4]، ونورد

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى جـ٧ ص ٢٩٨، ٢٩٩ وينظر فى ذلك السيرة النبوية لابن كثير ص ٣٢٦.
(٢) جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى جـ٩ ص ٥٣.
(٣) سورة الصف الآية: ٦.
(٤) جامع البيان للطبرى (ج ٢٨ ص ٥٣).

أيضاً ثلاثة نصوص تزيد النص القرآنى وضوحاً وبيانا وهذه النصوص للقرطبى، وابن سعد، والإمام أحمد.

يقول القرطبى فى شرحه على قوله تعالى:

﴿ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾:

وأحمد اسم نبينا ﷺ ، وهو اسم علم منقول من صفة، لا من فعل، فتلك الصفة أفعل التى يراد بها التفضيل.

فمعنى أحمد أى أحمد الحامدين لربه، والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون الله ونبينا أكثرهم حمداً، وأما محمد فمنقول من صفة أيضا وهى فى معنى محمود، ولكن فيه المبالغة والتكرار، فالمحمد هوالذى حمد مرة بعد مرة، وهذا الإسم مطابق لمعناه، والله سماه قبل أن يسمى به.

وفى الصحيح: «لى خمسة أسماء: أنا محمد، وأحمد، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر، وأنا الحاشر الذى تحشر الناس على قدمى وأنا العاقب[1]».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت خديجا أخا زهير بن معاوية عن أبى اسحاق عن عبدالله بن عتبة، عن عبدالله بن مسعود قال:

بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشى ونحن نحو من ثمانين رجلاً، منهم: عبدالله بن مسعود، وجعفر وعبدالله بن رواحة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى، فأتوا النجاشى وبعثت قريش عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد بهدية، فلما دخلا على النجاشى سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالا له:

«إن نفرا من بنى عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا قال: فأين هم:؟

قالا: هم فى أرضك فابعث إليهم، فبعث إليهم،

فقال جعفر أنا خطيبكم اليوم، فاتبعوه، فسلم ولم يسجد،

فقالوا له: مالك لا تسجد للملك؟

قال: إنا لانسجد إلا لله عز وجل.

قال: وما ذاك؟

(١) القرطبى الجامع لأحكام القرآن ج١٢ ص٨٣ - ٨٤.

قال: إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا ألا نسجد لأحد إلا لله عز وجل وأمرنا بالصلاة والزكاة،

قال عمرو بن العاص: فإنهم يخالفونك فى عيسى بن مريم،

قال : ما تقولون فى عيسى بن مريم وأمه؟

قال: نقول كما قال الله عز وجل هو كلمة الله وروحه، ألقاها إلى العذراء البتول، التى لم يمسها بشر، ولم يعترضها ولد،

قال: فجمع عودا من الأرض ثم قال: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان:

«والله ما يزيد على الذى نقول فيه ما يساوى هذا، مرحبا بكم ومن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذى نجده فى الإنجيل، وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم، انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لآتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه،وأمر بهدية الآخرين فردت إليهم.

أما النص الثالث من النصوص الإسلامية فهو ما رواه ابن سعد فى طبقاته يقول:

«أخبرنا محمد بن اسماعيل بن أبى فديك المدنى عن موسى بن يعقوب الزمعى عن سمبل مولى عتيمة أنه كان نصرانيا من أهل مريس، وكان يقرأ الإنجيل، فذكر أن صفة النبى ﷺ فى الإنجيل، وهو من ذرية اسماعيل اسمه أحمد[1]».

هذه هى بعض النصوص الإسلامية التى وردت بخصوص البشارة بسيدنا محمد ﷺ ، فى الكتب السماوية السابقة، على الإسلام وهى تؤكد بما لايدع مجالا للشك، هذه البشارات، بل إنها عرضتها للعيان بما يمكن أن يكون استدلالا من جانبها بهذه البشارات على نبوة سيدنا محمد ﷺ ، وهذه المصادر الإسلامية هى الآكد عندنا باعتبار أنها لم يصبها أى تحريف، فان القرآن وصل إلينا بالتواتر، على أن الغريب فى الأمر أن التوراة والإنجيل رغم ما أصابهما من تحريف شديد إلا أنه فى بعض نسخها ورد ذكر البشارت بسيدنا محمد ﷺ ، نذكر منها على سبيل المثال:

فلما انتصب آدم على قدميه رأى فى الهواء كتابة تتألق كالشمس فصارت: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ففتح آدم فاه قال:

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج١ ص ٦٤.

أشكرك أيها الرب إلهى، لأنك تفضلت فخلقتنى ولكن أضرع إليك أن تنبئنى ما معنى هذه الكلمات: محمد رسول الله؟ فأجاب الله:

مرحبا بك يا عبدى آدم وإنى أقول لك أنك أول إنسان خلقت، وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة، وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل الأشياء الذى منها جاء[1]،

وجاء فى إنجيل يوحنا:

وأما الآن: فأنا ماض إلى الذى أرسلنى، وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى، لكن لأنى قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم ، لكى أقول لكم الحق، أنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق يأتيكم الفار قليط، لكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئته، وعلى بر، وعلى دينونة.

أما على الخطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى.

وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا تروننى أيضا،

وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين أن لى أموراً كثيرة أيضاً يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية، ذاك يمجدنى لأنه لا يأخذ مما لى ويخبركم[2].

وقد شرح هذا النص الدكتور يوسف عبدالهادى الشال بقوله:

نستخلص من هذا النص أموراً هى:

الأمر الأول:

التبشير برسالة نبينا ﷺ وسماه «الفار قليط»، وترجمة اللفظة بالعربية (أحمد) وهذا مطابق لقوله تعالى:

﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾[3]

ويلاحظ أن (الفار قليط) تكتب أحيانا بارقليط، وأحيانا باركليت، إذ: قد تصرف المترجمون فى اللفظة، لدى نقلها عن اللغات الأصلية الثلاث، وهى العبرية، والكلدانية، واليونانية،

---

(١) إنجيل برنابا فصل ٣٩ من رقم ١٤ - ١٨.
(٢) إنجيل يوحنا ص ١٦ فصل ٥ على لسان السيد المسيح.
(٣) سورة الصف الآية: ٦.

وقد سأل الأستاذ عبدالوهاب النجار الدكتور كارلونلينو المستشرق الايطالى عن معنى هذه الكلمة فقال:

إن معناها الذى له حمد كثير، وهذا يوافق أفعل التفضيل فى أحمد.

الأمر الثانى:

أنه لا يتكلم من عند نفسه، بل كل ما يـ[illegible]، يوحى إليه به من ربه يبلغه، وهذا يلتقى مع قول الله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[١]

وقوله عز وجل:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٢]

الأمر الثالث:

أنه يمجد عيسى عليه السلام، وليس هناك أمجد، ولا أرفع، مما فى القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣]

الأمر الرابع:

أن شريعة الرسول المبشر به باقية إلى قيام الساعة، ولا يأتى بعده نبى وهذا يلتقى مع قوله تعالى فى سورة الأحزاب:

---

(١) سورة الأحقاف الآية: ٩.

(٢) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٣) سورة آل عمران الآيات: ٤٢ - ٤٦.

﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾(١)

أما فى التوراة فنجد النص التالى:

«فقال الرب: نعم جميع ما قالوا وقد أحسنوا فيما تكلموا وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين اخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شىء آمره ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى، فأنا أكون المنتقم من ذلك.

يقول الشيخ عبد الوهاب النجار(٢):

أن قوله «واجعل كلامى فى فمه» يدل على أن ذلك النبى يكون أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يدع أحد من أبناء اسماعيل، ذلك سوى محمد ﷺ، ولم يقم نبى أمى سواه منذ أن خلق الله الدنيا إلى اليوم(٣).

هذه بعض النصوص التى أتينا بها من التوراة والإنجيل للدلالة على بشارات فى الكتب السابقة بنبوة سيدنا محمد ﷺ، ولكننا -مع ذلك- لا نعتمد عليها الاعتماد المطلق نظراً لاستعمال الكثير منها للرموز فى الاخبار عن ذلك، ولعل ذلك للتحريف الذى وقع بها وهذه النصوص التى جئنا بها هى أوضحها وأصرحها، ولعلها مما لم يدخله التحريف إلا أننا مع ذلك لانعتمد سوى المصادر الإسلامية التى تكلمنا عنها من قبل، فهى تكفينا لوثوقنا بصدقها وبعدها عن الشبهات.

---

(١) سيرة خاتم المرسلين حياة ورسالة الدكتور يوسف عبد الهادى الشال ص٣٦ - ٣٧ - ٣٨ وينظر فى ذلك كتاب محمد رسول الله للأستاذ محمد رضا والأديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف.

(٢) التوراة الباب الثامن عشر سفر الاستثناء.

(٣) يرجع فى ذلك إلى كتاب قصص الأنبياء للشيخ عبد الوهاب النجار وإلى الآديان فى القرآن للدكتور محمود بن الشريف.

خصوصيته ﷺ
بما وقع فى مولده الشريف

يقول رسول الله ﷺ:

«إنى عند الله لخاتم النبيين وأن آدم لمنجدل فى طينته وسأخبركم عن ذلك:

«أنا دعوة أبى إبراهيم،وبشارة عيسى، ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين، يروى أن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام[1].

هذا الحديث يدلنا دلالة قوية على أن ولادة الرسول ﷺ قد وقعت فيها من مظاهر الخصوصية ما ينبئ عن أن المولود الشريف ليس بالفرد العادى، إن أمه رأت حين وضعته نورا أضاءت له قصور الشام، ويؤكد لنا الحديث أن أمهات الأنبياء يرين، فلا مانع من وجود بعض الخصوصية لدى أمهات النبيين.

وإذا كان الحديث الذى ذكرناه يهتم بخصوصيته ﷺ حال ولادته اهتماماً كبيراً، وكذلك ما سنذكره من أحاديث، فلا أدرى لماذا يحاول كثير من الكتاب إنكار ذلك، انكارا مستميتا، إن رجلا يحمل مصير العالم، لماذا نحاول أن نجعله دائماً بشرا عاديا؟

من الطبيعى أننا لاننكر أن الرسول ﷺ بشر، ولكنه بشر يوحى إليه فهو إذن ليس بشرا عادياً ولكنه بشر يوحى إليه، فلا مانع من ظهور كثير من البشارات منذ مولده حتى مبعثه، ويؤيد ذلك كثير من الأحاديث والروايات التى سنذكر بعضها،

وإذا كان بعض الناس يقولون بأننا يجب عند ذكر دلائل نبوته ﷺ، أن نركز كل اهتمامنا على القرآن، ولا داعى للاهتمام بحياة الداعية الشخصية، أو بالمعجزات الحسية، فإنهم فى ذلك يخطئون، فإن من أهم الأسباب التى تؤدى إلى الإيمان بالدعوة هى حال الداعية نفسه،

فإننا إذا لاحظنا حال الرسول ﷺ، وما اجتباه به ربه من نعمة، ومن مظاهر الخصوصية، لايتأتى لأى فرد إلا أن يؤمن برسالته إيمانا مطلقا؛ فحال الداعى وحال الدعوة لا ينفصلان على الإطلاق ولا يتناقضان، بل هما مترابطان يكمل كل منهما الآخر، ولن نذهب بعيدا فى محاجة هؤلاء الناس، فإن ذلك ليس موضوع بحثنا، ويكفينا حجة: ما ذكرته له الأحاديث مما يدل عى الاهتمام بذلك.

(١) الحديث من رواية الطبرانى والبزار والحاكم والبيهقى وأحمد بن حنبل عن العرباض بن سارية، ويقول الحافظ بن حجر وصححه ابن حيان والحاكم، وينظر أيضا فى ذلك دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للبيهقى والسيرة النبوية لابن كثير والخصائص الكبرى للسيوطى.

أخرج الحاكم -وصحه والبيهقى- عن خالد بن معد ان عن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يارسول الله، أخبرنا عن نفسك، فقال:

«دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمى حين حملت كأنه خرج منها نور أضاءت له بصرى من أرض الشام»

وقلت: قوله حين حملت هى رؤيا نوم وقعت فى الحمل، وأما ليلة الولادة فرأت ذلك رؤية عين، كما روى ابن اسحاق،

كانت آمنة تحدث أنها أتيت حين حملت فقيل لها: انك قد حملت بسيد هذه الأمة، وآية ذلك أن يخرج معه نور يملأ قصور بصرى من أرض الشام، فإذا وقع فسميه محمدا[١].

وقال البيهقى: أنبأنا أبو عبدالله الحافظ، أنبأنا أبو بكر محمد بن أحمد ابن حاتم الدرابردى بريمرو، حدثنا أبو عبد الله البوشنجى، حدثنا أبو أيوب سليمان ابن سلمة الخبائرى، حدثنا يونس بن عطاء ، بن عثمان، بن ربيعة، بن زياد، ابن الحارث الصدانى بمصر، حدثنا الحكم بن أبان عن عكرمة، عن ابن عباس، عن أبيه العباس ابن عبد المطلب رضي الله عنه ، قال:

ولد رسول الله ﷺ مختونا مسرورا قال:

فأعجب جده عبدالمطلب وحظى عنده وقال: ليكونن لابنى هذا شأن فكان له شأن.

وقد ورد لهذا الحديث بعض الطرق،

وقد رواه الحافظ بن عساكر من حديث سفيان بن محمد، عن هشيم، عن يونس بن عبيد، عن الحسن، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ:

«من كرامتى على الله أنى ولدت مختونا ولم ير سوأتى أحد»

ثم أورده من طريق الحسن بن عرفة عن هشيم به.

ثم أورده عن طريق محمد بن محمد بن سليمان - هو الباغندى،

حدثنا عبدالله بن أيوب الحمصى، حدثنا موسى بن أبى موسى المقدسى، حدثنى خالد بن سلمة، عن نافع عن ابن عمر قال:

ولد رسول الله ﷺ مسرورا مختونا،

وقال أبو نعيم: حدثنا أبو أحمد محمد بن أحمد القطريفى، حدثنا الحسين بن أحمد بن عبدالله المالكى، حدثنا سليمان بن سلمة الخبائى، حدثنا يونس بن عطاء، حدثنا الحكم ابن أبان، حدثنا عكرمة عن ابن عباس، عن أبيه العباس قال:

«ولد رسول الله ﷺ مختونا مسرورا، فأعجب ذلك جده عبدالمطلب، وحظى عنده وقال: «ليكونن لابنى هذا شأنا[٢]».

(١) الحافظ جلال الدين السيوطى - الخصائص الكبرى جـ١ ص ١١٤ ص١١٥.

(١) الحافظ بن كثير السيرة النبوية جـ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ ينظر فى ذلك الخصائص الكبرى للسيوطى والسيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للشيخ محمد أبو شبهة.

لوائح الهداية

ومظاهر الخصوصية فيه ﷺ فى حالة رضاعه

إذا جئنا إلى حال رضاعه ﷺ، فان كتب السيرة تروى لنا الكثير من الحوادث التى تدل على مظاهر الخصوصية فيه ﷺ، فى تلك الفترة، على أن أهم ما حدث فى هذه الفترة فى نظرنا هوحادث شق الصدر، وقد حدث هذا الحادث فى حياته ﷺ، ثلاث مرات.

مرة فى حال استرضاعه فى بادية بنى سعد،

والمرة الثانية: عندما كان فى العاشرة من عمره،

والثالثة: عند وقوع حادث الإسراء والمعراج، والواقع أن حادث شق الصدر فى نظرنا له هذه الأهمية لأنه يمثل الاعداد الدائم من الله سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ:

إنه يمثل التربية الإلهية لرسوله ﷺ،

إنه استخراج حظ الشيطان من الدعوة الإسلامية، فتكون طاهرة نقية ممتلأة إيماناً وحكمة، ومملوءة رأفة ورحمة.

لقد ناقش كثير من الكتاب حادث شق الصدر من الوجهة الحسية وهل يصح وقوعه أم لا؟

هل فى الإمكان فتح قلب الرسول ﷺ أم لا؟

يقول صاحب كتاب الرسول ﷺ وسنته الشريفة:

ولا يغنينا هذا -لا فى قليل ولا كثير- أن نجارى الماديين فى جدلهم فيما يتعلق بشق الصدر.

فالأمر أسمى بكثير من المماراة: فى الشكل، والكيف، والزمان، والمكان.

والمغزى: أعمق من أن نتجاوزه إلى المماحكات التى تشعر بضعف الإيمان أكثر مما تشعر بنور اليقين.

لقد روت كتب السنة بالأسانيد الصحيحة، وروت كتب السيرة هذه الحادثة التى توجه النظر إلى عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ منذ طفولته المبكرة، وإن من مظاهر هذه العناية: أن يستخرج الله حظ الشيطان من قلبه منذ سنيه الأولى حتى لا يكون للشيطان عليه من سبيل.

إن الله سبحانه وتعالى -وقد شاءت، إرادته منذ الأزل أن يكون محمد خاتم الأنبياء والمرسلين- أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الكامل للإنسان الكامل.

والإنسان يبدأ السير نحو الكمال بطهارة القلب وتصفية النفس، والتوبة والإخلاص،

أو بتعبير آخر، بشق الصدر واستخراج حظ الشيطان منه،وأرسل الله ملائكته فشقوا عن صدر الرسول ﷺ واستخرجوا حظ الشيطان[1].

وإذا كان لنا أن نبدأ بذكر الروايات المتعلقة بشق الصدر فى حال نشأته ﷺ،وقبل البعثة، وقد حدث شق الصدر فى تلك الفترة، مرتين، فإننا لا يسعنا إلا أن نبدأ بذكر رواية ابن اسحق لما ورد فيها من ذكر قصة رضاعه ﷺ، ولقول الحافظ ابن كثير عنها:

أنها قد رويت من طرق أخرى وأنه من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازى[2].

قال ابن اسحاق: وحدثنى جهم بن أبى جهم مولى لامرأة من بنى تميم كانت عند الحارث بن حاطب ويقال له: مولى الحارث بن حاطب قال: حدثنى من سمع عبدالله بن جعفر بن أبى طالب قال: حدثنى عن حليمه بنت الحارث أنها قالت:

قدمت مكة فى نسوة، وذكر الواقدى باسناده أنهن كن عشرة نسوة من بنى سعد بن بكر نلتمس بها الرضعاء فى سنة شهباء، فقدمت على أتان لى قمراء كانت أذمت بالركب، ومعى صبى لنا وشارف لنا والله ما نبض بقطرة ما ننام ليلنا ذلك أجمع مع صبينا ذاك، ما نجد فى ثديى ما يقيه ولا فى شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتانى تلك، فلقد أذمت بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً.

(١) الرسول ﷺ وسنته الشريفة.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ١ ص ٢٢٨.

فقدمنا مكة فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله ﷺ، فتأباه إذا قيل أنه يتيم تركناه قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبى الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا فوالله ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعاً غيرى.

فلما لم نجد غيره أجمعنا الانطلاق، قلت لزوجى الحارث عبدالعزى:

والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى رضيع لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

فقال: لا عليك أن تقبلى فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة.

فذهبت فأخذته فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره،

فما هو إلا أن أخذته فجئت به رحلى، فأقبل عليه ثدياى بما شاء من لبن فشرب حتى روى، وشرب أخوه حتى روى، وقام صاحبى إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل.

فحلب ما شرب وشربت حتى روينا صبيتنا بخير بليلة،

فقال صاحبى – حين أصبحنا– يا حليمة: والله إنى لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم ترى ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟ فلم يزل الله عز وجل يزيدنا خيراً.

ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتانى بالركب حتى ما يتعلق بها حمار حتى أن صواحبى ليقلن: ويلك يابنت أبى ذؤيب هذه أتانك التى خرجت عليها معنا؟

فأقول: نعم والله إنها لهى، فيقلن: والله إن لها لشأناً.

حتى قدمنا أرض بنى سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها فان كانت غنمى لتسرح ثم تروح شباعاً لبناً فنحلب ما شئنا وما حوالينا أو حو لنا أحد تضر له شاة بقطرة لبن وأن أغنامهم لتروح جياعاً حتى أنهم ليقولون لرعاتهم أو لرعيانهم ويحكم انظروا حيث تسرح غنم بنت أبى ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمى حيث تسرح فترجع أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وترجع أغنامى شباعاً لبناً نحلب ما شئنا، فلم يزل الله يرينا البركة فنعرفها حتى بلغ سنتين فكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فواله وما بلغ السنتين حتى كان غلاما جفراً، فقدم به على أمه ونحن أحق

شيء به مما رأينا فيه من البركة فلما رأته أمه قلت لها: دعينا نرجع بابننا هذه السنة الأخرى، فانا نخشى عليه وباء مكة.

فوالله مازلنا بها حتى قالت: نعم فسرحته معنا فأقمنا به شهرين أو ثلاثة.

فبينما هو خلف بيوتنا مع أخ له من الرضاعة فى بهم لنا جاء أخوه ذلك يشتد فقال:

ذاك أخى القرشى جاءه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاه فشقا بطنه فخرجت أنا وأبوه نشتد نحوه فنجده قائماً منتقعاً لونه فاعتنقه أبوه وقال:

يا بنى ما شأنك؟

قال: جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض أضجعانى وشقا بطنى، ثم استخرجا منه شيئاً فطرحاه ثم وريا، كما كان، فرجعنا به معنا فقال أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون إبنى قد أصيب فانطلقى بنا نرده إلى أهله قبل أن يظهر به ما نتخوف، قالت حليمة:

فاحتملناه فلم ترع أمه إلا به فقدمنا به عليها فقالت:

ما ردكما به يا ظئر فقد كنتما عليه حريصين؟ فقالا:

لا والله، إلا أن الله قد أدى عنا وقضينا الذى علينا وقلنا نخشى الإتلاف والأحداث نرده إلى أهله، فقالت: ما ذا بكما فأصدقانى شأنكما، فلم تدعنا حتى أخبرناها خبره، فقالت:

أخشيتما عليه الشيطان؟؟. كلا والله ما للشيطان عليه من سبيل، والله إنه لكائن لابنى هذا شأن، ألا أخبركما خبره،

قلنا: بلى، قالت: حملت به فما حملت حملا قط أخف منه فأريت النوم حين حمل به كأنه خرج منى نور أضاءت له قصور الشام، ثم وقع حين ولدته وقوعاً ما يقعه المولود معتمداً على يديه رافعاً رأسه إلى السماء فدعاه عنكما[1].

هذه هى الرواية الشهيرة المعتمدة عند علماء السير والمغازى، وقد ذكرناها بطولها لشرحها بالتفصيل حال الرضاعة وما تم فيها،

(١) هذه الرواية ذكرت فى سيرة ابن هشام وفى السيرة لابن كثير والخصائص الكبرى للسيوطى ودلائل النبوة للبيهقى واخترنا نصها من السيرة لابن كثير نظرا لأنه يتدخل فيها بعض الشيء والتوضيح فى جـ١ ص ٢٢٨، ص ٢٢٩.

على أن هذا لايمنعنا من ذكر رواية أخرى تؤيد تلك الرواية تكون كالملخص لما سبق، وفيها زيادة بالنسبة لشق الصدر، وقال ابن كثير عن اسنادها إنه إسناد جيد قوى.

يقول ابن اسحاق: حدثنى ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا له: أخبرنا عن نفسك قال:

نعم أنا دعوة أبى إبراهيم، وبشرى عيسى عليه السلام،ورأت أمى حين حملت بى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام واسترضعت فى بنى سعد بن بكر فبينما أنا فى بهم لنا أتانى رجلان عليهما ثياب بيض معهما طست من ذهب مملوء ثلجا فأضجعانى فشقا بطنى، ثم استخرجا قلبى، فشقاه فأخرجا منه علقة سوداء، فألقياها، ثم غسلا قلبى وبطنى بذلك الثلج حتى إذا أنقياه رداه كما كان، ثم قال أحدهما لصاحبه:

«زنه بعشرة من أمته فوزننى بعشرة فوزنتهم»

ثم قال زنه بمائة من أمته، فوزننى بمائة فوزنتهم،

ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزننى بألف فوزنتهم، فقال:

دعه عنك فلو وزنته بأمته لوزنهم(١)

ويؤيد هذه الحادثة أيضاً ما ثبت فى صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت ، عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ، أتاه جبريل عليه السلام، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب واستخرج منه علقة سوداء فقال:

هذا حظ الشيطان ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده فى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه – يعنى ظئره، فقالوا:

«إن محمد قد قتل، فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط فى صدره(٢)»

هذه هى المرة الأولى التى وقعت فيها حادثة شق الصدر، أما فى المرة الثانية: فإن أغلب كتاب السير والمغازى يذكرون أنها كانت قبل الإسراء والمعراج مباشرة، أى وهو

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٦٦.
(٢) صحيح مسلم جـ٢ ص٢١٦.

فى سن كبير على أننا وجدنا رواية تذكر أنه أعيد شق صدره وهو ابن عشر سنين، ولهذه الرواية من الشواهد والمتابعات ما ذكر فى عدة كتب مما يحسنها، والواقع: أن هذه الحادثة الثانية تؤكد لنا مبلغ عناية الله سبحانه وتعالى بالرسول ﷺ، فى جميع مراحل عمره، وأن الرسول ﷺ ما كان يصدر عنه أى تصرف سواء قبل البعثة أم بعدها، إلا وهومحفوف بعناية الله وعصمته.

روى الإمام أحمد، وابن حبان، والحاكم، وابن عساكر عن أبى بن كعب:

أن أبا هريرة رضي الله عنه كان جريئاً أن يسأل رسول الله ﷺ ، عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال:

يارسول الله: ما أول ما رأيت فى أمر النبوة؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال:

لقد سألت أبا هريرة.

إنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر وإذا أنا بكلام فوق رأسى ، وإذا رجل يقول لرجل:

أهو هو؟

قال نعم: فاستقبلانى بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا، فقال أحدهما لصاحبه:

أضجعه، فأضجعانى بلا قسر ولا هصر، وقال أحدهما لصاحبه:

أفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع، فقال له:

أخرج الغل والحس، فأخرج شيئا كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له:

أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة ثم نغز ابهام رجلى اليمنى فقال: أغدوا سلم،

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير[١].

(١) ينظر فى ذلك الوفا بأحوال المصطفى للامام أبى الفرج بن الجوزى الجزء الأول ص ١١٥ وروح المعانى للألوسى جـ٣، ص ١٦٧ ، وتفسير ابن كثير جـ٤ ص ٥٢٤ والرسول ﷺ وسنته الشريفة للدكتور عبد الحليم محمود ص ٥٤ وص ٥٥ والسيرة الحلبية جـ١ ص ٤٠٦.

معالم الهداية والخصوصية

فى رسول الله ﷺ فى رأى بحيرا الراهب

وتمضى الأيام بسيدنا رسول الله ﷺ محفوفا بعناية الله سبحانه وتعالى وعصمته حتى كان فى يوم من الأيام فى رحلة إلى الشام مع عمه أبى طالب والتقى فى هذه الرحلة بعالم كبير من علماء النصارى هو بحيرى الراهب الذى رأى فيه من خصوصيات النبوة التى ذكرتها الكتب السماوية السابقة ورأى عليه الآيات الربانية، ومن مظاهر العصمة ما يجعلنا نذكر الرواية بكاملها، لأنها تعتبر من الدعائم الهامة فى بيان معالم الهداية ومظاهر الخصوصية فيه ﷺ قبل البعثة.

يقول ابن اسحاق:

ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام،

فلما تهيأ للرحيل، وأجمع السير صب به رسول الله ﷺ فيما يزعمون.

فرق له أبو طالب وقال:

«والله لأخرجن به معى ولا أفارقه ولا يفارقنى أبدا، وكما قال:

فخرج به، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام وبها راهب يقال له بحيرى فى صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية ولم يزل فى تلك الصومعة منذ قط راهب فيها إليه بصير علمهم عن كتاب فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر.

فلما نزلوا ذلك العالم ببحيرى - وكانوا كثيرا ما يمرون به فلا يكلمهم ولا يعرض لهم، حتى كان ذلك العام، فلما نزلوا قريبا من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً وذلك فيما يزعمون عن شىء رآه وهو فى صومعته، يزعمون أنه رأى رسول الله ﷺ فى الركب، حتى أقبل وغمامة تظلله من بين القوم.

ثم أقبلوا فنزلوا فى ظل شجرة قريباً منه، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة وتهصرت أعضاء الشجرة على رسول الله ﷺ حتى استظل تحتها.

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته، وقد أمر بطعام فصنع، ثم أرسل إليهم فقال:

إنى صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش فأنا أحب أن تحضرو كلكم كبيركم وصغيركم وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم:

«والله يابحيرى ان لك لشأنا اليوم ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً فما شأنك اليوم؟

قال له البحيرى: صدقت، قد كان ما تقول، ولكنكم ضيف، وقد أحببت أن أكرمكم، وأصنع لكم طعاما فتأكلون منه كلكم.

فاجتمعوا إليه، وتخلف رسول الله ﷺ، من بين القوم لحداثة سنه فى رحال القوم تحت الشجرة.

فلما رآهم بحيرى لم ير الصفة التى يعرف ويجده عنده، فقال: يا معشر قريش لا يتخلفن أحد منكم عن طعامى،

قالوا يا بحيرى ما تخلف أحد ينبغى له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدثنا سنا فتخلف فى رحالنا،

قال: لاتفعلوا ادعوه فليحضر هذا العام معكم.

قال: فقال: رجل من قريش مع القوم: واللات والعزى ان كان للؤم بنا أن يتخلف محمد بن عبدالله، بن عبدالمطلب عن طعام من بيننا.

ثم قام إليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم.

فلما رآه بحيرى جعل يلحظه لحظا - شديدا، وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم، وتفرقوا قام إليه بحيرى وقال له : ياغلام:

أسألك بحق اللات والعزى ألا أخبرتنى عما أسألك عنه؟ وإنما قال له بحيرى ذلك، لأنه سمع قومه يحلفون بهما فزعموا أن رسول الله ﷺ قال له: لا تسألنى باللات والعزى شيئا فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما .

فقال له بحيرى: فبالله: إلا ما أخبرتنى عما أسألك عنه فقال له : سلنى عما بدا لك.

فجعل يسأله عن أشياء من حاله ومن نومه وهيئته وأموره فجعل رسول الله ﷺ يخبره، فوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته.

ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم النبوة بين كتفيه موضعه من صفته التى عنده، فلما فرغ أقبل على عمه أبى طالب فقال:

ماهذا الغلام منك؟

قال: ابنى،

قال بحيرى: ما هو بابنك وما ينبغى لهذا الغلام أن يكون أبوه حيا؟

قال: فإنه ابن أخى،

قال: فما فعل أبوه؟

قال: مات وأمه حبلى به،

قال: صدقت، ارجع بابن أخيك إلى بلده واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغينه شرا فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به إلى بلاده فخرج به عمه أبو طالب سريعا حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام[1].

وهكذا ذكر ابن اسحاق القصة بغير اسناد، على أنها جاءت فى دلائل النبوة للبيهقى بالاسناد التالى:

أخبرنا أبو القاسم: طلحة بن على بن صقر البغدادى، بها، قال: أخبرنا أبو الحسين: أحمد بن عثمان بن يحى الآدمى، قال: حدثنا عباس بن محمد الدورى وأخبرنا أبو عبدالله الحافظ وأبو بكر: أحمد بن الحسن القاضى وأبو سعيد ابن أبى عمرو، قالوا: حدثنا أبو العباس: محمد بن يعقوب، قال: حدثنا العباس بن محمد، قال: حدثنا قراد أبو نوح، قال: أخبرنا يونس بن أبى اسحاق عن أبى بكر بن أبى موسى عن أبى موسى.

وقد زادت رواية البيهقى عن رواية ابن اسحاق زيادة يقول:

خرج أبو طالب إلى الشام فخرج معه رسول الله ﷺ، فى أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت،

قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ، وقال: هذا سيد العالمين هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش أعلمك؟

(١) سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٩١.

قال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يمر بشجر ولا حجر إلا خر ساجد ولا يسجدان إلا لنبى، وانى أعرف خاتم النبوة فى أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة ثم رجع فصنع لهم طعاما فلما أتاهم به وكان هو فى رعية الإبل قال:

أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظلله.

فقال: انظروا إليه عليه غمامة تظلله فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فئ الشجرة ، فلما جلس مال فى الشجرة عليه فقال:

أنظروا إلى فئ الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فان الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، فالتفت فإذا هو بتسعة ، وفى رواية الأصم بسبعة – نفر قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟

قالوا: جئنا إلى النبى خارج فى هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا،

قال لهم: هل خلفتم أحداً هو خير منكم؟

قالوا : لا، إنا أخبرنا خبر طريقك هذا،

قال: أفرأيتم أمرا أراد الله عز وجل، أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟

قالوا: لا.

قال: فتابعوه وأقاموا معه،

قال فأتاهم، فقال: أنشدكم الله أيكم وليه؟

فقالوا: أبوطالب، فلم يزل يناشده حتى رده، وبعث معه أبو بكر رضي الله عنه، بلالا وزوده الراهب من الكعك والزيت[1]

---

(١) أخرجه الحاكم فى المستدرك جـ٢ ص٦١٥ – ٦١٦، وأخرجه السيوطى فى الخصائص الكبرى جـ١ ص ٨٣، وأخرجه الترمذى فى السنن جـ٢ ص ٢٨٣ – ٢٨٤ وقال هذا حسن غريب لانعرفه الا من هذا الوجه، وقال عنه الحافظ ابن حجر فى الإصابة فى تمييز الصحابة قال: وقد وردت هذه القصة باسناد رجال ثقات من حديث أبى موسى الأشعرى أخرجها الترمذى وغيره ولم يسم فيها الراهب وزاد فيها لفظة منكرة وهى قوية: (وأتبعه أبو بكر بلالا) وسبب نكاراتها أن أبا بكر لم يكن حينئذ متأهلا ولا اشترى يومئذ بلالا الا أن يحمل على أن هذه الجملة الأخيرة منقطعة من حديث آخر أدرجت فى هذا الحديث وفى الجملة هى وهم من أحد رواته، وابن كثير فى البداية والنهاية ص ٢٨٥ – ٢٨٦ عن البيهقى والترمذى والحاكم وابن عساكر وقد قال عنه: فيه من الغرائب انه من مرسلات الصحابه فإن أبا موسى الأشعرى إنما قدم فى سنة خيبر سنة سبع من الهجرة، ولايتلفت إلى قول ابن اسحاق فى جعله له من المهاجرة إلى أرض الحبشة من مكة وعلى كل تقدير فهو مرسل فإن هذه القصة كانت ولرسول الله ﷺ من العمر ثنتا عشرة سنة ولعل أبا موسى تلقاه من النبى فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة أو كان هذا مشهورا مذكورا أخذ من طريق الاستفاضة، وفيه: أن الغمامة لم تذكر فى حديث أصح من هذا.

وإذا كنا ذكرنا هذه الروايات التى بينت الكثير من مظاهر الخصوصية وملامح الهداية لرسول الله ﷺ، فان لنا عليها عدة تعقيبات توضح وتؤكد بعض أمور يمكن أن تؤخذ من القصة:

أولاً: أن بعض المستشرقين ومن شايعهم من العرب أخذوا من هذه القصة دليلا على وجود نظرية التأثر والتأثير فى الدين الإسلامى، ففى نظر بعضهم أن سيدنا محمدا ﷺ تأثر بكلام بحيرى الراهب إليه مما دفعه إلى ادعاء النبوة بعد ذلك ولو أنه لم يقابله ولم يتأثر بكلامه لم يبلغ به طموحه هذا المبلغ،

والبعض الآخر يقول: أن بحيرى الراهب وغيره من رهبان الشام هو الذى لقن سيدنا محمد ﷺ أصول الدين الإسلامى، وأنه استفاد من علمهم الشىء الكثير[1].

ويمكن أن نرد على مزاعم هؤلاء المستشرقين بقولنا : أننا يمكن أن نأخذ من سياق القصة:

١ – أن المقابلة بين سيدنا محمد ﷺ وبين بحيرى الراهب كانت لفترة قصيرة لا يمكن أن تسمح للرسول ﷺ بأخذ التوجيهات الكافية، أو التى لها قيمة من بحيرى الراهب، وأن أصحابه من قريش كانوا حاضرين.

٢ – أن سيدنا محمد ﷺ، كان فى سن صغيرة لقد استخلفه قومه على متاعهم لصغر سنه، بل إن بعض كتاب السير يرجح أن سنه فى ذلك الوقت كان تسع سنوات، والبعض الآخر يرجحه بالثانية عشرة، فأنى لمثل هذا السن أن يتلقى أمور النبوة العظام؟

أو أن يتأثر بكلام الراهب فتحدثه نفسه بالنبوة؟

٣ – زعمهم أن سيدنا محمد ﷺ، كان يأخذ أمور دينه من رحلاته إلى الشام ابتداء من هذه الرحلة وزعم درمنغم أنه مر بمدين وهى بلد فى سيناء وهو فى طريقه إلى الشام وأخذ من رجالها العلم، ويمكن الرد عليه بأن سيدنا محمد ﷺ لم يسافر إلى الشام إلا فى رحلتين، أولاهما: وهو صغير السن مع عمه أبى طالب ، والثانية: بعد أن أتم الخامسة والعشرين، وكان يتاجر فى أموال السيدة خديجة رضى الله عنها وأرضاها،

---

(١) نقل هذا الكلام عن أمثال اميل در منغم ورينيه والقسيس لامانسى، ويرجع فى ذلك بالتفصيل إلى كتاب الوحى المحمدى للسيد محمد رشيد رضا ص ٧١.

وهذه الرحلة لم يكن له فيها أى لقاء برجال الدين أو غيرهم أما أنه مر بمدين وهو فى طريقه إلى الشام: فان طريق القوافل لم يكن يمر بسيناء وهذا واضح للأعين.

ثانيا: تذكر الروايتان أن بحيرى الراهب وجد خاتم النبوة بين كتفى رسول الله ﷺ مما يدعونا لذكر الروايات المتعلقة بهذا الموضوع لزيادة الاستدلال على خصوصية الرسول ﷺ بهذا الأمر.

أخبرنا عبدالله بن جعفر بن درستويه ، قال: حدثنا يعقوب بن سفيان: قال حدثنا هشام بن عمار، قال: حدثنا حاتم بن اسماعيل، قال: حدثنا الجعيد بن عبدالرحمن بن أويس قال: سمعت السائب بن يزيد يقول: ذهبت بى خالتى إلى رسول الله ﷺ فقالت: يارسول الله، إن ابن أختى وجع فمسح رأسى ودعا إلى بالبركة ثم توضأ فشربت من وضوئه ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى خاتمه بين كتفيه مثل زر الحجلة[1].

وروى مسلم عن جابر بن سمرة قال:

«رأيت الخاتم الذى فى ظهر رسول الله ﷺ مثل بيضة الحمام[2]»

وروى مسلم أيضا عن عبدالله بن رسريس قال:

رأيت النبى ﷺ وأكلت معه خبزا ولحما – أو قال ثريدا– قال: فقلت: يارسول الله، غفر الله لك، قال : ولك،

فقلت: أستغفر لك رسول الله ﷺ؟ قال: نعم ولكم ثم تلا هذه الآية:

﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾

قال: ثم درت خلفه فنظرت إلى خاتم النبوة بين كتفيه عند نغص كتفه اليسرى جمعا عليه خيلان كأمثال الثآليل[3].

ثالثا: قال سيدنا محمد ﷺ لبحيرى الراهب: «لاتسألنى باللات والعزى فو الله ما أبغضت شيئا قط بغضها[4]»

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى ص ٢١٠ وذكره البخارى فى كتاب الوضوء وفى كتاب المناقب باب خاتم النبوة وذكره مسلم فى كتاب الفضائل جـ٤ ص ١٨٢٣ ، وبهامش فتح البارى جـ٤ ص ٤١٠ .

(٢) رواه مسلم عن محمد بن عبدالله بن نمير عن عبدالله بن موسى/ صحيح مسلم كتاب الفصائل جـ٤ ص١٨٢٣ .

(٣) رواه مسلم فى صحيحه عن حامد بن عمر البكراوى وعن أبى كامل عن حماد، كتاب الفضائل جـ٤، ص١٨٢٤ .

(٤) سيرة هشام ص ١٨٢ .

يدلنا هذا القول على أن سيدنا رسول الله ﷺ، لم يعمل شيئا من أعمال أهل الجاهلية من عبادتهم للأصنام وتعظيمها، لقد تكفل به الله سبحانه وتعالى، وجعله موضع عنايته، فأبعد عنه أوهام الجاهلية وما شرعته لنفسها من عبادات زعمت أنها من دين ابراهيم عليه السلام، وهى ليست منه، يقول ابن الجوزى:

«كان رسول الله ﷺ، فى زمن الصبا يبغض الأصنام ولا يلتفت إليها، وكان أهله يسألونه أن يخرج معهم إلى ناحيتها فلا يفعل ولا يقرب منها ويعبها[1]، ويوضح ذلك ابن اسحاق بقوله:

فشب رسول الله ﷺ يكلؤه الله ويحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلا أفضل قومه مرؤة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا، وأعظمهم حلما، وأصدقهم حديثا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التى تدنس الرجال تنزها وتكرما.

حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

وكان رسول الله ﷺ – فيما ذكر لى – يحدث عما كان الله يحفظه به فى صغره وأمر جاهليته أنه قال:

«لقد رأيتنى فى غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض مايلعب الغلمان كلنا قد تعرى وأخذ ازاره وجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة فإنى لأقبل معهم كذلك وأدبر اذ لكمنى لاكم ما أراه لكمة وجيعة، ثم قال:

شد عليك ازارك،

قال فأخذته فشددته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى على من بين أصحابى[2]،

وروى البخارى عن جابر بن عبدالله لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله ﷺ، والعباس ينقلا الحجارة، فقال العباس للنبى ﷺ :

«إجعل ازارك على عاتقك من الحجارة، ففعل فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم قام فقال:

(١) الوفا بأحوال المصطفى للإمام أبى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى الجزء الأول ص١٣٨.
(٢) سيرة ابن هشام جـ١ ص١٩٤.

إزارى فستر عليه إزاره[١]،

على أننا إذا كنا نريد التركيز على ا جتناب رسول الله ﷺ ، للأصنام وعبادتها، فإننا نجد الحافظ جلال الدين السيوطى يفصل لنا القول فى ذلك، يقول:

اخرج ابن سعد وأبو نعيم وابن عساكر من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: حدثتنى أم أيمن قالت:

كان بوانه صنما يحضره قريش يوما فى السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه وكان يكلم رسول الله ﷺ أن يحضر ولك العيد مع قومه فيأبى.. حتى رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا وجعلن يقلن: يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيدا ولا تكثر لهم جمعا؟

لم يزالوا به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبا فزعا فقلن عماته مادهاك؟

قال: إنى أخشى أن يكون بى ألم؟

فقلن : ما كان الله ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك؟

فما الذى رأيت؟

قال: إنى كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى: وراءك يا محمد لاتمسه، قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى نبئ[٢].

هذا ما كان عن الأصنام والعقيدة فيها، أما عن شرائع قومه بالنسبة لطريقة العبادة فيقول الإمام السيوطى فى الخصائص الكبرى عن الحاكم وأبى نعيم والبيهقى عن زيد بن حارثة قال:

كان صنم من نحاس يقال له: أساف أو نائلة، يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ فطفت معه، فلما مررت مسحت به فقال رسول الله ﷺ: لاتمسه.

---

(١) رواه مسلم عن محمد بن رافع واسحاق ابن منصور كتاب الحبيض جـ١ ص٢٦٨ ورواه البخارى عن محمود عن عبدالرازق فى باب بنيان الكعبة جـ٧ ص١١٠.

(٢) الخصائص الكبرى للسيوطى ج١ ص٢٢١، ص٢٢٢.

فقال زيد: فطفت فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يكون فمسحته، فقال رسول الله ﷺ ألم تنه؟

قلت: زاد فهي غيره عن محمد بن عمرو بإسناده: قال زيد:

فوالذي هو أكرمه وأنزل عليه الكتاب ما استلم صنما حتى أكرمه الله بالذي أكرمه وأنزل عليه[1].

أما موقفه ﷺ بالنسبة للحمس مع أن القوم كانوا يعتبرونه منهم، فقد كان موقف المعارض ولم تكن معارضة نظرية ، بل إنه بالفعل لم يقف بمزدلفة أثناء الحج، بل كان يتبع شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام ويقف بعرفات، يقول ابن كثير:

«وثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة، بل كان لا يقف مع الناس بعرفات، كما قال يونس بن بكير، عن محمد بن اسحاق حدثني عبدالله بن أبي بكر، عن عثمان بن أبي إسماعيل عن نافع بن جبير ابن مطعم، عن أبيه جبير، قال:

«لقد رأيت رسول الله ﷺ، وهو على دين قومه وهو يقف على بعير له بعرفات من بين قومه حتى يدفع معهم توفيقاً من الله عز وجل له».

قال البيهقي: معنى قوله: «على دين قومه» ما كان بقي من إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ولم يشرك بالله قط صلوات الله وسلامه عليه.

قلت: ويفهم من هذا أيضاً: أنه كان يقف بعرفات قبل أن يوحى إليه وهذا توفيق من الله له[2].

ورواه الإمام أحمد عن يعقوب ، عن محمد بن إسحاق به، ولفظه:

رأيت رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه، وإنه لواقف على بعير له مع الناس بعرفات حتى يدفع معهم توفيقاً من الله»

وقال الإمام أحمد: حدثنا سفيان، عن عمرو عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال:

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٢٥٣ وذكره السيوطي في كتاب الخصائص الكبرى جـ٢ ص٧٩ - ٩٠ وذكره البهيقي في دلائل النبوة ص٣٨٢.

أضللت بعيراً لى بعرفة، فذهبت أطلبه فإذا النبى ﷺ، واقف، فقلت إن هذا من الحمس ما شأنه هاهنا؟

وأخرجاه من حديث سفيان بن عيينة به[1]

هذه هى الأفاق التى أخذناها من لقاء الرسول ﷺ مع بحيرى الراهب، واللقاء يحوى الكثير إلا أننا اقتصرنا على هذا القدر لنكمل بقية عرضنا لمظاهر الخصوصية فى رسول الله ﷺ قبل البعثة.

وإذا كان لنا أن نختم هذا الجزء فلن نجد خيرا من تعليق القاضى عبد الجبار بن أحمد الهمذانى على قوله تعالى:

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[2]

يقول : فتأمل ما فى هذا فإنه ﷺ ما عرف العز بالأبوين كما يعرف من رباه أبواه، فإن أباه مات وهو حمل ، وماتت أمه وهو رضيع فأواه الله أكرم إيواء ، فلما كمل أتاه النبوة .. «وكان أمر الله مفعولا[3]».

---

(١) السيرة النبوية جـ١ ص٢٥٤.
(٢) سورة الضحى آية ٥-٨.
(٣) تثبيت دلائل النبوة للقاضى عبدالجبار الهمذانى ج١ ص٨٥.

الأمـين

تظهر لنا لوائح الهداية ومظاهر الخصوصية فيه ﷺ فى إطلاق المجتمع القرشى عليه ﷺ، لقب «الأمين».

والواقع: أن لقب الأمين هو أصدق تصوير لحالة الرسول ﷺ.

لقد كان هو منهج حياته كلها، وإن كثيرا من الناس قد يطرأ على ذهنه - بمجرد سماع لفظ الأمين- الأمانة على الأموال ولكن معناها أوسع بكثير من هذا المعنى القاصر، إنه فعلا كان أمينا على الأموال، فلم تؤثر عنه خيانة فى هذا على الإطلاق، ولكن المعنى الأوسع للفظ الأمين- كما أراده المجتمع القرشى- أنه كان أمينا فى نفسه فلم يشبه من الجاهلية شىء.

لقد كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقا، وأكرمهم حسبا، وأحسنهم جوارا ، ولم يؤثر عنه كذب قط.

يقول ابن هشام بعد أن يذكر فضائل بالرسول ﷺ:

«حتى ما اسمه فى قومه إلا الأمين لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة[1]».

وإذا كان لنا أن نذكر مثالا على عناية الله تعالى به بحيث أصبح أمينا فى نفسه فإننا نقول:

يقول البيهقي: أخبرنا أبو عبدالله الحافظ، قال: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، قال: حدثنا أحمد بن عبدالجبار، قال: حدثنا يونس بن بكير، عن ابن اسحاق، قال: حدثنى محمد بن عبدالله بن قبيس بن مخزمة عن الحسن بن محمد بن على بن أبى طالب عن أبيه عن جده على بن أبى طالب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«ما هممت بشىء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين كلتاهما عصمنى الله تعالى فيهما.

قلت: ليلة لبعض فتيان مكة ونحن فى رعاية غنم أهلنا، فقلت لصاحبى أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة فأسمر فيها كما يسمر الفتيان، فقال بلى:

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص١٨٣.

قال: فدخلت حتى إذا جئت أول دور من دور مكة سمعت عزفا بالعزابيل والمزامير، فقلت: ما هذا؟

فقيل: تزوج فلان فلانة فجلست أنظر وضرب الله تعالى على أذنى، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبى، فقال: ما فعلت؟

قلت ما فعلت شيئا، ثم أخبرته بالذى رأيت.

ثم قلت له ليلة أخرى: أبصر لى غنمى حتى أسمر بمكة، ففعل، فدخلت فلما جئت مكة سمعت مثل الذى سمعت تلك الليلة، فسألت، فقيل فلان نكح فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذنى فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس ، فرجعت إلى صاحبى، فقال: مافعلت؟

فقلت: لاشيء، ثم أخبرته الخبر ، فوالله ما هممت ولاعدت بعدها لشيء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته[1].

لقد كان أمينا فى نفسه فما هم ولا عاد لشيء من ذلك أبداً بعد أن عصمه الله تعالى.

---

(١) دلائل النبوة للبيهقى الجزء الأول ص٣٨١.
وقد رواه السيوطى فى الخصائص الكبرى عن ابن دراهويه وابن اسحاق والبزار والبيهقى وأبى نعيم وابن عساكر ثم قال عن ابن حجر (اسناده حسن متصل ورجاله ثقات) الخصائص الكبرى (ج١ ص٢١٩) تحقيق الدكتورمحمد خليل هراس.

الأمين على غيره

ومن معاني الأمين أنه كان أمينا على غيره فلم يؤثر عنه أنه أضر بغيره على الإطلاق.

لقد كان عطوفا على الناس، معينا للضعفاء، أمينا على الحديث فلا كذب أمينا على الأسرار فلا يفشيها.

وما كان قول السيدة خديجة رضوان الله عليها: «كلا والله ما يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق» إلا توضيحا لمعنى الأمين بالنسبة لغيره.

وإذا كان لنا أن نذكر مثالا على ذلك فإننا نقول:

إنه فى هذه الفترة التى قبل البعثة: كان يتحاكم إلى الرسول ﷺ.

يقول الربيع بن خيثم:

كان يتحاكم إلى رسول الله ﷺ فى الجاهلية قبل الإسلام، ثم اختص فى الإسلام[1].

ومن الأمثلة المشهورة على ذلك الاحتكام إليه بشأن وضع الحجر الأسود.

يقول البيهقي:

«أخبرنا أبو نصر بن قتادة قال: حدثنا أبو الحسن السراج قال: حدثنا أبو شعيب الحرانى، قال: حدثنا داود بن عمرو قال: حدثنا أبو الأحوص: سلام بن سليم عن سماك بن حرب عن خالد بن عرعرة، عن على ابن أبى طالب رضي الله عنه بمعناه زاد:

قال: فمر عليه الدهر فانهدم فبنته العمالقة.

قال: فمر عليه الدهر، فانهدم فبنته جرهم، فمر عليه الدهر فبنته قريش ورسول الله ﷺ يومئذ شاب ، فلما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود اختصموا فيه، فقالوا:

(١) الرسول ﷺ وسننه الشريفة ص٧٠.

يحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السكة، فكان رسول الله ﷺ ، أول من خـرج عليهم فقضى بينهم أن يجعلوه فى مرط، ثم ترفعه جميع القبائل كلهم[١].

ويذكر ابن كـثـيـر رواية تزيد عن الرواية السابقة بما يفصل ويوسع لنا فى أمانة الرسول ﷺ فى المجتمع القرشى.

يقول ابن كثير:

قال يعقوب بن سفيان: أخبرنى أصبغ بن فرج، أخبرنى ابن وهب عن يونس عن ابن شهاب، قال:

لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم[٢] جمرت امرأة الكعبة فطارت شرارة من مجمرها فى ثياب الكعبة، فاحترقت فهدموها حتى إذا بنوها فبلغوا موضع الركن اختصمت قريش فى الركن:

أى القبائل تلى رفعه؟

فقالوا: تعالوا نحكم أول من يطلع علينا فطلع عليهم رسول الله ﷺ، وهو غلام عليه وشاح، فحكموه فأمر بالركن فوضع فى ثوب، ثم أخرج سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية من الثوب، ثم ارتقى هو فرفعوا إليه الركن ، فكان هو يضعه.

فكان لايزداد على السن إلا رضى حتى دعوه الأمين قبل أن ينزل عليه الوحى فطفقوا لا ينحرون جزورا الا التمسوه فيدعو لهم فيها[٣].

لقد دعوه الأمين حتى قبل أن ينزل عليه الوحى فكان توفيقا من الله تعالى لرسوله ﷺ، ويكفينا القول فى هذا.

---

(١) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبى بكر أحمد بن حسين البيهقى تحقيق السيد أحمد صقر وقد قال فى الهامشة: أخرجه أبو الوليد الأرقى فى أخبار مكة تاما والحاكم فى المستدرك تاماوصححه وأقره الذهبى والسيوطى فى الدر المنثور.

(٢) المشهور أن هذا كان رسول الله ﷺ فى سن الخامسة والثلاثين ولعله يقصد بعد أن كبر رسول الله ﷺ.

(٣) يقول ابن كثير: هذا سياق حسن وهو من سيرة الزهرى وفيه من الغرابة قوله: فلمابلغ الحلم والمشهور أن هذا كان ورسول الله ﷺ عمره خمس وثلاثون سنة وهو الذى نص عليه محمد ابن اسحاق بن يسار رحمه الله وقال موسى بن عقبة كان بناء الكعبة قبل المبعث بخمس عشرة سنة، وهكذا قال مجاهد وعررة ومجمد بن جبير بن مطعم وغيرهم، السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص٢٧٤ وينظر فى دلائل النبوة للبيهقى ص٤٠٨ ج١.

من مظاهر هدايته ﷺ
التحنث

تقول السيدة عائشة رضوان الله عنها:

أول ما بدئ به الرسول ﷺ من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه وهو التعبد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء[١].

لقد دلتنا السيدة عائشة رضوان الله عليها على ملامح من حياة الرسول ﷺ بينت لنا فيها أول ما بينت أن الرسول ﷺ، كانت له من الرؤى الصالحة قبل نزول الوحى عليه بالرسالة، فما من رؤيا منها إلا جاءت مثل فلق الصبح، وهذا يبين لنا مقدار عناية الله سبحانه وتعالى برسوله ﷺ قبل البعثة، وأنه كان قريبا منه يحوطه بالتربية الآلهية ويعصمه من الوقوع فى مزالق الخطأ ويعطيه من البشارات ما يدل على قرب نبوته مما يظهره عليه من مظاهر الخصوصية ﷺ، ويدلنا على ذلك ما رواه مسلم، عن أبى بكر بن أبى شيبة، حدثنا يحيى بن أبى بكير عن إبراهيم بن طهمان حدثنى سماك بن حرب بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«إنى لأعرف حجرا بمكة كان يسلم على قبل أن أبعث إنى لأعرفه الآن[٢]».

يقول ابن هشام:

قال ابن اسحاق: وحدثنى عبدالملك بن عبيد الله بن أبى سفيان بن العلاء بن جارية الثقفى وكان داعية عن أهل العلم:

أن رسول الله ﷺ حين أراده الله بكرامته، وابتدأ بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ويفضى إلى شعاب مكة وبطون أوديتها فلا يمر رسول الله ﷺ بحجر ولا شجر إلا قال:

«السلام عليك يارسول الله.

(١) حديث البخارى عن يحيى بن بكير قال: حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين فى باب بدء الوحى.

(٢) صحيح مسلم كتاب الفضائل حديث رقم ٢٢٧٧.

قال: فليتفت رسول الله ﷺ حوله وعن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى إلا الشجر والحجارة، فمكث رسول الله ﷺ كذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث ثم جاء جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله وهو بحراء فى شهر رمضان[١]».

تدلنا هذه الروايات على أن سيدنا رسول الله ﷺ، كانت تحدث له أمور خارقة للعادة قبل بعثته، تدل على مدى العناية الإلهية به، وتقرب منه أمر النبوة وما يحدث فيها من المعجزات وخوارق العادات فإننا فى حديث: كيف كان بدء الوحى؟ نرى مدى ما روع سيدنا رسول الله ﷺ بنزول الوحى عليه فى أول مرة، فكيف لو لم يتلق أى بشارات فى الرؤى التى تجئ مثل فلق الصبح، أو رأى خوارق العادات التى تؤهله، وتقرب منه أمر المعجزات الآلهية وإذا كان بعض الناس ينكرون هذا الأمر، فإننا لانرى مانعا يمنع حدوثه لشخص هو خاتم النبيين، وما الآيات التى جرت على يد سيدنا عيسى عليه السلام ببعيد، وقد ذكرت فى القرآن فكيف بمن وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه رحمة للعالمين.

يقول الحافظ ابن حجر فى تعليقه على الرؤى التى رآها رسول الله ﷺ:

«بدئ بذلك ليكون تمهيدا وتوطئة لليقظة، ثم مهد له فى اليقظة أيضاً رؤية الضوء وسماع الصوت وسلام الحجر[٢]».

ثم الأمر الثانى: الذى نأخذه من حديث السيدة عائشة رضوان الله عليها أنه كان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد الليالى ذوات العدد.

لقد كان التحنث نتيجة للرؤى التى تجئ مثل فلق الصبح، وفى ذلك يقول القسطلانى:

فإن قلت أمر الغار قبل الرسالة فلاحكم ، أجيب بأنه أول ما بدئ به عليه الصلاة والسلام، من الوحى الرؤيا الصالحة، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء، كما مر فدل على أن الخلوة حكم مرتب على الوحى، لأن كلمة: «ثم» للترتيب[٣]

---

(١) سيرة ابن هشام ص٢٣٤– ص٢٣٥.
(٢) فتح البارى ج١ ص٢٥.
(٣) الإمام شهاب الدين القسطلانى إرشاد السارى إلى شرح صحيح البخارى ج١ ص٦٢.

لقد رباه الله سبحانه وتعالى فكان التحنث نتيجة لذلك، ولم يكن شيئا مألوفا فى القوم.

ولكن ماذا كانت طريقة تحنثه ومعتقده فى ذلك؟

يقول الله تعالى:

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]

يقول الإمام الألوسى فى شرحها:

وأكثر المفسرين على أن المراد بها هنا أصول الشرائع[2].

ويقول الإمام الطبرى:

يقول الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، ثم أوحينا إليك يامحمد وقلنا لك: اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة حنيفا: يقول: مسلما على الدين الذى كان عليه إبراهيم بريئا من الأوثان والأنداد التى يعبدها قومك كما كان إبراهيم تبرأ منها[3].

فإذا كان الله سبحانه يأمره فى القرآن وبعد الوحى باتباع ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام وذلك فى العقيدة وأصل الدين فلا يوجد فى نظرنا أى داع لكثير من التأويلات التى تذكر عن تحنث سيدنا رسول الله ﷺ فيمكن بالاستدلال بهذه الآية على أن تحنث رسول الله ﷺ كان على ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام، ونشارك فى ذلك رأى الحافظ بن حجر حيث يقول:

«قوله فيتحنث هى بمعنى يتحنف أى يتبع الحنيفية»،

وقوله حبب: لم يسم فاعله لعدم تحقق الباعث على ذلك، وإن كان كل من عند الله أو لينبه على أنه لم يكن من بواعث البشر أو يكون ذلك من وحى الإلهام[4].

(١) سورة النحل آية: ١٢٣.
(٢) تفسير الإمام الألوسى ج١ ص٢٥١.
(٣) تفسير الإمام الطبرى ج١٤ ص١٩٣.
(٤) فتح البارى ج١ ص٢٥.

الفصل الثالث

شبه على دليل الرسالة وهو القرآن والرد عليها

بعد أن تحدثنا فى الفصلين الأول والثانى عن حياة الرسول ﷺ، قبل البعثة- لما أن لحياة الرسل قبل البعثة من أهمية فى الدلالة على بعثتهم- نأتى فى هذا الفصل نتحدث عن شبه المشركين على دليل رسالته بعد البعثة، وهو القرآن الكريم، كما وردت فى سورة الفرقان، فقد ذكرت السورة ثلاث شبه هى:

١- قول المشركين عن القرآن إنه افك افتراه سيدنا محمد ﷺ وأعانه عليه قوم آخرون.

٢- قولهم إنه أساطير الأولين، اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.

٣- قولهم لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة، تلميحا بذلك إلى أن نزوله مفرقا لا يخلو من شبهة الصنعة البشرية،

كل هذا الافك والافتراء الذى يفتريه المشركون مما يحتاج إلى الرد، وبيان كذب قولهم، وتهافته، بالأدلة العقلية والنقلية.

الشبهة الأولى:

(وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا).

القائلون هذا القول: هم المشركون من قريش ، وقد ذكرت بعض الرويات أنهم: النضر بن الحرث، وعبدالله بن أمية، ونوفل بن خويلد[١]

يقصد المشركون بذلك أن الرسول ﷺ، اختلق القرآن اختلاقا، وألفه من عنده، وأعانه فى ذلك بعض الناس وأن الرسول ﷺ كذب فى إضافته إلى الله تعالى، وكذب فيما جاءه، ومعاذ الله أن يكون ذلك.

يقول الفخر الرازى قال أبو مسلم:

---

(١) تفسير روح المعانى للإمام الألوسى جـ١٨ ص٢٣٤.

والافتراءافتعال من فريت، وقد يقال فى تقدير الأديم فريت الأديم، فإذا أريد قطع الإفساد قيل أفرت وافتريت، وخلقت واختلقت، ويقال فيمن شتم أمرئ بما ليس فيه إفتراي عليه[1].

أما من الذى أعانه على هذا القول فى نظر المشركين؟

يقول الفخر الرازى – نقلا عن الكلبى ومقاتل–

نزلت فى النضر بن الحرث، فهو الذى قال هذا القول،

«وأعانه عليه قوم آخرون» يعنى عداس مولى حويطب بن عبدالعزى، ويسار غلام عامر بن الحضرى، وخير مولى عامر، وهؤلاء الثلاثة، كانوا من أهل الكتاب، وكانوا يقرأون التوراة، ويتحدثون أحاديث منها: فلما أسلما وكان النبى ﷺ يتعهدهم فمن أجل ذلك قال النضر ماقال[2]

وقد رد الله سبحانه وتعالى قولهم هذا بأبلغ رد بقوله سبحانه:

﴿فقد جاءوا ظلما وزورا﴾.

والواقع أن ظلم المشركين وزورهم ثابت فى كثير من الأوجه، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ – إن القرآن بلغ من الإعجاز اللغوى ما يعجز عن الإتيان بمثله بشر.

بل وما يعجز عن الاتيان بعشر سور من مثله، بل وآية من مثله بشر أيضا، فكيف يستطيع افتراءه رجل أمى لم يتعلم ولم يقرأ ولم يكتب؟

٢ – فإذا كان هذا حال صاحب الشأن نفسه، فما بالك بمعاونيه وهم من أهل الكتاب ولسانهم أعجمى لا يستطيعون بلوغ جزئية بسيطة من هذا الإعجاز اللغوى؟ ويكفى قوله تعالى:

﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾[3].

(١) تفسير الفخر الرازى ج٦ ص٤٤٨.
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٤٨ ويراجع أيضا الألوسى جـ١٨ ص٢٣٤.
(٣) سورة النحل الآية ١٠٣.

٣- إنه لم يثبت ثبوتا مؤكدا كون هؤلاء الناس الذين ذكر أسماءهم النضر بن الحرث، هم الذين أعانوا سيدنا محمد ﷺ، كما قال بذلك المشركون، يقول الله تعالى فى سورة الرعد:

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾(١)

لقد اختلقوا هذه الأسماء وجاءوا ظلما وزورا.

بل إنهم فى بعض الأحيان يقولون: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾(٢)، ولم يستطيعوا اثبات من هو هذا البشر؟.

٤- إن المكيين المشركين وهم فرسان البلاغة وأمراء البيان لم يستطيعوا الإتيان بسورة كمثل أصغر سورة فى القرآن، فكيف يستطيع ذلك بعض الموالى، والعمال من الدهماء فى مكة؟

٥- إن حياة الرسول ﷺ قبل البعثة- وقد سبق ذكرها تدل دلالة واضحة على كونه ﷺ، كان صادقا أمينا عندهم، ويكفى أنهم لقبوه بالأمين، وكانوا يحكمونه فيما يشجر بينهم من الخلاف، فكيف لهم بعد ذلك أن يتهموه بأن ما جاء به إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون؟:

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾(٣).

٦- إن الذين لقوا رسول الله ﷺ، من أهل الكتاب بعد النبوة كانوا له سائلين، وكان هو المعلم لهم، والشارح والموضح.

وأما الذين لقيهم قبل النبوة مثل بحيرى الراهب فقد وضحنا من قبل موقفنا هذا اللقاء، وبينا كذب الحجج التى ادعيت من المستشرقين بما يتفق مع الرد على المشركين.

٧- إن القرآن الكريم فى كثير من آياته يبين الانحراف الذى وصلت إليه الديانتان: اليهودية والمسيحية، بما يمنع - على وجه اليقين- أن الرسول ﷺ تلقى القرآن من أهل الكتاب نرى ذلك فى قوله تعالى:

---

(١) سورة الرعد الآية ٣٣.
(٢) سورة النحل الآية ١٠٣.
(٣) سورة المؤمنون الآية ٦٩.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[1]

﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾[2]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[3]

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾[4]

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾،

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ﴾

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ﴾[5]

﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾[6]

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[7]

٨- إن الرسول ﷺ ، لو كان هو الذى افترى القرآن و اختلقه- كما يدعى ذلك المشركون- لما ترك المنافقين يدعون كثيرا من الأكاذيب فى حديث الإفك ولاتخذ فى ذلك قرارا سريعا، ليمنع هذه الأقاويل، ومع ذلك مضى عليه شهر بأكمله حتى نزل عليه وحى فى ذلك.

٩- فى بعض الأحيان كان ينزل على سيدنا رسول الله ﷺ، وحى يراجعه فى بعض المواقف التى كان قد سبق إتخاذها وينهاه عن فعلها:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾[8]

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[9]

(١) سورة آل عمران الآية ٦٥. (٢) سورة البقرة الآية ١٤٠. (٣) سورة التوبة الآية ٣٠.
(٤) سورة المائدة الآيات: ١٨، ٧٢، ٧٣. (٥) سورة آل عمران الآية ٦٤. (٦) سورة البقرة الآية ٧٩.
(٧) آل عمران آية ٧١. (٨) سورة التوبة الآية ٤٣. (٩) سورة الأنفال الآية ٦٧ وما بعدها.

فلو كان الرسول ﷺ، هو الذى اختلق القرآن لما عاتب نفسه هذا العتاب، ولما راجع نفسه مرة أخرى.

١٠-إن القرآن كان ينزل على حسب الوقائع ، فهل كان الرسول ﷺ والذين أعانوه- كما يدعى ذلك المشركون- يعلمون هذه الوقائع قبل حدوثها؟

١١- كان الوحى يأتى إلى رسول الله ﷺ، ببعض الأمور التى يصعب فهمها عليه بعض الشىء، فهل لو كان هو الذى اختلق القرآن كان سيأتى ببعض مايصعب فهمه عليه كما حدث من قوله تعالى:

﴿وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾.

وأيضاً كما حدث فى صلح الحديبية:

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز:

«لقد وجدوا أنفسهم مضطرين أن يلتمسوا شخصا يتحقق فيه شرطان: أحدهما: أن يكون من سكان مكة نفسها لتروج عنهم دعوى أنه يلاقيه ويملى عليه بكرة وأصيلا.

وثانيهما: أن يكون من غير جلدتهم وملتهم ليمكن أن يقال: إن عنده علم مالم يعلموا، وقد التمسوا هذه الأوصاف فوجدوها أتدرى أين وجدوها فى حداد رومى.

نعم وجدوا فى مكة غلاما تعرفه الحوانيت والأسواق، ولاتعرفه تلك العلوم فى قليل ولا كثير، غير أنه لم يكن أميا ولا وثينا مثلهم، بل كان نصرانيا يقرأ ويكتب ، فكان من أجل ذلك خليقا فى زعمهم أن يكون أستاذا لمحمد، وبالتالى أستاذ لعلماء اليهود والنصارى، والعالم أجمعين:

«ولئن سألتهم هل كان ذلك الغلام فارغا لدراسة الكتب، وتمحيص أصيلها من دخيلها، ورد متشابهها إلى محكمها، وهل كان مزودا فى عقله ولسانه بوسائل الفهم والتفهيم، لعرفت أنه كان حدادا منهمكا فى مطرقته وسندانه وأنه كان عامى الفؤاد لا يعلم الكتاب إلا أمانى، أعجمى اللسان لاتعدو قراءته أن تكون رطانة لا يعرفها محمد ولا أحد من قومه لكن ذلك كله لم يكن ليحول بينه وبين لقب الأستاذية الذى منحوه إياه على رغم أنف الحاسدين .

هكذا ضاقت بهم دائرة الجد، فما وسعهم الاقضاء الهزل، وهكذا أمعنوا فى هزلهم حتى خرجوا عن وقار العقل، فكان مثلهم كمثل من يقول:

إن العلم يستقى من الجهل وإن الإنسان يتعلم كلامه من الببغاء، وكفى بهذا هزيمة وفضيحة لقائله:

«لسان الذين يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين»

نعم إنهم رأوا فى هذا الأسلوب من حلاوة الفكاهة والملحة ما يسيغ مرارة الزور والباطل، ورأوا فى هذه الصورة الخيالية من التهكم السخرية مايشفى صدورهم، ويجعلهم يتضاحكون بملء أفواههم، ولكنهم مادروا أن فى طى هذه السخرية سخرية بهم، وأنهم قد شهدوا فيها على أنفسهم أنهم أجهل الأمم وأن كل غريب عنهم– ولو كان غلاما سوقيا– أهل لأن يقال عنه أن عنده من العلم ما ليس عندهم.

فياله من منطق كان ألقى فى موضعه خيرا لهم وأستر عليهم، وياله من سلاح أرادوا أن يجرحوا به خصمهم فجرحوا به أنفسهم من حيث لايشعرون.

أما الحق الذى كانوا يخاصمونه، فقد والله زادوه بهذا الاتهام قوة إلى قوته، ذلك أنهم حين خرجوا يتلمسون واحدا من البشر يمكن أن ينسب إليه هذا العلم المحمدى لم يستطيعوا أن يفترضوا له مصدرا تعليميا خارج حدود قريته، بل كان آخر جهد بذلوه من حياتهم، وآخر سهم رموه من كنانتهم، أن جاءوا من بين ظهرانيهم بهذا الغلام الذى عرفت خبره.

فياليت شعرى لو كان لهذا الغلام أن يكون مرجعا علميا كما أردوا أن يصفوه ، فما الذى منعهم أن يأخذوا عنه كما أخذ صاحبهم؟

وبذلك كانوا يستريحون من عنائه ويداوونه من جنس دائه، بل ما منع ذلك الغلام أن يبدى للعالم صفحته فينال فى التاريخ شرف الأستاذية، أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية؟

وياليت شعرى لم لم ينسبوا تلك العلوم الغريبة عنهم إلى أهلها الموسومين بها من الربانيين والأحبار فى المدينة أو من القسيسين والرهبان فى الشام، أولئك الذين قضوا أعمارهم فى دراستها وتعليمها؟ أليس ذلك ممكنا أو شبيها بالممكن؟ كان هو أحسن تلفيقا، وأجود سبكا وأدنى إلى الرواج، وأبعد عن الاحالة من نسبتها إلى حداد مكة.

(١) النبأ العظيم الدكتور محمد عبدالله دراز ص٥٦– ٥٧– ٥٨.

الشبهة الثانية والرد عليها

﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ۝ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾[١]

كانت ثانى الشبهات التى ادعاها المشركون على رسول الله ﷺ، هو قولهم: أن رسول الله ﷺ اكتتبت له قصص من أساطيرهم وحكاياتهم وهى تلقن له فيحفظها من أفواه من يمليها عليه لكونه أميا لايستطيع حفظها من الكتب، وهذه الأساطير تتلى عليه فى الأوقات التى يصلح فيها الاستتار، والتى لاينتشر فيها الناس، أى أنها تملى عليه فى السر والخفاء[٢]، ويرد الله سبحانه وتعالى على ادعائهم هذا فيقول:

قل له ردا عليهم:

أنزله الذى أحاط علمه بكل شىء سواء اخفى منه وما علن ومع ذلك فإنى غفور رحيم، فقد استوجبوا العذاب على قولهم هذا، ولكن الله لايجعل عقوبتهم مع ذلك لأجل أن يعرفوا أن هذه الذنوب التى يقترفوها بقولهم هذا يمكن لله سبحانه وتعالى أن يتجاوزها إن هم تابوا وأصلحوا بعد ذلك[٣]، على أننا فى ردنا على شبهة المشركين بادعائهم أن القرآن، إنما هو أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا، إنما تنطلق من الآفاق التى ذكرها لنا قوله تعالى:

﴿قل أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض﴾.

إن هذه الآية تعبر عن إعجاز القرآن بأن فيه الكفاية، وأى كفاية للرد على هذه الشبهة، ودلت على ذلك بأبلغ أسلوب وأوجزه.

يقول الفخر الرازى فى تفسيرها:

فى بيان أن هذا كيف يصلح أن يكون جوابا عن تلك الشبهة، وتقريره ما قدمنا أنه عليه الصلاة والسلام، تحداهم بالمعارضة، وظهر عجزهم عنها ولو كان عليه الصلاة

---

(١) سورة الفرقان آية: ٦.

(٢) ينظر في ذلك تفسير روح المعانى للإمام الألوسى جـ٨ ص٢٣٦ وتفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٤٩ وكذلك ينظر تفسير محاسن التأويل للقاسمي وتفسير البحر المحيط لأبى حيان.

(٣) ينظر تفسير روح المعانى للإمام الألوسى وتفسير الفخر الرازى والقاسمى البحر المحيط تفسير سورة الفرقان.

والسلام أتى بالقرآن، بأن استعان بأحد لكان من الواجب عليهم ، **أيضا أن يستعينوا** بأحد فيأتوا بمثل هذا القرآن، فلما عجزوا عنه ثبت أنه وحى الله وكلامه، **فلهذا قال:**

﴿قل أنزله الذى يعلم السر﴾.

وذلك لأن القادر على تركيب ألفاظ القرآن لابد وأن **يكون عالما بكل المعلومات،** ظاهرها وخافيها من وجوه:

أحدها: أن مثل هذه الفصاحة لايتأتى إلا من العالم **بكل المعلومات.**

ثانيها: أن القرآن مشتمل على الأخبار عن الغيوب، **وذلك لايتأتى إلا من العالم** بكل المعلومات.

وثالثها: أن القرآن مبرأ عن النقص، وذلك **لايتأتى إلا من العالم على ما قال** تعالى:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(١)

ورابعها: اشتماله على الأحكام، التى هى **مقتضية لمصالح العالم، ونظام العباد،** وذلك لا يكون إلا من العالم بكل المعلومات.

وخامسها: اشتماله على أنواع العلوم، وذلك لا **يتأتى إلا من العالم بكل المعلومات،** فلما دل القرآن – من هذه الوجوه– على أنه ليس **إلا كلام العالم بكل المعلومات، لاجرم** اكتفى فى جواب شبههم بقوله:

﴿قل أنزله الذى يعلم السر﴾.

والبحث الثانى: اختلفوا فى المراد بالسر.

فمنهم من قال: المعنى أن العالم بكل سر فى السموات **والأرض، هو الذى يمكنه** إنزال مثل هذا الكتاب.

وقال أبو مسلم: المعنى أنه أنزله من يعلم السر، **فلو كذب عليه لانتقم منه لقوله** تعالى:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾(٢)

وإذا كانت الآية قد عبرت عن ذلك بأبلغ رد وأوجزه **فإننا انطلاقا منها نهدأ فى الرد** على الشبهة عن طريق بيان بعض أوجه إعجاز **القرآن التى سنذكرها كافية للرد على** هذه الشبهة وبيان تفاهتها.

---

(١) سورة النساء آية ٨٢.

(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٥٠، والآية رقم ٤٤، ٤٥ من سورة الحاقة.

إعجاز القرآن

عندما نتحدث عن إعجاز القرآن، إنما نتحدث عنه من وجهة نظر سورة الفرقان التى نفت عن سيدنا محمد ﷺ أن ما جاء به هو إفك افتراه، وأعانه عليه قوم، وقولهم إنه أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا.

نفت السورة الكريمة هذا القول عن سيدنا رسول الله ﷺ، بأنه كيف- مع هذا الاعجاز الماثل أمامكم للقرآن الكريم- تتهمون الرسول ﷺ بهذا البهتان العظيم، وهذا اللجج الفارغ.

والواقع أننا إذا قسمنا ما استطعنا الوصول إليه من بعض مظاهر إعجاز القرآن الكريم، فإننا نجده يشتمل:

أولا: الإعجاز البيانى واللغوى، حيث إن العرب هم أكثر الناس تفهما لمعنى هذا الإعجاز، بإعتبارهم كانوا من أبلغ الناس، وأحسنهم فهما للغة العربية، ومدى ما يراد بها.

ثانيا: الإعجاز فى أمور الغيب التى أخبر بها القرآن الكريم سواء الماضية أم المستقبلة، ويضم إلى هذاالقسم: اشتماله على العلوم الكونية، مثل الفلك وغيره من العلوم، التى لم يكن عصر الرسول ﷺ قد وصل إلى حقائقهاالنهائية، وكذلك اشتماله على تشريع، سواء فى العقائد، أو الأخلاق أو الفقة، ثبت أنها وحدها هى التى تؤدى إلى سعادة الإنسان على مر العصور.

هذا ما يمكن تقسيمه من مظاهر الإعجاز القرآنى، على أن أهم مظهر من المظاهر هو مظهر الإعجاز البيانى للقرآن، حيث إن العرب الأول لم يهتموا - أول اهتمامهم- بالقرآن، ولم يشعروا، ألا سبيل لهم إلى تحديه إلا عن طريق الإعجاز البيانى له، بل إن بعض الكتاب- كالأستاذ محمود شاكر فى مقدمته لكتاب الظاهرة القرآنية للأستاذ مالك بن نبى - يرجح أن الإعجاز اللغوى للقرآن، هو المظهر الوحيد للإعجاز، صحيح أنه معجز فى معانيه، إلا أن المظهر الوحيد للقرآن الذى يطلق عليه إعجاز، هو اللغوى والبيانى.

على أننا إذ يصعب علينا تعداد كافة وجوه الإعجاز البيانى للقرآن الكريم واستقرائها فإننا نعد منها.

الإعجاز البيانى للقرآن
فصاحة الألفاظ القرآنية

الواقع أننا إذا تكلمنا عن فصاحة الألفاظ القرآنية فكأننا نخوض بحرا لا ساحل له، فإن كل كلمة فى القرآن بل وكل حرف نجده يتسق مع المعنى اتساقا تاماً فلا تجد كلمة غير موافقة للمعنى الذى وضعت له، بل هى منطبقة عليه تمام الانطباق، ولن تجد كلمة تزيد فى الآية التى جاءت لمعنى معين تزيد فى هذه الآية عن المعنى العام، بل كل كلمة فى الآية متناسقة مع بقية الكلمات لاتشذ عنها فى أى زيادة.

بل إن بعض الألفاظ التى قد نظن بها تكرار بعض الشيء، عندما نتأمل فيها بعض التأمل، نجد أنها تختلف عن اللفظة التى قد تتبادر إلى الذهن أول الأمر، أنها تكرار لها بما يقرب المعنى، أو يوضح الهدف كما نرى ذلك فى (لفظى الحمد والشكر)، فإن الحمد يكون بالقول، أما الشكر فإنه يكون بالقول، وبالفعل.

والحمد ضده الذم، والشكر ضده الكفران.

والحمد يكون بمعنى الثناء، والشكر فى المكافأة يقول الله تعالى:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾[1]، ولم يقل حمدا للدلالة على العمل[2]

ولعل فى التفاسير التى تخرج علينا من حين لآخر من العلماء الأجلاء لأبلغ دليل على قوة الفصاحة فى القرآن الكريم، فإنهم لم يحيطوا بكثير من دلالة فصاحته حتى الآن.

وقد عرض ابن أبى الإصبع المصرى فى كتابه بديع القرآن لكثير من أوجه الفصاحة فى القرآن الكريم يقول:

«باب الفرائد: وهو مختص بالفصاحة دون البلاغة، لأنه عبارة عن إتيان المتكلم فى كلامه بلفظة تتنزل «منزلة الفريدة من حب العقد وهى الجوهرة التى لا نظير لها، تدل على عظم فصاحته، وقوة عارضته وجزالة منطقه، وإصالة عربيته، بحيث تكون هذه اللفظة، إذا سقطت من الكلام عزت على الفصحاء غرابتها، فقد جاء من ذلك فى

(١) سورة سبأ آية: ١٣.
(٢) ينظر فى هذا رسالة الخطابى فى كتاب ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن تحقيق الأستاذ محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام.

الكتاب العزيز غرائب لايقع مثلها لمخلوق، وهى من الكثرة فى القرآن بحيث يعسر حصرها ومنها قوله تعالى:

﴿الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾(١)

وقوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾(٢)

وأفصحها قوله سبحانه: ﴿خلصوا نجيا﴾

وقل بأن تجتمع الفصاحة والبلاغة فى جملة من هذا الباب إلا فى هذه الجملة، فإن هاتين اللفظتين تضمنتا مع الفصاحة الإيجاز، وهو أعلى ضروب البلاغة.

ولقد رأيت بعض الشعراء المحدثين ضمنها شعرا له فأتى له من الوقع فى النفوس، مالا تطيق الألسن الفصيحة أن تعبر عنه، وإن كان كل شعر ضمن شيئا من لفظ القرآن، فهو كذلك، ولا مثل الشعر الذى يتضمن أفصح ألفاظه فقال هذا الشاعر:

أجبرتنا بالفور كيف خلصتم *** نجيا وأخفيتم حديثكم عنى

لقد سمعت أذنانى نجوى فراقكم *** فلا أبصرت عيناى ما سمعت أذنى

فتأمل هذا الشعر الذى يجد اللبيب لسماعه نشوة كنشوة الخمر، وماذاك إلا لأنه ألقى على شبه ألفاظه اكسيرا من لفظة القرآن، فصار ذلك الشبه تبرا خالصاً، ومزج باطله بحقه.

فتجلى عن الصدق وللصدق رونق، ومن هذا الباب فى الكتاب العزيز قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾(٣)، فانظر إلى لفظ «فزع» وتأمل غرابة فصاحتها لتعلم أن الفكر لايكاد يقع عليها.

وكقوله : تبارك وتعالى:

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾(٤)

فألمح هذه الألفاظ تجدها كلها فى الطبقة العليا من الفصاحة: وكقوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾(٥)

وهذه الفريدة أعجب من كل ماتقدم فلفظة «خائنة» بمفردها سهلة مستعملة كثيرة الجريان على الألسن، فلما أضيفت إلى الأعين حصل لها من غرابة التركيب ما جعل لها فى النفوس هذا الوقع، بحيث لايستطاع الإتيان بمثلها، ولايكاد يقع ذو فكر سليم، وذهن مستقيم، على شبهها وأشباه ذلك فى الكتاب العزيز لاتدخل تحت الحصر(٦).

---

(١) سورة يوسف من الآية: ٥١. (٢) سورة يوسف من الآية : ٨٠. (٣) سورة سبأ من الآية : ٣٤.
(٤) سورة الصافات من الآية: ١٧٧. (٥) سورة غافر الآية : ١٩. (٦) بديع القرآن لابن أبى الأصبع المصرى.

الإعجاز القرآنى فى الأسلوب

يعتبر الأسلوب وجها آخر من أوجه الإعجاز القرآنى، صحيح أن القرآن بفصاحة ألفاظه يبلغ الإعجاز من الناحية اللفظية، إلا أن الأسلوب أيضا ومجرى الكلام يبلغان فى القرآن نفس الدرجة من الإعجاز، بل نستطيع أن نقول أيضا: إنهما يكملان بعضهما البعض، فإن روعة الألفاظ وجمالها دون أسلوب يتكامل معها قد لايكون لهما دلالة واضحة، على أننا لانجد فى القرآن هذا التناقض ، وهذا سر الإعجاز من ناحية الأسلوب الذى يدل دلالة واضحة على كون القرآن من لدن الله سبحانه وتعالى، فإن كلام البشرقد يضطرب فى مجاريه، ويختل فى معانيه ويتفاوت فى طرقه، وهذا لايوجد فى القرآن.

ويقول الإمام الباقلانى:

ونظم القرآن فى مؤتلفه ومختلفه، وفى فصله ووصله وافتتاحه واختتامه، وفى كل نهج يسلكه، وطريق يأخذ فيه، وباب يتهجم عليه، ووجه يؤمه على ما وصفه الله تعالى به، ولايتفاوت.

كما قال الله تعالى:

﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾[1]

ولايخرج عن تشابهه وتماثله، كما قال الله عز وجل:

﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾[2]

وكما قال الله سبحانه وتعالى:

﴿كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾[3].

ولايخرج عن إبانته كما قال عز وجل:

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[4]

---

(١) سورة النساء من الآية ٨٢.
(٢) سورة الزمر من الآية: ٢٨.
(٣) سورة الزمر من الآية: ٢٣.
(٤) إعجاز القرآن للباقلانى ص٢٠٥، ٢٠٦ ، والآية رقم ١٩٥ من سورة الشعراء.

واعلم أن هذا علم شريف المحل، عظيم المكان، قليل الطلاب، ضعيف الأصحاب، ليست له عشيرة تحميه ولا أهل بيت، عصمة تقطن لما فيه، وهو أدق من السحر، وأهول من البحر، وكيف لايكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح فى موضع الفجر يحسن فى كل كلام، ألا أن يكون شعراً أو سجعاً.

وليس كذلك فإن إحدى اللفظتين قد تنفر فى موضع ، وتزل عن مكان لاتزل فيه اللفظة الأخرى، بل تتمكن فيه، وتضرب بجرانها وتراها فى مظانها، وتجدها فى غير منازعة فى أوطانها، وتجد الأخرى لو وضعت فى موضعها لكانت فى محل نفار ومرمى شرار ونابية عن استقرار[١] .

وقد عرض لنا ابن أبى الإصبع المصرى نموذجا من الإعجاز فى الأسلوب القرآنى، يظهر لنا مدى تفوق الأسلوب القرآنى على أسلوب البشر، وعدم قدرتهم على الاتيان بمايشابهه، يقول:

«وما رأيت ولارويت فى الكلام المنثور، والشعر الموزون كآية من كتاب الله تعالى، استخرجت منها أحدا وعشرين ضربا من البديع، وعددها سبع عشرة لفظة، وهى قوله تعالى:

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢] .

وتفصيل ماجاء فيها من البديع: المناسبة التامة فى : ابلعى، واقعلى، والمطابقة اللفظية للسماء والأرض، والاستعارة فى قوله ابلعى واقلعى، للأرض والسماء، والمجاز فى قوله:

«ياسماء»، فإن الحقيقة ويا مطر السماء أقلعى، والإشارة فى قوله «وغيض الماء» فإنه سبحانه وتعالى عبر بهاتين اللفظتين عن معان كثيرة، لأن الماء لايغيض حتى يقلع مطر السماء، وتبلع الأرض ما يخرج من عين الماء، فينفض الحاصل على وجه الأرض من الماء والإرداف فى قوله:

(١) إعجاز القرآن لباقلانى ص٢٨٠ .
(٢) سورة هود آية: ٤٤ .

«واستوت على الجودى»، فإنه عبر عن استقرار لسفينة على هذا المكان وجلوسها جلوسا متمكنا لازيغ فيه ولاميل، لطمأنينة أهل السفينة بلفظ قريب من لفظ الحقيقة، والتمثيل فى قوله: «وقضى الأمر» فإنه عبربذلك عن هلاك الهالكين، ونجاة الناجين، بلفظ فيه بعد ما من لفظ الحقيقة بالنسبة إلى لفظ الإرداف، والتعليل، لأن غيض الماء علة الاستواء وصحة التقسيم، حين استوعب سبحانه أقسام أحوال الماء حالة نقصه، إذ ليس إلا احتباس ماء السماء، واحتقان الماء الذى ينبع من الأرض، وغيض الماء الحاصل على ظهر الأرض، والاحتراس فى قوله:

«وقيل بعدا للقوم الظالمين» محترسا من توهم من يتوهم أن الهلاك ربما عم من لايستحق الهلاك، فجاء سبحانه بالدعاء على الهالكين، ليعلم أنهم مستحقوا الهلاك، فإن عدله منع أن يدعو على غير مستحق للدعاء عليه، ولانفصال فإن لقائل أن يقول: أن لفظة القوم مستغنى عنها، فانه لو قيل: «وقيل بعدا للظالمين» أتم الكلام قبل الآية.

قوله تعالى:

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾(1).

وقال سبحانه قبل ذلك مخاطبا لنوح عليه السلام:

﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(2)

فاقتضت البلاغة أن يؤتى بلفظة القوم التى آلة التعريف فيها للعهد، ليتبين أنهم القوم الذين تقدم ذكرهم، فى قوله تعالى:

﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ﴾

ووصفهم بالظلم وأخبر بسابق كعلمه أنهم هالكون بقوله: «ولاتخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون».

فحصل الانفصال عن الإشكال، وعلم أن لفظة القوم ليست فضلة فى الكلام.

والمساواة: لأن لفظ الآية لايزيد على معناه لا ينقص عنه، وحسن النسق فى عطف القضايا بعضها على بعض بأحسن ترتيب حسبما وقعت أولا بأول، فإنه سبحانه أمر

(1) سورة هود من الآية: ٣٨.
(2) سورة هود من الآية: ٢٧.

الأرض بالابتلاع، ثم عطف على ذلك أمر السماء بالاقلاع، ثم عطف غيض الماء على ذلك، ثم عطف على ذلك قضاء الأمر بهلاك الهالكين، ونجاة الناجين، ثم عطف على ذلك استواء السفينة على الودى، ثم عطف على ذلك الدعاء على الهالكين فجاء عطف هذه الجمل على ترتيب وقوعها فى الوجود، وائتلاف اللفظ مع المعنى لكن كل لفظة لايصلح فى موضعها غيرها.

والإيجاز لأنه سبحانه اقتص القصة بلفظها مستوعبة بحيث لم يخل منها بشيء فى أخصر عبارة، بألفاظ غير مطلولة والتسهيم، لأن من أول الآية إلى قوله تعالى: ﴿اقلعى﴾ يقتضى آخرها.

والتذهيب: لأن مفردات الألفاظ موصوفة بصفات الحسن، كل لفظة سهلة مخارج الحروف عليها رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة، والتركيب سليم من التعقيد وأسبابه.

وحسن البيان من جهة أن السامع لايتوقف فى فهم معنى الكلام، ولا يشكل عليه شيء منه، والتمكين لأن المفاصلة مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى مكانها غير قلقة ولامستدعاة والانسجام وهو تحدر الكلام بسهولة وعذوبة سبك مع جزالة لفظ كما ينسجم الماء مع القليل من الهواء، وما فى مجمع ألفاظ الآية من الإبداع، وهو الذى سمى به هذا الباب، إذ فى كل لفظة بديع وبديعان، لأنها ما تقدم سبع عشرة لفظة، وتضمنت أحدا وعشرين ضربا من البلاغة، سوى مايتعدد من ضروبها، فان الاستعارة وقعت فى موضعين:

«وهما الإبتلاع والإقلاع»

فانظر رحمك الله إلى عظمة هذا الكلام، وما انطوى عليه نظمه، وما تضمنه لفظه لتقدره قدره، وهذا ما ظهر لى منه على ضعف نظرى، وقلة مادتى من العلوم، وكلال ذهنى، والله أعلم[1].

والواقع أننا بذكرنا هذين الوجهين البيانيين من أوجه الإعجاز البيانى للقرآن، نكون قد وصلنا إلى نوعين من الثلاثة أنواع التى يقوم بها الكلام، كما قال الخطابى، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة.

(١) بديع القرآن لابن الإصبع المصرى ص٣٤.

لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم[١]

فإننا ذكرنا بعض نماذج من الإعجاز فى الألفاظ وفى الأسلوب ويبقى المعنى الذى هو به قائم، والواقع أن الكلام على إعجازالقرآن البيانى طويل ولم نحظ بحديثنا عنه لا بقطرة من بحر، وفى ختام هذا الحديث لايسعنا إلا أن نذكر قول الخطابى:

«وإنما تعذر على البشر الاتيان بمثله لأمور:

منها أن علمهم لايحيط بجميع أسماء اللغة العربية، وبألفاظها التى هى ظروف المعانى والحوامل، ولاتدرك أفهامهم جميع معانى الأشياء المحمولة فى ذلك، ولاتكمل معرفتهم لاستيفاء جميع وجوه النظوم التى بها يكون ائتلافها وارتباط بعضها ببعض، فيتوصلوا باختيار الأفضل من الأحسن من وجوهها، إلى أن يأتوا بكلام مثله، وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء الثلاثة: لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لهما ناظم.

وإذاتأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه فى غاية الشرف والفضيلة، حتى لاترى شيئا من الألفاظ أفصح، ولا أجزل، ولا أعذب، من ألفاظه، ولاترى نظما أحسن تأليفا، وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه.

وأما المعانى فلا خفاء على ذى عقل أنها هى التى تشهد لها العقول بالتقدم فى أبوابها والترقى إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها.

وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق فى أنواع الكلام. فأما أن توجد مجموعة فى نوع واحد منه فلم توجد إلا فى كلام العليم القدير الذى أحاط بكل شىء علما، وأحصى كل شىء عددا[٢].

وإذا كنا قد تكلمنا عن الألفاظ والأسلوب فيما قبل فإن موضوعنا الآتى هو عن القسم الثانى من إعجاز القرآن وهو المعانى.

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص٢٤.
(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابى ص٢٤.

تحقيق القول بالصرفة

بعد أن ذكرنا مثالا لإعجاز القرآن البيانى من ناحية الكلمات ومن ناحية الأسلوب فإننا لايسعنا أن نترك هذا الوجه من الإعجاز دون التعرض لشبهة قد تثير بعض الشكوك حول إعجاز القرآن البيانى مما يدعونا للتعرض لها ألا وهى شبهة القول بالصرفة، ويدعى هذا الرأى الذى حمل لواءه أبو اسحاق إبراهيم بن يسار النظام، أحد رؤوس المعتزلة، وإليه تنسب الفرقة النظامية، والفقيه ابن حزم الأندلسى وأبى الحسن على ابن عيسى ابن على بن عبدالله، الرمانى، النحوى، المتكلم، أحد الأئمة المشهورين، والجامعين بين علمى الكلام والعربية.

والذى نصل إليه من خلال رأيهم، أن الله سبحانه وتعالى صرف العرب عن معارضة القرآن وسلب عقولهم، وكان مقدورا لهم ، ولكن عاقهم أمر خارجى، فصار كسائر المعجزات.

ونفهم من قولهم هذا أن إعجاز القرآن عندهم، أنه صحيح أن القرآن الكريم قد بلغ الدرجة العليا من الفصاحة ومن البلاغة، ومع ذلك فإن العرب كانوا يستطيعون الوصول إلى هذه الدرجة، ولكن الله سبحانه وتعالى، سلبهم الأدوات التى يستطيعون بها ذلك، فإعجاز القرآن عند هؤلاء عملية سلب الأدوات التى بها يستطيع العرب معارضته[1].

وتبطل عندنا وتتهافت شبهة القول بالصرفة لأسباب متعددة تظهر بوضوح فيما يأتى:

١ - إن القرآن يتحدى فى أكثر من مكان منه، على أن يأتى أحد بمثل ما أتى، ويقول الله سبحانه وتعالى:

---

(١) ينظر فى ذلك (ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن؛ تحقيق الدكتور محمد خلف الله أحمد، وينظر كذلك البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق أبو الفضل إبراهيم، والمعجزة الكبرى، القرآن العظيم للشيخ محمد أبو زهرة، واعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق دكتور حفنى شرف.

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[١]

يقول الإمام الزركشى فى دلالة هذه الآية:

فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ولو سئلوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم، لمنزلته منزلة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى بكبير يحتفل يذكره هذا، مع أن الاجماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن، فكيف يكون المعجز غيره، ليس فيه صفة إعجاز، بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم عن الاتيان بمثله[٢].

ويمكننا أن نضيف إلى هذه الآية الآيات التالية، التى توضح لنا بالإضافة إلى ما سبق مقدار قيمة القرآن الكريم، عند الله سبحانه وتعالى وأنه لا يجوز وضع القرآن الكريم موضع الكلام العادى الذى يتأتى معارضته لولا صرف الله سبحانه وتعالى الناس عن ذلك، فإن الوضع الصحيح للقرآن الكريم كما تبينه لنا الآيات التالية، هو أنه معجز فى ذاته، ولا يستطيع أحد معارضته لعجز البشر عن بلوغ هذا السمو فى التعبير وفى المعانى،

يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾[٣]

يقول تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٤]

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٥]

---

(١) سورة الإسراء الآية: ٨٨.
(٢) البرهان فى علوم القرآن جـ٢ ص٩٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
(٣) سورة الرعد الآية: ٣١.
(٤) سورة الزمر الآية: ٣٢.
(٥) سورة الإسراء الآية: ٨٨.

٢- يقول القاضى أبو بكر الباقلانى:

«ومما يبطل القول بالصرفة، أنه لو كانت المعارضة ممكنة، وإنما منع منها الصرفة لم يكن الكلام معجزا وإنما يكون المنع معجزاً، فلا يتضمن الكلام فضلاً على غيره فى نفسه.

وليس هذا بأعجب مما ذهب إليه فريق منهم، أن الكل قادرون على الاتيان بمثله، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجه ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه، ولا بأعجب من قول فريق منهم:

أنه لا فرق بين كلام البشر وكلام الله فى هذا الباب، وإنما يصح من كل واحد منهما الإعجاز على حد واحد[1]

٣- أن المأثور عن العرب من شعر أو نثر لا يكاد يقارب القرآن على الاطلاق، فإذ جاز لنا القول بالصرفة، فكيف يجوز لنا تشبيه ما لايماثل القرآن بالقرآن.

ولو كان العرب يستطيعون ذلك لفعلوا وهم لهم أصولهم اللغوية الكامنة فيهم، ولهم باع طويل فى ممارسة الشعروقول النثر.

يقول أبو بكر الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن:

«لو كانوا صرفوا على ما أدعاه لم يكن من قبلهم من أهل الجاهلية مصروفين عما كان يعدل به فى الفصاحة والبلاغة، وحسن النظم، وعجيب التأليف، لأنهم لم يتحدوا به ولم تلزمهم حجته، فإذ لم يوجد فى كلام قبله مثله علم أن ما إدعاه القائل بالصرفة ظاهر البطلان[2]».

٤- أن القول بالصرفة: لا يختلف عن قول الله سبحانه وتعالى فى شأن الوليد بن المغيرة.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ

---

(١) ينظر فى ذلك إعجاز القرآن لأبى بكر الباقلانى ص٤٣ وص٤٤ وكتاب الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى.

(٢) اعجاز القرآن للقاضى أبو بكر الباقلانى.

﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾[١]

فإن القول بالصرفة يدل على الإعجاز بشئ غير الشيئ المراد إعجازه، وكذلك الأمر فى السحر، فهو يقيدهم عن الإتيان بمثله.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى كتابه الممتاز إعجاز القرآن:

وعلى الجملة، فإن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب، إن هذا إلا سحر يؤثر، وهذا زعم رده الله تعالى على أهله، وأكذبهم فيه، وجعل القول فيه ضربا من العمى، ﴿أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لا تُبْصِرُونَ﴾[٢]

وفى تقديرنا أن أول ظهور القول بالصرفة كان فى العصر العباسى على يد النظام، نتيجة للمؤثرات الأجنبية، التى جاءت من ترجمة الكتب الأجنبية، والاهتمام بدراستها وتدريسها، مما أدى إلى ظهور هذه العقيدة التى تقارب العقيدة الهندية فى نظرتها، إلى كتبها المقدسة ، فإن فكرة القول بالصرفة هى أبعد ما تكون عن الجو الإسلامى، فان المعتمد عد جمهرة علماء المسلمين منذ عهد رسول الله ﷺ، حتى ذلك العصر هو القول بالاعجاز الذاتى للقرآن، فظهور فكرة القول بالصرفة، هذا الظهور المفاجئ يدلنا دلالة واضحة على اعتمادها على مؤثرات أجنبية هى فى تقديرنا تقارب نظرة الهنود إلى كتبه المقدسة، ونشارك فى ذلك الرأى الشيخ محمد أبو زهرة حيث يقول:

«عرف العرب أنهم عجزوا عن أن يأتوا بمثل القرآن، وعللوا عجزهم بما استرعاهم ما فيه من حلاوة اللفظ، وطلاوة المعنى، والتركيب وعمق ما اشتمل عليه حتى أنه مغدق فى جذوره كلما تكشف القارئ عن عمقه رأى ما لا يصل إليه البشر، وكلما اتجه إلى أعلاه وجد ثمرا شهيا، هذا أمر ظاهر، ولكن الفلسفة التى تسيطر على عقول بعض الناس، ولا تكون فيها ثمرة ناضجة، قد يتجهون بها إلى كل ما يرونه بديئا فى التفكير، سواء أكان متصلا بالحق المجرد، أم لم يكن متصلا، وسواء أكان متفقا مع الإيمان والواقع،أم لم يكن بل إن المتفلسفين ربما اتجهوا إلى الفكرة لا لأصالتها ولكن لغرابتها،

---

(١) سورة المدثر الآيات: ١١ – ٢٥.

(٢) سورة الطور الآية: ١٥.

ولا لأنها لابد منها لتحقيق الحق وابطال الباطل ولكن للترف العقلى لا يفرقون بين أمر يتصل بالإيمان وأمر لا صلة له بالإيمان ،

وإن بعض المتفلسفين من علماء المسلمين اطلعوا على أقوال البراهمة فى كتابهم (الفيدا) وهو الذى يشتمل على مجموعة الأشعار ليس فى كلام الناس ما يماثلها فى زعمهم، ويقول جمهور علمائهم:

إن البشر يعجزون عن أن يأتوا بمثلها لأن براهما صرفهم عن أن يأتوا بمثلها.

يقول فى ذلك أبو الريحان البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ما نصه[1]:

إن خاصتهم يقولون: إن فى مقدورهم أن يأتوا بأمثالها ولكنهم ممنوعون من ذلك احتراما لها،

ولم يبين البيرونى وجه المنع، أهو منع تكليفى يسبقه الإيمان بهذه الكتب، وتكون دلائل وجوب الإيمان من نواح أخرى، أم هو منع تكوينى بمعنى أن براهما صرفهم بمقتضى التكوين عن أن يأتوا بمثلها، والأخير هو الظاهر، لأنه هو الذى يتفق مع قول جمهور علمائهم، وما اشتهروا من أن القول بالصرفة نبع فى واديهم، وعند ما دخلت الأفكار الهندية فى عهد أبى جعفر المنصور، ومن والاه من حكام بنى العباس، تلقفه الذين يحبون كل واحد من ا لأفكار، ويركنون إلى الاستغراب فى أقوالهم فدفعتهم الفلسفة إلى أن يعتنقوا ذلك القول ويطبقوه على القرآن، وإن كان لا ينطبق؛ فقال قائلهم:

إن العرب اذا عجزوا عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن ما كان عجزهم لامر ذاتى من ألفاظه ومعانيه ونسجه ونظمه بل كان لأن الله تعالى صرفهم عن أن يأتوا بمثله.

---

(١) المعجزة الكبرى القرآن للشيخ محمد أبو زهرة ص٧٩، وينظر فى ذلك تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة لابى الريحان البيرونى.

الإعجاز التشريعي والأخلاقي للقران الكريم

يحاول كثير من الناس والمفكرين دائما، ابراز فكرة انتماء الإسلام إلى أحد المذاهب الاقتصادية، والاجتماعية التى وجدت فيما قبل أو التى فى عصرنا الراهن، بل يصل بهم الأمر إلى حد الاختلاف والتناحر فيما بينهم كل منهم يحاول إثبات وجهة نظره بشتى الطرق والوسائل، وعن طريق بعض الجزئيات التى قد تبدوا من الوهلة الأولى موهمة للتشابه بين الإسلام وأحد هذه المذاهب.

فالبعض: يتكلم عن الديموقراطية فى الإسلام،

والبعض الآخر عن الدكتاتورية فى الإسلام، وآخرين يتحدثون عن الرأسمالية، أو الشيوعية، أو المثالية، أو الواقعية فى الإسلام، ومع ذلك كل يجد الرد الذى يرد به على الآخر، ويجد الأدلة التى تعضد رأيه،

والسبب الذى وصل بهم إلى هذا، أنهم لم ينظروا إلى الإسلام ككل متكامل بل نظروا إليه عن طريق بعض الجزئيات، التى توهم تعضيد رأيهم.

والذى نراه فى ذلك: أن الإسلام يختلف عن كل هذه المذاهب التى يحاولون التقريب بينهما وبين الإسلام، وبعضهم قد حسن النية فى ذلك لالباس الإسلام ثوب العصرية فيؤثرون بذلك على الشباب الذى يترك دينه وينحرف عنه، لأنهم يرونه متخلفا، ولا يصح الاقتداء به فى هذا العصر.

والبعض الآخر قد تكون وجهته خبيثة، والمقصود بها طغيان هذه المذاهب على الإسلام، مقربين بينها أول الأمر لمجرد الظهور بنية طيبة، حتى تأخذ الثقة به محلها فى أول الأمر، ثم يبتدع فى ذلك ما شاء له شيطانه من الابتداع.

إن الإسلام يختلف عن أى مذهب من المذاهب التى وجدت والتى ستوجد فى أى عصر،

إن الإسلام هو الإسلام، لم يجئ لحماية الفرد فقط، ولم يأت لحماية الجماعة فقط، بل جاء للإثنين معا،

إن الإسلام ليس ابتداع فرد معين حتى نقرب بينه وبين عقول البشر سواء كان ذلك بنية طيبة، أم بنية خبيثة، إنه إنما جاء عن طريق الوحى الإلهى المعصوم، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا ينافى ذلك كون الإسلام متطوراً، ولكنه

تطور يهيمن فيه الإسلام على الزمان وعلى المكان، فالتطور هنا يكون بالنسبة للزمان والمكان، ثم يهيمن الإسلام على هذا الزمان وهذا المكان.

إن القرآن الكريم نزل لجميع العصورلا يوجود فيه أى تخلف عنها بل فى كل عصر ثبتت صلاحيته التامة الحياة بأكملها، سواء للفرد أو الجماعة وإذا كان لنا أن نأخذ مثالا على النظرة الخاصة للقرآن التى انفرد بها عن غيره، وثبت بها عدم انتمائه إلى أى نظام وجد على ظهر الأرض قبله، فاننا نجد المثال التالى.

أنه لايوجد أى نظام تشريعى فى العالم مزج بين المعاملات التشريعية والناحية الأخلاقية، كما فعل ذلك القرآن.

اننا نجد فى كل آية تتعرض للنواحى التشريعية مزج كامل مع الأخلاق فى أروع معانيه، بل إن الحكمة نفسها التى تترائى لنا من التشريع القرآنى تكون عادة حكمة أخلاقية.

نرى ذلك فى قوله تعالى بالنسبة للعدل:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[2]

نرى فى هذه الآيات مزجا كاملاً بين العدل تشريعاً والأخلاق كمبادئ يؤخذ بها فى التشريع، نرى ذلك فى اقتران العدل بالإحسان فى الآية الأولى، واقتران العدل بالتقوى فى الآية الثانية، واقتران عدم اتباع الهوى بالعدل فى الآية الثالثة.

وعلى هذا المنهج يسير الإعجاز التشريعى والأخلاقى للقرآن الكريم، ويوضح لنا ذلك قول الدكتور عبدالحليم محمود فى كتابه التوحيد الخالص أو الإسلام والعقل، يقول:

---

(١) سورة المائدة الآية: ٨. (٢) سورة النساء الآية: ١٣٥.

نريد أن نتحدث عن الإسلام وتكفينا كلمة «الإسلام» تكفينى هذه الكلمة للدلالة على أن هذا الدين صحيح منزل من عند الله.

إن معنى الإسلام، الاستسلام لله فى كل مظهر من المظاهر وفى كل حركة من الحركات، وفى كل أمر من الأمور، ويصور المعنى لهذا التعبير الرائع الآية القرآنية الكريمة فى :

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]

إن هذا التصوير للإسلام فى هذه الآية الكريمة رائع حقاً، استسلام لله، أى دخول فى النطاق الإلهى، ابتعاد عن الهوى والشيطان،

إن اسلام الوجه لله، فرق كبير بين هذا وبين الخروج عن النطاق الإلهى بالشيوعية، أو بالوجودية.

وفيما يتعلق بالإسلام هناك النظم المعصومة، هناك الأخلاق المعصومة والتشريع المعصوم.

هناك إذن العصمة الكاملة، ولكن الاستسلام لله يقتضى شيئا آخر، هو الجهاد والكفاح المستمر من أجل الحق والخير، وإعلاء كلمة الله، فإذا لم يكن هناك جهاد من أجل الإسلام فلا اسلام، ومن لم يجاهد من أجل اسلامه فليس بمسلم.

فهناك إذن الجهاد، وهناك الاتجاه إلى جعل الإنسان ربانيا أو إلهيا[2]

ونستطيع أن نختتم هذا الإعجاز فى التشريع بمقارنة يسيرة بين تشريع الإسلام وسائر النظم التشريعية فى الأخلاق، والاجتماع، والاقتصاد، والسياسة، إذ أن هذه النظم المختلفة تعالج موضوعات جزئية منفصلة بعضها عن بعض:

١- كل موضوع عالجه قوم وصفوا بأنهم علماء فى هذا الفن وعباقرة قضوا فى دراسته أعمارهم وخرجوا إلينا بالنظرية الواحدة بعد التطواف الطويل.

٢- جاءت هذه النظريات قاصرة عند التطبيق على بيئات محدودة وأوساط معينة، وتناولها التعديل فى حياة صاحبها وبعد وفاته حتى إن كان تطبيقها على بيئات محدودة ولكنها جميعا أثبتت عجزها عن القيام بمصالح المجتمع عامة.

---

(١) سورة الأنعام الآيات: ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) التوحيد الخالص أو الإسلام والعقل للدكتور عبد الحليم محمود ص٢٤٨، ص٢٤٩.

٣- لاتجد رباطا وثيقا بين التشريعات المختلفة يؤلف منها وحدة تنتج سعادة الفرد أو الجماعة، أو تكون الفرد الصالح، أما فى تشريع الإسلام الذى جاءنا به سيدنا رسول الله ﷺ فنجد فيه النظام الكامل الشامل الذى يؤلف بين الاجتماع، والأخلاق، والسياسة، والاقتصاد، ويصلح على نظام المجتمع كله فى كل زمان ومكان وتستقيم به الحياة الفاضلة إلى أن يجد فيها الفرد والمجتمع كله سعادته الدنيوية والآخروية، ويحقق السعادة البشرية فى أعلى صورها، ومع ذلك فقد جاءنا على يد فرد عاش فى قلب الصحراء، لم يدرس طبائع الكون، ولانظم العمران، ولاعلوم الاقتصاد أو النفس أو الطبيعة أو البيئة أو عالج مشاكلها جميعا بأسلوب واقعى عملى ونظام محدد فيه يسر، مراعاة لطباع الناس جميعا، وقدرهم وإمكانياتهم، وفيه قرب من فطرتهم البشرية يعالجها بحكمة ورفق، ويصل بهم فى النهاية إلى أعلى الدرجات البشرية فى الأخلاق والوفاق بين العقل والعاطفة وخلو من كل تعقيد فأين هذا من كل ما عرفته البشرية فى كل قوانينها ونظمها الوضعية.

ويكفينا كختام لهذا الموضوع ولتوضيح المنهج القرآنى فى عدم اتباع أى مذهب من المذاهب النابعة من أهواء البشر قوله تعالى:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾[1]

فإن هذه الآية توضح لنا أن الانسلاخ عن آيات الله هو عدم العمل بها والاستجابة لها.

والتعبير بلفظ الانسلاخ يدل دلالة واضحة على أن الذى يبتعد عن الوحى الإلهى المعصوم يتبعه الشيطان، ويكون من الغاوين، وفى هذه الحالة يكون مثله كمثل الكلب: إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فيتجه لإخلاده إلى الأرض وهو هنا يمثل لنا المذاهب المادية بجميع صورها.

واتباع الهوى فى هذا تمثيل للمذاهب والفلسفات الفردية بجميع صورها.

(١) سورة الأعراف الآيات: ١٧٥ - ١٧٦.

إعجاز القرآن فى إخباره عن أمور الغيب

كان الرسول ﷺ ، أميا لا يقرأ ولايكتب ، وهذا من أهم أوجه إعجاز رسالته ﷺ، وبناء على أميته، هذه لم يكن يعرف من أخبار الأمم السابقة التى ترد فى الكتب القديمة ما يعرفه غيره من الأحبار والرهبان، الذين درسوها دراسة عميقة، بل وتفرغوا لها تفرغا كاملاً.

وقد أثبتنا من قبل تهافت الشبه التى وردت عن التقائه بالبعض منهم فيكون أخذ عنهم بعض أخبار السابقين كذلك، فإن الرسول ﷺ ، لم يشتهر عنه التنبوء بالغيب فى الأمور المستقبلية، بل إن كتب السيرة على الاطلاق لم تذكر لنا أى شيء يدل دلالة واضحة أو غير واضحة فيما يتعلق بتنبوء الرسول ﷺ بالغيب قبل البعثة، بل تذكره دائما بما يدل على بعده عن هذا الطريق، كل هذا يدلنا دلالة واضحة على إعجاز القرآن من الناحية الغيبية، سواء فيما يتعلق بالماضى، أو الحاضر، أو المستقبل، بل إن القرآن الكريم نفسه يعبر عن ذلك فى أكثر من موضع يقول الله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾[١]

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾[٢]

﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ﴾[٣]

على أن الآيات التى توضح لنا موقف الرسول ﷺ من الاخبار بالغيب وإن ذلك ليس إلا نتيجة للوحى وليس منبعثا من شخصية الرسول ﷺ هى قوله تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾[٤]

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ﴾[٥]

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٤٤.
(٢) سورة يوسف الآية: ١٠٢.
(٣) سورة القصص الآية: ٤٤.
(٤) سورة العنكبوت الآية: ٤٨.
(٥) سورة هود الآية: ٤٩.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾[1]

يقول الدكتور محمد عبدالله دراز:

«لانقول إن العلم بأسماء بعض الأنبياء والأمم الماضية وبمجمل ماجرى من حوادث التدمير فى ديار عاد وثمود، وطوفان نوح، وأشباه ذلك، لم يصل قط إلى الأميين فان هذه النتف اليسيرة قلما تغرب عن أحد من أهل البدو أو الحضر، لأنها مما توارثته الأجيال، وسارت به الأمثال وإنما الشأن فى تلك التفاصيل الدقيقة، والكنوز المدفونة فى بطون الكتب فذلك هو العلم النفيس الذى لم تنله يد الأميين،ولم يكن يعرفه إلا القليل من الدارسين.

وانك لتجد الصحيح المفيد من هذه الأخبار محرراً فى القرآن حتى الأرقام طبق الأرقام، فترى مثلا فى قصة نوح عليه السلام فى القرآن: أنه لبث فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً.

وفى سفر التكوين من التوراة أنه عاش تسعمائة وخمسين سنة.

وترى فى قصة أصحاب الكهف عند أهل الكتاب، أنهم لبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنة شمسية.

وفى القرآن: أنهم لبثوا فى كهفهم (ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا).

وهذه السنون التسع هى فرق ما بين عدد السنين الشمسية والقمرية، قاله الزجاج يعنى بتكميل الكسر.

فانظر إلى هذا الحساب الدقيق فى أمة أمية لا تكتب ولا تحسب، كفاك بالعلم فى الأمى معجزة فى الجاهلية والتأدب فى اليتم.

نعم انها لعجيبة حقا: رجل أمى بين أظهر قوم أميين، يحضر مشاهدهم فى غير الباطل والفجور، ويعيش معيشتهم مشغولا برزق نفسه وزوجه وأولاده، راعيا بالأجر،

(١) سورة يوسف الآية: ٣.

أو تاجرا بالأجر، لا صلة له بالعلم والعلماء، يقضى فى هذا المستوى أكثر من أربعين سنة من عمره، ثم يطلع علينا فيما بين عشية وضحاها فيكلمنا بما لاعهد له به فى سالف حياته، وبما لم يتحدث إلى أحد بحرف واحد منه قبل ذلك.

ويبدى لنا من أخبار تلك القرون الأولى ما أخفاه أهل العلم فى دفاترهم وقماطرهم[١].

وإذا كان لنا أن نذكر أمثلة عن الإعجاز الغيبى للقرآن، فإننا نجدها تتعدد من ذلك:

١ – قصص الأنبياء السابقين، وقد سبق أن ذكرنا مدى الإعجاز فى الإخبار عنها، ويقول الله تعالى فى ذلك:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢]

٢ – إخباره عن المستقبل كماحدث فى إخباره عن هزيمة الفرس بعد فوزهم على الرومان، مع عدم توقع حدوث ذلك عند أى شخص، بل الكل كانوا يؤكدون عدم قيام دولة الرومان مرة أخرى.

يقول الله تعالى:

﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾[٣]

وقد حدث ما أخبر به القرآن الكريم، وما كان لبشر أن يتنبأ بهذا، بل ان العادة جرت على أن الذى يريد الزعامة يجارى الناس فى معتقداتهم .

٣– ومن إخباره عن المستقبل ما كان قبيل غزوة بدر من اخباره عن أسباب قيامها، ومن اخباره عن نتيجتها، يقول الله تعالى عن الأسباب:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[٤].

---

(١) النبأ العظيم الدكتور محمد عبد الله دراز ص٣٠ – ص٣١.
(٢) سورة هود لآية: ٤٩.
(٣) سورة الروم الآية: ١، ٢.
(٤) سورة الأنفال الآية: ٧.

لقد أراد المسلمون العير وأراد الله سبحانه وتعالى النفير.

أما عن النتيجة مع توقع الهزيمة للمسلمين بكل المقاييس العسكرية فيقول الله سبحانه وتعالى:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾[١]

٤- إخبار القرآن عن الغيب فى تحدى الناس بأن يأتوا بمثل هذا القرآن ولم يستطع أى إنسان حتى الآن أن يأتى بأصغر سورة من مثله على مر العصور حتى الآن.

يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٢]

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾[٣]

هذه هى لمحات من أوجه إعجاز القرآن الغيبى ذكرناها على سبيل المثال لا الحصر، وهى تدلنا على مبلغ الذروة التى وصل إليها القرآن فى هذا المجال، لأن جل هذه الأخبار كان يأتى بما ليس متوقعا بأى مقياس عادى، ولا يتأتى لبشر على الإطلاق- كائنا من كان- توقعه أو الاتيان به.

(١) سورة القمر الآية: ٤٥.
(٢) سورة الإسراء الآية: ٨٨.
(٣) سورة البقرة الآية: ٢٤.

الشبهة الثالثة على دليل الرسالة والرد عليها

واستمر المشركون فى لجاجهم وعنادهم، فلم يجدوا فى القرآن نفسه أى عيب يمكن لهم أن يأخذوه عليه، بل انهم لايستطيعون الإتيان بأصغر سورة من مثله، فابتدعوا شبهة جديدة هى موجهة إليهم أكثر مما هى موجهة إلى رسول الله ﷺ وهى قولهم:

«لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة»، تلميحاً بذلك إلى أن نزوله له مفرقا لا يخلو من شبهة الصنعة البشرية، وكان رد الله سبحانه وتعالى عليهم واضحاً سهلا صريحاً:

﴿كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا﴾

إن الرد هنا يرمز إلى أمور تبين لنا سبب نزول القرآن منجماً، والسبب الأول: هو تثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، بنزول القرآن عليه على فترات متتابعة، بحيث يحفظ ما ينزل عليه أولاً بأول وجزءا بجزء فيكون أدعى إلى حفظه وتعليمه للناس شيئاً فشيئا.

وقد قال الله سبحانه وتعالى فى ذلك:

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾[1]

فإن من تكفل الله سبحانه وتعالى بالقرآن ويجمعه أن ينزله على فترات متتابعة ليحفظ فى الصدور حفظاً كاملاً ويكون ذلك أدعى إلى التعلق به، فالقرآن لم ينزل لفترة معينة، بل نزل لكل العصور.

ثانياً: موالاة الوحى للرسول، فيه تثبيت لفؤاد رسول الله ﷺ وتثبيت لعزيمته، فان المرء يستأنس بموالاة أصحابه له، وتأييدهم إياه، فكيف لا يستأنس الرسول ﷺ بموالاة ربه له؟

ثالثا: يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿ورتل القرآن ترتيلا﴾

(١) سورة القيامة الآيات: ١٦ - ١٩.

وهذا يدل دلالة واضحة، على أن الترتيل من عند الله سبحانه وتعالى، وهذا لا يتوافر إلا بنزول القرآن منجماً، فانه إذا نزل القرآن جملة واحدة لم يتمكن الرسول ﷺ من تعلم ترتيله ولا من تعليم غيره ذلك.

رابعاً: إن نزول القرآن منجماً يؤدى إلى نزوله على حسب الوقائع فيكون أدعى إلى سهولة التشريع ومعرفة الحكمة منه.

خامساً: التدرج بالناس فى التشريع، فإن نزول القرآن جملة واحدة يؤدى إلى فرضية التشريعات الجديدة مرة واحدة، مما يكون فيه عسر شديد على الناس، ربما يرفضون بسببه الدين الجديد، فلو لم ينزل تحريم الخمر بالتدريج لكان فى ذلك قسوة شديدة على الناس، فان الكثيرين كانوا يدمنونها ويتاجرون فيها.

سادساً: ونضيف إلى ذلك قول الشيخ أبى زهرة:

وهناك سبب آخر لنزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب ومن شئونهم، ذلك أن العرب كانوا أمة أمية، والكتابة فيهم ليست رائجة، بل يندر فهم من يعرفها، وأندر منه من يتقنها، فما كان فى استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة، إذ يكون بسوره وآياته عسيراً عليهم أن يكتبوه، وان كتبوه لا يعدمون الخطأ والتصحيف.

ولقد كان من فائدة انزال القرآن منجما أنه كان ينزل لمناسبات ولأحداث فيكون فى هذه الأحداث بعض البيان لاحكامه والمبين الأول هو النبى ﷺ، كما قال الله تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٢)

﴿وقرآنا فرقناه لنقرأه على الناس على مكث ورتلناه تنزيلا﴾

---

(١) سورة الفرقان الآية: ٣٢.

(٢) سورة النحل الآية: ٤٤.

الفصل الرابع

شبهات المشركين على صاحب الرسالة والرد عليها(١)

لم تفلح دعاوى المشركين على دليل الرسالة وهو القرآن الكريم، فانطلقوا يقيمون دعاويهم وأكاذيبهم، على سيدنا رسول الله ﷺ، وقد رد القرآن الكريم هذه الأكاذيب والدعاوى فى نحور أصحابها وتظهر لنا الشبهات والرد عليها فى قوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

يحكى لنا القرآن الكريم هنا ست شبهات أقامها المشكرون:

إن الإعجاز فى نظرهم يتنافى مع كون الرسول ﷺ يأكل كواحد منهم، ويسعى على معاشه فى الأسواق كالبشر، بل يجب فى نظرهم أن ينزل معه ملك فيساعده فى أمور دعوته، أو يعطيه ربه كنزاً ينفق منه بدون حساب، أو على الأقل تكون له جنة، أى بستان تغنيه عن أمور المعاش وبما أنه لم تتوافر له تلك الأمور التى هى فى نظرهم أساس يتكأ عليه بالنسبة لنبى، وهم فى هذا مخطئون، فان تميز الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الآخرين ليس بأمور جسمانية، وإنما بما جبلهم الله عليه من الكمال، وفى ذلك يقول الله سبحانه وتعالى على رسول الله ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾(٢)

فالرسول هنا بشر يوحى إليه، والناس عادة تذكر البشرية، فيجرى على الرسول ﷺ ما يجرى على البشر العادى: من حب الأموال والجاه والزينة يتذكرون كل ذلك وينسون يوحى إليه فهو بشر ولكنه لايسير فى أى أمر خاص به، أو بالناس، أو بالتشريع الابناء على ما يوحى به إليه.

(١) من مراجع هذا الفصل: تفسير الإمام الألوسى. تفسير القاسمى تفسير الفخر الرازى –تفسير البحر المحيط– أسباب نزول القرآن للواحدى، أسباب النزول للسيوطى، النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز.

(٢) اخر سور الكهف :

ثم زاد كفار مكة على ذلك، وعبر عنهم الله سبحانه وتعالى بلفظ الظلم لافترائهم هذه الشبهات على سيدنا رسول الله ﷺ يقول الإمام الألوسى:

هم القائلون الأولون، وإنما وضع المظهر موضع ضميرهم تسجيلا عليهم بالظلم فيما قالوه، لكونه اضلالا خارجاً عن حد الضلال مع ماضيه من نسبته ﷺ ، إلى ما يشهد العقل والنقل ببراءته منه، أو إلى مالا يصلح أن يكون متمسكا لما يزعمون من نفى الرسالة.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد، وقال الكاملون فى الظلم منهم، وأياما كان، فالمراد أنهم قالوا للمؤمنين:

﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً(١)﴾

واتهموا الرسول ﷺ بالسحر، وأنه سحر فغلب على عقله.

ويرد الله سبحانه وتعالى على هذه الشبه، بقوله تعالى:

﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(٢)

لقد اخترعوا لك يا محمد كلاماً كله أباطيل، وقد ضلوا فى ذلك ضلالاً مبينا، فبقوا متحيرين لايجدوا فى نبوتك قولا يستقرون عليه، وإن كان باطلا فى نفسه، فان شبهاتهم وقدحهم فى أمر نبوتك إنما يكون فى المعجزات الدالة عليها، وماأتوا به لايفيد ذلك، وهذا استعظام للحكايات الباطلة التى تفوه بها المشركون وتتعجب منها.

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى رده على شبه المشركين بقوله:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِّن ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُوراً﴾(٣)

يقول الإمام الرازى فى سبب نزول هذه الآية:

---

(١) تفسير الألوسى جـ١٨ ص ٢٣٨.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٩.
(٣) سورة الفرقان الآية: ١٠.

أخبرنا أحمد بن محمد بن إبراهيم المقرئ، قال: أخبرنا أحمد بن أبى الفرات قال: أخبرنا عبدالله بن محمد بن يعقوب البخارى قال حدثنا جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال:

لماعير المشركون، رسول الله ﷺ، بالفاقة وقالوا: مالهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق، حزن رسول الله ﷺ، فنزل جبريل عليه السلام من عند ربه معزيا له فقال:

السلام عليك يارسول الله، رب العزة يقرئك السلام،

ويقول لك:

﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق﴾ أى يبتغون المعاش فى الدنيا.

قال: فبينما جبريل عليه السلام، والنبى ﷺ، يتحدثان إذ ذاب جبريل عليه السلام حتى صار مثل الهردة،

قيل يارسول الله وما الهردة؟

قال: العدسة- فقال رسول اله ﷺ:

مالك ذبت حتى صرت مثل الهردة؟

فقال: يامحمد، فتح باب من أبواب السماء، ولم يكن فتح قبل ذلك اليوم، وانى أخاف أن يعذب قومك عند تعييرهم إياك بالفاقة:

فأقبل النبى وجبريل عليهما السلام يبكيان إذ عاد جبريل عليه السلام إلى حاله فقال:

أبشر يامحمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضا من ربك فأقبل رضوان حتى سلم ثم قال:

يامحمد، رب العزة يقرئك السلام- ومعه سقط من نور يتلألأ ويقول لك ربك، هذه مفاتيح خزائن الدنيا مع مالا ينتقص لك مما عندى فى الآخرة مثل جناح بعوضة.

فنظر النبى ﷺ إلى جبريل عليه السلام كالمستشير له، فضرب جبريل بيده إلى الأرض فقال:

تواضع لله، فقال:

يارضوان لاحاجة لى فيها، الفقر أحب إلى، وأن أكون عبداً صابراً شكوراً.

فقال رضوان عليه السلام أصبت ، أصاب الله بك، وجاء نداء من السماء فرفع جبريل عليه السلام رأسه، فإذا السموات قد فتحت أبوابها إلى العرض، وأوحى الله تعالى إلى جنة عدن أن تدلى غصنا من أغصانها عليه عذق، عليه غرفة من زبر جدة خضراء، لها سبعون ألف باب من ياقوتة حمراء، فقال: جبريل عليه السلام

يامحمد ارفع بصرك، فرفع، فرأى منازل الأنبياء وغرفهم، فإذا منزله فوق منازل الأنبياء فضلا له خاصة ، ومناد ينادى:

أرضيت يامحمد؟

فقال النبى ﷺ: رضيت، فاجعل ما أردت أن تعطنى فى الدنيا ذخيرة عندك فى الشفاعة يوم القيامة[1].

وسبب نزول الآية هنا يشرح لنا التفسير المراد كما ذكره الفخر الرازى فى تعليقه على الآية بقوله:

اعلم أن هذا هو الجواب الثانى عن تلك الشبهة، فقوله:

تبارك الذى ان شاء جعل لك خيرا من ذلك.

أى الذى ذكروه من نعم الدنيا كالكنز والجنة، وفسر ذلك الخير بقوله:

﴿جنات تجرى من تحتها الأنهار، ويجعل لك قصورا﴾

نبه بذلك سبحانه على أنه قادر على أن يعطى الرسول كل ما ذكروه، ولكنه تعالى يدبر عباده بحسب المصالح، أو على وفق المشيئة، ولا اعتراض لأحد عليه فى شىء من أفعاله، فيفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا، وفى حق الآخر بالعكس وماذاك إلا لأنه فعال لما يريد.

(١) أسباب نزول القرآن لأبى الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى –تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر ص٣٤٦.

قال ابن عباس: خير من ذلك مما عيروك بفقده الجنة لأنهم عيروك بفقد الجنة الواحدة، وهو سبحانه قادر على أن يعطيك جنات كثيرة

وقال فى رواية عكرمة:

خيراً من ذلك أى من المشى فى الأسواق وابتغاء المعاش[1]

وبعد أن يعدد الله سبحانه وتعالى مصير الكافرين فى الآخرة ومقدار جزائهم الذى سيلقونه، والعذاب الذى ينتظرهم ، يذكر رداً ثانيا على الشبه التى ذكروها، وهو قوله تعالى

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾

وهذا كالتسلية للرسول ﷺ وتبيانا له بأنه لايختلف عن الأنبياء والرسل، الذين أرسلوا من قبل، وأن القوم ما ينظرون إلى النبوة إلا على أنها الملك، والغنى والجاه، كما يرون فى ملوك الدولة الفارسية، أو الرومانية.

ويمكن أن يضم إلى هذا: أن هذا القول احتجاج على المشركين فى قولهم ذلك، فان كل من سبق من الرسل كان يسير على هذا المنوال فلماذا يكون سيدنا محمد ﷺ بدعا فى ذلك، وهم لايختلفون عن الأمم السابقة؟ وهذا أبلغ رد وأقواه بالنسبة لحال المشركين مع رسول الله ﷺ، فان الرومان وغيرهم من أهل الكتاب كانوا يؤمنون بأنبياء لهم كانوا يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق، يؤمنون بهم رغم ماآتاهم الله من السطوة والجبروت والعزة والملك.

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى الرد على المشركين بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً﴾.

وهذا أيضا تسلية له ﷺ، عن قول المشركين: «أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة».

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص ٤٥١.

فقد جعل أغنياء الناس هنا ابتلاء لفقرائهم لينظر هل يصبرون، والله بصير بما يعملون عالما بالصواب فيما يبتلى به، فلا يضيقن صدر رسول الله ﷺ، ولا تستخفه أقاويلهم.

ويعد لنا الفخر الرازى بعض أوجه تفسير الآية بقوله:

١ – ان هذا فى رؤساء المشركين وفقراء الصحابة، فاذا رأى الشريف الوضيع قد أسلم قبله أنف أن يسلم، فأقام على كفره لئلا يكون للوضيع السابقة والفضل عليه، ودليله قوله تعالى:

لو كان خيرا ماسبقونا إليه

وهذا قول الكلبى، والفراء، والزجاج.

٢ – ان هذا عام فى جميع الناس، روى أبو الدرداء عن النبى ﷺ، أنه قال:

ويل للعالم من الجاهل[1]، وويل للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان، وويل للمالك من المملوك، وويل للشديد من الضعيف، وللضعيف من الشديد، بعضهم لبعض فتنة وقرأ هذه الآية.

٣ – إن هذا فى أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول لم لم أجعل مثله فى الخلق والخلق، وفى العقل وفى العلم، وفى الرزق وفى الأجل وهذا قول ابن عباس والحسن.

٤ – هذا احتجاج عليهم فى تخصيص محمد بالرسالة مع مساواته إياهم فى البشرية وصفاتها، فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم، وأنواع أذاهم، على ما قال:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾[2].

والمرسل إليهم يتأذون أيضا من المرسل، بسبب الحسد، وصيرورته مكلفا بالخدمة وبذل النفس والمال، بعد أن كان رئيسا مخدوما.

---

(١) أخرجه الديلمى عن أنس.

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٨٦.

والأولى: حمل الآية على الكل لأن بين الجميع قولا مشتركا[1].

وقول الفخر الرازى عن هذه المعانى للآية:

والأولى حمل الآية على الكل، لأن بين الجميع قولا مشتركا هو فى نظرنا الرأى الراجح، لأن حملها على مجئ، وتسلية الرسول فقط هو تحديد قاصر، حيث أن المجال أيضا هو مجال الرد على شبه المشركين وتفنيد دعاواهم.

ثم تجيء لنا سورة الفرقان بشبهة أخرى للمشركين، يزيدون فيها عتوا واستكبارا، محاولين تحطيم رسالة سيدنا محمد ﷺ، بكل السبل، مع أنها تتهافت الواحدة تلو الأخرى، يقول الله تعالى حكاية عنهم:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا﴾[2]

ومعنى هذه الشبهة، ومراد المشركين منها، لماذا لم ينزل الله سبحانه وتعالى ملائكة يشهدون مع سيدنا محمد ﷺ، بأن رسالته حق، وأنها آتية من عند الله سبحانه وتعالى، أو يروا الله سبحانه وتعالى فيخبرهم بصدق رسول الله ﷺ، فان من علائم صدق الرسالة كما تخبر عنه شبهتهم المتهافتة أن يشهد المرسل إليه على صدق المرسل، ومعنى عدم الشهادة برؤية الملائكة، أو رؤية الله سبحانه وتعالى؛ هو كذب الداعى إلى الرسالة.

ويرد القرآن الكريم عليهم بقوله تعالى:

﴿لقد استكبروا فى أنفسهم وعتو عتوا كبيرا﴾.

لقد استكبروا فى أنفسهم، وظنوا أن لجاجهم هذا سيقضى على الرسالة المحمدية قضاءا مبرما، واللام هذه واقعة جوابا للقسم، أى: والله لقد استكبروا فى شأن أنفسهم وتجاوزوا الحد فى الظلم والطغيان تجاوزا كبيرا بالغا الغاية الكبرى فى ذلك.

يقول الإمام الألوسى:

(١) الفخر الرازى جـ٦ ص٤٦٣.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٢١.

وفى تعقيب حكاية باطل، أولئك الكفرة بالجملة القسمية إيذان بغاية قبح ماهم عليه، واشعار بالتعجب من استكبارهم وعتوهم، وهو من الفحوى فى الحقيقة، ومثل ذلك شائع فى الكلام، تقول لمن جنى جناية: فعلت: فعلت كذا وكذا استعظاما، وتعجبا منه، ويستعمل فى سائر الألسنة، وجعل الزمخشرى من ذلك قول مهلهل:

وجارة جساس أبأنا بنابها كليبا غلت ناب كليب بواؤها[1]

لقد طلبوا مالا يخطىء إليه أولى العزم من المرسلين، صلوات الله عليهم، ولم يهتموا بأوجه اعجاز القرآن، وبالآيات الباهرة، التى أتى بها رسول الله ﷺ، وعتوا فى ذلك عتوا كبيرا، بتجاوزهم الظلم والطغيان.

ثم تمضى بنا سورة الفرقان فى الرد عليهم بالرد المفحم،

يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[2]

ذكر لهم أن طلبهم هذا ليس بشرى لهم كما يعتقدون، بل سيكون نكالا علهيم، لدرجة أنهم سيقولون حجرا محجورا، خوفا من هذا اللقاء ورهبته، يقول الإمام الرازى:

اختلفوا فى ذلك اليوم فقال ابن عباس:

يريدعند الموت،

وقال الباقون: يريد يوم القيامة،

وإنما يقال للكافر لابشرى لأن الكافر وإن كان ضالا مضلا إلا أنه يعتقد فى نفسه أنه كان هاديا مهتديا، فكان يطمع فى ذلك الثواب العظيم،

ولأنهم ربما عملوا ما رجوا فيه النفع كنصرة المظلوم، وعطية الفقير، وصلة الرحم، ولكنه أبطلها بكفره.

فبين سبحانه أنهم فى أول الأمر يشافهون بما يدل على نهاية اليأس والخيبة، وذلك هو النهاية فى الإيلام، وهو المراد من قوله:

(١) تفسير الألوسى: جـ١٩ ص٣.
(٢) سورة الفرقان الآية: ٢٢.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾(١)

ويصل بهم الأمر فى النهاية أن يقولوا: حجرا محجوراً للذى طلبوه كبشرى لهم.

يقول الفخر الرازى:

فى تفسير قوله حجراً محجوراً، ذكر سيبويه فى باب المصادر غير المتصرفة المنصوبة بأفعال متروك اظهارها، نحو معاذ الله، وقعدك عمرك .

وهذه كلمة كانوا يتكلمون بها عند لقاء عدو، أو هجوم نازلة، ونحو ذلك يضعونها وضع الاستعاذة .

وقال سيبويه: يقول الرجل للرجل، يفعل كذا وكذا، فيقول: حجرا، وهى من حجره إذا منعه، لأن المستفيد طالب من الله أن يمنع المكروه، فلا يلحقه، فكان المعنى أسأل الله أن يمنع ذلك منعا ويحجره حجراً، ومجيئه على فعل أو فعل فى قراءة الحسن تصرف فيه لاختصاصه بموضع واحد، فان قيل لما ثبت أنه من باب المصادر فما معنى وصفه بكونه محجوراً؟

قلنا: جاءت هذه الصفة لتأكيد معنى الحجر، كما قالوا ذبل ذابل فالذبل الهوان وموت مائت، وحرام محرم(٢) .

ثم تمضى بنا سورة الفرقان فى استعراض شبه المشركين على سيدنا رسول الله ﷺ يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلاَّ هُزُواً أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾(٣)

تبين لنا هذه الآية مدى غرور المشركين واستكبارهم، فإن جميع الحجج التى ذكروها من قبل سقطت وتهافتت، ولكنهم أصروا على طغيانهم، فاستعملوا طريقة

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٦٦ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٦٦ .
(٣) الفرقان آية: ٤١، ٤٢ .

الاستهزاء بشخص الرسول ﷺ، وهذه الطريقة فى الجدل لاتستعمل إلا بعد فقدان الحجة، وضعف المنطق، وهذا يدل على مقدار المتاهات التى وقع فيها المشركون فهم يعلمون أن رسول الله ﷺ كان أحسنهم خَلقا وخُلقا، وأوسطهم نسبا، ويعلمون مقدار عناية الله سبحانه وتعالى، به، من مولده، حتى بدء دعوته ومظاهر الخصوصية التى أحاطت به فى تلك الفترة، بل أن أكبر المظاهر التى تدل على بطلان منطقهم قوله

«إن كان ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها»

فهذا القول يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن ما جاء به سيدنا رسول الله ﷺ هو الحق، الذى لامراء فيه وأن ما هم عليه هو الباطل، وأنهم ما كان لهم قبل بمناقشة الحجج القوية، التى أتى بها الإسلام على لسان رسوله ﷺ، ونشارك فى ذلك رأى الفخر الرازى فى قوله:

إنهم سموا ذلك إضلالا، وذلك يدل على أنهم كانوا مبالغين فى تعظيم آلهتهم، وفى استعظام ضيقه ﷺ فى صرفهم عنهم وذلك يدل على أنهم كانوا يعتقدون أن هذا هو الحق، فمن هذا الوجه يبطل قول أصحاب المعارف، فى أنه لايكفر إلا من يعرف الدلائل لأنهم جهلوه ثم نسبهم الله تعالى إلى الكفر والضلال، وقولهم لولا أن صبرنا عليها: يدل أيضا على ذلك، ويدل هذا القول منهم على جد رسول الله ﷺ، واجتهاده فى صرفه عن عبادة الأوثان ولولا ذلك لما قالوا:

« إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا» .

وهكذا كان عليه الصلاة والسلام، فإنه فى أول الأمر بالغ فى إيراد الدلائل، والجواب عن الشبهات وتحمل ما كانوا يفعلونه: من أنواع السفاهة، وسوء الأدب.

والثالث، أن هذا يدل على اعتراف القوم بأنهم لم يعترضوا البتة على دلائل الرسول ﷺ، وما عارضها إلا بمحض الجحود والتقليد.

الرابع، الآية تدل على أن القوم صاروا فى ظهور حجته عليه السلام عليهم، كالمجانين، لأنهم استهزءوا به أولا، ثم وصفوه بأنه كاد يضلنا عن آلهتنا، لولا أن

قابلناه بالجحود والإصرار. فهذا الكلام الأخير يدل على أن القوم سلموا له قوة الحجة، وكمال العقل[١].

وبما أن القوم وصل بهم الأمر إلى الاستهزاء بشخص الرسول ﷺ فلا ينفع معهم إلا الرد بأسلوب معاملة الأسافل من الناس وهو أسلوب القوة، لقد حاول الرسول ﷺ معهم بقوة العقل، وباقناع الدليل فلم يجد معهم ذلك شيئا فكان الرد القرآنى فى هذا المجال هو أبلغ رد وأحسنه:

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[٢]

فانهم عندما يشاهدون عذاب ربهم الشديد فى الدنيا والآخرة سوف يعرفون من كان منهم أضل سبيلا فإذا كانوا اتبعوا هواهم وانقادوا له فإن الرسول ﷺ ليس حفيظا عليهم وليس مسئولا عنهم عما يجرى له وقد سبق أن قال ذلك الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز:

﴿لست علهم بمسيطر﴾،

﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾[٣]

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾[٤]

ثم يكمل الله سبحانه وتعالى الرد بما يقصم ظهورهم،ويبين صفتهم الحقيقية.

﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾

ها هنا يبين الله سبحانه وتعالى القيمة الحقيقية لهؤلاء المشركين، فبعد أن استعرضوا جميع حججهم ومنطهم، وماستطاعوا الوصول إليه بفارغ القول، بين لنا الله سبحانه وتعالى أن كل ما قالوه أو فعلوه لايزيد عن قول الأنعام التى لاتسمع أو تعقل، بل إنهم عند الله سبحانه وتعالى أضل من ذلك، وعبر بلفظ أكثرهم هنا للتعبير عن أن

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٤٧٧.
(٢) سورة الفرقان آية: ٤٢، ٤٣.
(٣) سورة ق آية: ٤٥.
(٤) سورة البقرة آية: ٢٥٦.

هناك قلة منهم، كانوا قد سبقت لهم العناية الأزلية بالإيمان، ومنهم من سمع أو عقل ولكنه خاف على الرياسة أو الجاه.

يقول الإمام الألوسى فى تفسير قوله تعالى:

﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾:

لما أن الأنعام تنقاد لصاحبها الذى يتعهدها، وتعرف من يحسن إليها، ومن يسئ إليها، وتطلب ما ينفعها، وتجنب ما يضرها تهتدى لمراعيها ومشاربها، وتأوي إلى مقاطنها ومرابضها.

وهؤلاء لاينقادون لربهم سبحانه وخالقهم ورازقهم، ولايعرفون إحسانه تعالى إليهم، من إساءة الشيطان المزين لهم اتباع الشهوات، الذى هو عدو مبين، ولا يطلبون الثواب الذى هو أعظم المنافع، ولا يتقون العقاب الذى هو أشد المضار والمهالك، ولايهتدون للحق الذى هو المشرع الهنى، والمورد العذب الروى، ولأنها إن لم تعتقد حقا مستتبعا لاكتساب الخير، لم تعتقد باطلا مستوجبا، لاقتراف الشر بخلاف هؤلاء، حيث مهدوا قواعد الباطل، وفرعوا عليها أحكام الشرور، ولأن أحكام جهالتها وضلالتها مقصورة على أنفسها. لاتتعدى إلى أحد، وجهالة هؤلاء مردية إلى ثوران الفتنة والفساد وصد الناس عن سنن السداد وهيجان الهرج والمرج، فيما بين العباد، ولأنها غير معطلة لقوة من القوى المودعة فيها، بل صارفة لها إلى ما خلقت له فلا تقصير من قبلها فى طلب الكمال، وأما هؤلاء فهم معطلون لقواهم العقلية، مضيعون للفطرة الأصلية التى فطر الناس عليها[1].

على أنه إذا كان لنا أن نضيف شيئا على هذه الردود التى ذكرها الله سبحانه وتعالى، فإننا نضيف ما يمكن ذكره عن سيدنا رسول الله ﷺ من ناحية أخلاقه ومعجزته الحسية، فإن فيها الكفاية فيما نعتقد للدلالة على عظم تلك الشخصية وأن مشركى مكة ومن تابعهم من مروجى الفتن من المستشرقين وصبيان المبشرين فى عصرنا الراهن كانوا مخطئين كل الخطأ بذكرهم هذه الشبهات التى جعلتهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا.

---

(١) تفسير الألوسى جـ١٩ ص٢٥.

الفصل الخامس

خلق رسول الله ﷺ

ما هى الدرجة التى وصل إليها سيدنا رسول الله ﷺ، بالنسبة للخلق؟

وهل كان يشاركه فى هذا الخلق الأنبياء أو الرسل أو الملائكة؟

وللإجابة على هذين السؤالين يقول لنا الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾

تلك هى الدرجة التى وصل إليها سيدنا رسول الله ﷺ بالنسبة للأخلاق.

إنها دورة الأخلاق الكريمة، لقد بعث ﷺ ، ليتمم مكارم الأخلاق، يتممها بشخصه، وبفعله، وبرسالته، لم تكن مكارم الأخلاق قد تمت من قبل، حتى مبعث رسول الله ﷺ.

حقيقة كان الملائكة الذين لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وكان هناك الأنبياء بأخلاقهم الكريمة.

كان سيدنا إبراهيم، الحليم الأواه المنيب.

وكان سيدنا إسماعيل عليه السلام صادق الوعد، وكان رسولا نبياً، وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا.

وسيدنا عيسى عليه السلام كان عبد الله آتاه الله الكتاب وجعله نبيا وجعله مباركاً أينما كان وأوصاه بالصلاة والزكاة مادام حيا.

ولكن لم يوجد أحد من هؤلاء يصل إلى درجة الأخلاق التى وصل إليها سيدنا رسول الله ﷺ.

إن القرآن الكريم عندما يحسم لنا الأمر بقوله تعالى:

﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾

يبين لنا أن الكون كان ناقصاً، لقد كان العالم بحاجة إلى أول المسلمين.

يقول الدكتور عبدالحليم محمود فى كتابه الإسلام والإيمان:

كان الكون ناقصاً مادة ومعنى، كان ينقصه أن تتعطر أرضه بأزكى الأجساد، وأن يتعطر جوه بأزكى الأرواح وكان لابد من وجود كائن بهذه المثابة يكمل الله به الدين، ويتم به النعمة، ويرضى رسالته دينا عاماً خالداً للإنسانية أجمع: هو إسلام الوجه لله:

وينزل القرآن محددا اسلام الوجه لله وسائل، ومجدداً إسلام الوجه لله غايات.

محدداً إسلام الوجه لله طرقاً وأساليب، ومحددا له بواعث وأهدافاً.

ومن أجل أن الإسلام هو إسلام الوجه لله والتسليم له والإستسلام لما يحبه ويرضاه:

﴿كان من يبتغى غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾

وكيف يقبل منه ما يتنافى مع إسلام الوجه لله؟

إن إسلام الوجه لله، هو جوهر التدين، إنه الدين القيم انه الدين الخالد، والنص الوحيد، النص الإلهى الفريد فى العالم كله الذى يبين كيفية إسلام الوجه لله، إنما هو القرآن.

وإذا ا وصل الإنسان إلى إسلام الوجه لله، كان بذلك فى ذروة الإنسانية وفى الذورة من مكارم الأخلاق.

ويتفاوت الناس فى إسلام وجوههم لله، ولابد من أن يكون أحدهم أول، فكان رسول الله ﷺ أولهم بإطلاق مطلق[1].

أما لماذا كان سيدنا رسول الله ﷺ، أول المسلمين على الإطلاق؟

فذلك ما يوضحه لنا قول السيدة عائشة رضى الله عنها عنه ﷺ وذلك عندما سئل عن أخلاقه فقالت:

﴿كان خلقه القرآن﴾[2].

---

(١) الإسلام والإيمان للدكتور عبدالحليم محمود ص٧٦ – ص٧٧.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده والإمام مسلم فى صحيحه، وأبو داود فى سننه عن السيدة عائشة رضى الله عنها.

ومع وضوح قولها فقد يسأل سائل: إن القرآن الكريم يحدد عدة درجات للأخلاق الكريمة، ففى أى درجة كان خلق رسول الله ﷺ؟

إن القرآن يحدثنا عن الخلق الكريم فى حده الأدنى، ويحدثنا عن أسمى مكارم الأخلاق.

إن يحدثنا عن المقتصد،

وعن السابق بالخيرات.

وعن أصحاب اليمين.

ويتحدث عن المقربين، ويذكر لنا أن المقربين أقل عددا من أصحاب اليمين فهم ثلة من الأولين، وقليل من الآخرين.

أما أصحاب اليمين فهم ثلة من الأولين وثلة من الآخرين ونجد فى القرآن الكريم الأمثلة على ذلك.

يقول الله تعالى:

﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[1].

إن مقابلة السيئة بالسيئة عدل.

ولكن مع هذه العدالة هناك درجة أعلى، وهى:

كظم الغيظ مع القدرة على مقابلة السيئة بسيئة مثلها.

ثم يرسم لنا القرآن الكريم درجة أعلى من درجة، كظم الغيظ وهى: العفو، والعفو مع المقدرة أسمى من كظم الغيظ.

ثم يصل بنا الأمر فى الدائرة القرآنية إلى مقام الإحسان، وهو مقام المقربين.

يقول الله تعالى:

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[2]

﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾

فماذا كانت تريد السيدة عائشة بقولها:

«كان خلقه القرآن»؟

---

(١) سورة الشورى آية: ٤٠. (٢) سورة آل عمران آية: ١٣٤.

إن الدرجة التى وصل إليها سيدنا رسول الله ﷺ فى مكام الأخلاق، يقول عنها الله سبحانه وتعالى مخاطبا رسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]

يقول ابن عباس رضى الله عنهما فيما معناه:

«على دين عظيم، ولادين أحب إلى الله ولا أرضى عنه منه، وهو دين الإسلام»

وقال قتادة:

و ما كان يأتمر به من أوامر الله، وينتهى عنه مما نهى الله تعالى:

والمعنى: إنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن.

وقال الواسطى:

أثنى عليه بحسن قبوله، لما أسداه إليه من نعمه وفضله بذلك على غيره، لأنه جبله على ذلك الخلق.

ويقول صاحب الشفاء:

أثنى عليه بما منحه من هباته وهداه إليه، وأكد ذلك تتمما للتمجيد بحرفى التأكيد، فقال تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

قيل القرآن.

وقيل الإسلام.

وقيل الطبع الكريم ،

وقيل ليس لك همة إلا الله أ.هـ

لقد تحقق سيدنا رسول الله ﷺ وبأكمل صورة بقول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾

لقد تحقق فيه جوهر الرسالة الإسلامية، وهو إسلام الوجه لله تعالى، فكان أول المسلمين.

---

(١) سورة القلم الآية: ٤.

وإذا كان لنا أن نذكر نماذج من أخلاقه ﷺ فإننا لايسعنا إلا أن نذكر صفتين تعتبران من أهم صفاته ﷺ: أولاهما: الرحمة.

وثانيهما: الشجاعة

ولنتحدث عن أولاهما، فنقول:

الـرحمـة:

تعتبر الرحمة من أهم أهداف الرسالة الإسلامية وقد تمثلت فى سيدنا رسول الله ﷺ، تمثلا كاملا، وما كان قول الله سبحانه وتعالى عنه بدعاً من القول عندما خاطبه قائلا:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[1]

لقد شملت رحمة رسول الله ﷺ كل العوالم التى خلقها الله. سبحانه وتعالى، ولم تقتصر على الأهل أو الأصدقاء، كما هو المعتاد بل ولم تقتصر على بنى الإنسان فحسب، بل تعدت رحمته صلوات الله وسلامه عليه إلى الحيوان كذلك.

والله سبحانه وتعالى الذى يصف نفسه بالرحمة فى كل شئ كما نرى ذلك فى مفتتح كل سورة «بسم الله الرحمن الرحيم» بل وفى مفتتح كل شيء نقول: «بسم الله الرحمن الرحيم»

يقول عنه: ﴿وكان بالمؤمنين رحيما﴾

والله ﴿خير الراحمين﴾[2] وهوسبحانه ﴿خيرالغافرين﴾[3] والله سبحانه وتعالى ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾[4].

ومن آياته سبحانه وتعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[5]

ويطلب الله سبحانه وتعالى ألا نقنط من رحمته:

(١) سورة الأنبياء: آية: ١٠٧.
(٢) سورة المؤمنون آية: ١١٨.
(٣) سورة الأعراف: ١٥٥.
(٤) سورة الأنعام: ٢١٢.
(٥) سورة الروم آية: ٢١.

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(١)

أما إذا قنط الإنسان من رحمة ربه فإنه يكون من الضالين:

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ﴾(٢)

فإن الله هو أرحم الراحمين.

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾

إن الله سبحانه يصف نفسه بالرحيم فى أكمل معانيها، فكان رسوله ا لذى اختاره هداية للعالمين ممثلا لهذه الرحمة فى أكمل معانيها أيضا.

يقول رسول الله ﷺ مخبرا عن نفسه

«إنما أنا رحمة مهداه»(٣)

ويروى الإمام مسلم فى صحيح

«قيل يارسول الله: ادع على المشركين،

قال إنى لم أبعث لعانا وإنما بعثت رحمة(٤)»

والواقع أن الذى يمثل هذه الصفة فى سيدنا رسول الله ﷺ أصدق تمثيل قول السيدة خديجة لسيدنا رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى:

«إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق»

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه رحيما بالصغار.

رأى أحد الأعراب رسول الله ﷺ يقبل أحد أحفاده، فقال باستغراب:

«أتقبلون أبناءكم؟ إن لى عشرة من الأولاد ما قبلت واحدا منهم قط، فأفهمه ﷺ باستهجان أن الله قد نزع الرحمة من قلبه.

وكان صلوات الله عليه رحمة بالحيوان:

(١) سورة الزمر آية ٥٣. (٢) سورة الحجر آية: ٥٦.

(٣) ذكر ابن كثير أسانيد هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى: ﴿وماأرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

(٤) وفيما أخرجه البخارى فى التاريخ بسنده عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: ﷺ: «إنما بعثت رحمة ولم أبعث عذابا».هـ.

«مررسول الله ﷺ على بستان رجل من الأنصار فدخل، فإذا جمل يئن وتذرف عيناه، فأتاه النبى ﷺ، فمسح عليه، فسكت ثم قال رسول الله ﷺ:

«من رب هذا الجمل؟

فجاء فتى من الأنصار فقال:

هذا لى يا رسول الله»

فقال له: ألا تتقى الله عز وجل فى هذه البهيمة التى ملكك الله؟ إنك تجيعه وتؤذيه، فخجل الأنصارى.

على أنه إذا كانت هذه صفات سيدنا رسول الله ﷺ بالنسبة للرحمة فى شخصه، فإن رسول الله ﷺ كان رحمة مهداة للعالمين، كان يحث على الرحمة ويدعو إليها، وما كان قول الله سبحانه وتعالى عنه:﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[1] جزافا من القول ، فان هديه ﷺ بالنسبة للرحمة كان مستمراً فى كل وقت وفى كل حين.

فى بعض المرات كان سيدنا رسول الله ﷺ يحدث القوم عن الرحمة ويحث عليها فقال له بعض أصحابه:

أننا نرحم أزواجنا وأولادنا وأهلينا

ولكن سيدنا رسول الله ﷺ رأى أن هذا الفهم قاصر عن الصورة التى يريدها فعقب عليهم بقوله:

ماهذا أريد، إنما أريد الرحمة العامة.

انه يريد أن تتغلغل الرحمة فى كيانهم حتى تصبح طبيعتهم فى حد ذاتها، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى فى حديث قدسى:

أطلبوا الفضل من الرحماء من عبادى فإنى جعلت فيهم رحمتى، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم: فانى جعلت فيهم سخطى.

ويقول: لاتنزع الرحمة إلا من شقى[2]

ويقول صلوات الله وسلامه عليه

الراحمون يرحمهم الرحمن[3].

---

(١) سورة التوبة آية: ١٢٨، ١٢٩.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، وأبو داود ، والترمذى، ابن حبان فى صحيحه والحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده وأبو داود والترمذى والحاكم فى المستدرك عن ابن عمر رضي الله عنه.

أحاديث للرسول ﷺ فى الرحمة

«عذبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض»[١]

مر رسول الله ﷺ ببعير قد لصق ظهره ببطنه فقال:

«اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة»[٢]

عن جرير بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لايرحم الناس لا يرحمه الله»[٣]

وعن أبى موسى رضي الله عنه: أنه سمع النبى ﷺ يقول: لن تؤمنوا حتى تراحموا»

قالوا: يارسول الله كلنا رحيم! قال:

«إنه ليس برحمة أحدكم صاحبه ولكنها رحمة العامة»[٤]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول

«من لم يرحم الناس لم يرحمه الله»[٥]

وقال ﷺ:

«المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»[٦]

وعن جرير رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من لا يرحم من فى الأرض لايرحمه من فى السماء»[٧]

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[٨]

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: قدم ناس من الأعراب على رسول الله ﷺ فقالوا:

---

(١) رواه البخارى ورواه أحمد من حديث جابر فزاد فى آخره فوجبت لها النار بذلك.
(٢) رواه أبو داود
(٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأحمد.
(٤) رواه الطبرانى.
(٥) رواه الطبرانى.
(٦) رواه البخارى ومسلم.
(٧) رواه الطبرانى.
(٨) رواه أبو داود الترمذى وابن حبان.

«أتقبلون صبيانكم» ؟ فقال: نعم.

قالوا لكنا لانقبل ، فقال رسول الله ﷺ

«أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة»[١]

وقال ﷺ:

«إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف، فان فيهم الضعيف، والسقيم، والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء»[٢]

عن أبن عمر رضى الله عنهما قال:

«المسلم أخو المسلم: لايظلمه ولا يسلمه، من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»[٣].

وقال ﷺ: المسلم أخو المسلم: لايخونه ولا يكذبه ولا يخذله كل المسلم على المسلم حرام عرضه وماله ودمه التقوى هاهنا بحسب المسلم من الشر أن يحقر أخاه المسلم»[٤]

وقال: ﷺ:

«لاتحسدوا ، ولاتناجشوا، ولاتباغضوا، ولاتدابروا، ولايبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا»

المسلم أخو المسلم، لايظلمه ولايحقره ولايخذله، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات بحسب امرئ من الشر أن يحقره أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه ، وماله ، وعرضه»[٥]

لقد كان رسول الله ﷺ رحمة فى نفسه، ورحمة فى رسالته، وختاما نقول ما قال الله تعالى:

﴿قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٦].

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه البخارى ومسلم.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن.
(٥) رواه مسلم.
(٦) سورة المائدة آية: ١٥ - ١٦.

هديه ﷺ فى الجهاد

كان رسول الله ﷺ حاملاً لراية الجهاد فى كل وقت وحين، لم يتراجع فى موقعة قط، وكان يقود جيشه بنفسه، ولايولى يوم الزحف انه صلوات الله وسلامه عليه لم يتراجع يوم أحد، ولم يهزم فيها، لقد بقى حتى آخر لحظة يقاتل، وكسرت رباعيته، وسالت دماؤه وكانوا يتقون به فى المعركة.

والواقع أن رسول الله ﷺ فى جهاده كان يحقق الصورة المثلى للآية الكريمة:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(١)

وكان رسول الله ﷺ يحض دائماً على الجهاد ويأمر به لتحقيق كلمة الإسلام وجعلها هى العليا وكلمة الذين كفروا السفلى،

مر رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، بشعب فيه عيينة ماء عذبة فأعجبته فقال:

لو اعتزلت الناس فأقمت فى هذا الشعب: ولن أفعل حتى أستأذن رسول الله ﷺ،

فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال:

لاتفعل، فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته فى بيته سبعين عاماً، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ أغزوا فى سبيل الله، من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنة(٢).

وروى أبو داود باسناد جيد عن أبى أمامة رضي الله عنه قال:

أن رجلا قال: يارسول الله: أتذن لى فى السياحة؟ فقال النبى ﷺ :

أن سياحة أمتى: الجهاد فى سبيل الله عز وجل(٣)

وروى أبو دود- باسناد صحيح- عن أبى موسى رضي الله عنه أن النبى ﷺ، كان إذا خاف قوما قال:

---

(١) سورة الحجرات الآية: ١٥.
(٢) رواه الترمذى.
(٣) رواه أبو داود.

«اللهم إنا نجعلك فى نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم»[١]

ولكن هل المقصود بالجهاد الجهاد الحربى فقط؟

أو المقصود كل أنواع الجهاد؟

الواقع أننا إذا نظرنا إلى أحاديث الرسول ﷺ نجد أنواعا أخرى من الجهاد:

«جهاد الحاكم إذ لم يقم بمراعاة الحد والمحافظة على الشريعة الإسلامية»

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر[٢]»

ومن أفضل الجهاد الأمربالمعروف والنهى عن المنكر.

روى الترمذى عن حذيفة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعون فلا يستجاب لكم[٣]»

ومن أفضل الجهاد ابعاد المجتمع عن المهالك»

روى الإمام البخارى عن النعمان بن بشير عن رسول الله ﷺ قال:

مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: «لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فان تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا،وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجونا جميعا[٤]»

وأخيراً فإننا مطالبون بالجهاد فى كل وقت وحين، تأسيا بسيدنا رسول الله ﷺ فعلا وقلبا وقولا.

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان[٥]».

(١) رواه أبو داود.
(٢) رواه الترمذى وأبو داود.
(٣) رواه الترمذى.
(٤) رواه البخارى. (٥) رواه مسلم.

المعجزات الحسية

لسيدنا رسول الله ﷺ

وصل المشركون إلى حد الاستهزاء بسيدنا رسول الله ﷺ بقولهم «أهذا الذى بعث الله رسولا»؟

رغم ما عرفوه من أخلاقه الحميدة، التى سبق أن ذكرنا قسما منها، ورغم ما عرفوه عن كثير من معجزاته التى سنذكر الآن بعضها منها.

حادثة انشقاق القمر:

قال الله تعالى:

﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾

وقد أخرج الشيخان عن أنس قال:

«إن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية. فأراهم انشقاق القمر مرتين».

وأخرج الشيخان عن ابن مسعود قال:

انشق القمر بمكة على عهد رسول الله ﷺ شقين فقال رسول الله ﷺ:

«اشهدوا»

وأخرج الشيخان[1] عن ابن مسعود قال:

«انفلق القمر ونحن مع رسول الله ﷺ فصار فرقتين فلقة من وراء الجبل وفلقة دونه فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا».

وأخرج البيهقى، وأبو نعيم، عن جبير بن مطعم قال:

انشق القمر ونحن بمكة على عهد رسول الله ﷺ، حتى صار فرقتين على هذا الجبل،وعلى هذا الجبل فقال الناس:

سحرنا محمد، فقال رجل:

(١) رواه البخارى ومسلم.

إن كان سحركم فلم يسحر الناس كلهم،

وأخرج الشيخان عن ابن الياس:

أن القمر انشق على زمان رسول الله ﷺ وأخرج أبو نعيم، من طريق عطاء والضحاك - عن ابن عباس قال:

اجتمع المشركون على رسول الله ﷺ فقالوا:

إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين نصفا على أبى قبيس، ونصفا على قعيقعان - وكان ليلة بدر - فسأل رسول الله ﷺ، ربه أن يعطيه ما سألوا فأمسى القمر نصفين نصفاً على أبى قبيس، ونصفا على قعيقعان، ورسول الله ﷺ يقول:

«اشهدوا»

وأخرج من وجه آخر عن الضحاك عن ابن عباس:

أنه صار فرقتين احداهما: على الصفا، والأخرى على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل، ينظرون إليه ثم غاب؛

يقول الإمام السيوطى:

قال العلماء: انشقاق القمر آية عظيمة، لايكاد يعدلها شىء، من آيات الأنبياء وذلك أنه ظهر فى السماء خارجاً من جملة طباع ما فى هذا العالم المركب من الطبائع، فليس مما يطمع فى الوصول إليه بحيلة فلذلك صار البرهان به أظهر[1].

هذا عن حادث شق القمر وقد تواردت فيه الروايات بما يفيد لنا أن أمره كان ظاهرا واضحا لا لبس فيه، وأنه كان تحت أعين المشركين ، ولكنهم عتوا واستكبروا، واستمروا فى طغيانهم.

عصمته من الناس:

أخرج الترمذى، والحاكم، والبيهقى، وأبو نعيم، عن عائشة قالت:

كان النبى ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[2]

(١) الخصائص الكبرى أو كفاية الطالب اللبيب فى خصائص الحبيب للحفاظ جلال الدين عبد الرحمن أبى بكر السيوطى جـ١ ص ٣١٤.

(٢) سورة المائدة الآية: ٦٧.

فأخرج رأسه من القبة فقال: لهم:

«أيها الناس انصرفوا فقد عصمنى الله»

وأخرج أحمد، والطبرانى، وأبو نعيم، عن جعدة قال:

شهدت النبى ﷺ وأتى برجل فقيل: هذا اراد أن يقتلك، فقال له رسول الله ﷺ:

لن تراع ولن تراع لوأردت ذلك لم يسلطك الله على وأخرج مسلم عن أبى هريرة قال:

قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزى، لئن رأيته، يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أولأعفرن وجهه فى التراب، فأتى رسول الله ﷺ، وهو يصلى ليطأ على رقبته فلما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه يتقى بيده فقيل له مالك؟ قال:

إن بيني وبينه خندقا من نار، وهولا وأجنحة فقال رسول الله ﷺ :

لو دنا منى لاختطفته الملائكة، عضوا عضوا، وأنزل الله ، ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلاَّ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلاَّ لا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾[1] .

بعض المعجزات الأخرى:

أخرج ابن أبى شيبة، وأبو يعلى، والدارمى، والبيهقى، وأبونعيم من طريق الأعمش، عن أبى سفيان، عن أنس قال

جاء جبريل إلى النبى ﷺ، وهو خارج من مكة قد خضبه أهل مكة بالدماء، قال: مالك؟

قال خضبنى هؤلاء بالدماء فعلوا وفعلوا،

---

(١) سورة العلق الآية: ٦ - ١٩.

قال: تريد أن أريك آية؟ قال: نعم ادع الشجرة فدعاها فجاءت تخط الأرض حتى قامت بين يديه، قال مرها فلترجع قال:

ارجعى إلى مكانك، فرجعت إلى مكانها قال حسبى(١)

در الجذعة للبن:

أخرج الطيالسى، وابن سعد، وابن أبى شيبة، والبيهقى وأبونعيم، عن ابن مسعود قال:

كنت غلاما يافعا أدعى عتما لعقبة ابن أبى معيط بمكة، فأتى على رسول الله ﷺ، وأبوبكر، وقد فرا من المشركين، فقالا:

ياغلام عندك لبن تسقينا؟

قلت: إنى مؤمن

فقالا: هل عندك من جذعة لم ينزل عليها الفحل بعد؟

قلت: نعم،

فأتيتهما بها فاعتقلها ودعا فجفل الضرع فأتاه أبو بكر بصخرة مقعرة، فحلب فيها ثم شرب هو وأبو بكر وسقانى، ثم قال للضرع اقلصى، فقلص كما كان(٢)

معجزاته ﷺ فى الجفنة التى أطعم منها أربعين رجلا من قومه

أخرج ابن اسحاق، والبيهقى، من طريقه حدثنى من سمع عبدالله ابن الحارث بن نوفل، عن ابن عباس، عن على بن أبى طالب قال:

لمانزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ:

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾(٣)

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ١ ص٤٢.
(٢) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ١ ص ١٠٣.
(٣) سورة الشعراء الآية: ٢٤.

قال: ياعلى اصنع لنا رجل شاة على صاع من طعام وأعد لنا عسس لبن ثم اجمع بنى عبدالمطلب ففعلت فاجتمعوا له وهم يومئذ أربعون رجلا يزيدون رجلا أوينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب، وحمزة، والعباس، وأبو لهب، فقدمت إليهم تلك الجفنة، فأخذ منها رسول الله ﷺ حذية فشقها بأسنانه، ثم رمى به فى نواحيها، وقال كلوا بسم الله، فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما نرى إلا آثارأصابعهم، والله إن كان الرجل منهم يأكل مثلها ثم قال:

اسقهم ياعلى، فجئت بذلك القعب فشربوا منه حتى نهلوا جميعا وأيم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال:

لقد سحركم صاحبكم فتفرقوا، ولم يكلمهم رسول الله ﷺ، فلما كان الغد قال:

ياعلى عد لنا بمثل الذى صنعت بالأمس من الطعام والشراب، ففعلت ثم جمعتهم له فصنع رسول الله ﷺ، كما صنع بالأمس فأكلوا وشربوا حتى نهلوا، ثم قال رسول الله ﷺ:

يابنى عبدالمطلب، إنى والله ما أعلم شابا من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إنى قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة.

أخرجه أبو نعيم من طريق ابن اسحاق عن عبدالغفار بن القاسم عن المنهال بن عمرو عن عبدالله بن الحارث بن نوفل به[1].

---

(١) الخصائص الكبرى للسيوطى جـ١ ص٣٠٧.

تتمة تتعلق بالجزاء

عندما نتحدث عن الجزاء ونجعله تتمية للبابين السابقين فإنما نتحدث عنه باعتباره نتيجة للإيمان بهذين المبدأين الهامين: الألوهية، والنبوة.

وتأتى أهمية هذه التتمة أيضا لتعظيم الله سبحانه وتعالى لتكذيبهم بالساعة،

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾[١]

ويشمل التهديد أيضا تصوير سورة الفرقان لجو الآخرة بالنسبة لمن لا يؤمن بالله، ولا برسوله ﷺ:

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً﴾

﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾

﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾[٢]

ثم يقارن الله سبحانه وتعالى موقف الكافرين بموقف المؤمنين:

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً﴾

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾[٣].

هذا التصوير القرآنى لجو الحياة الآخرة، يدعونا إلى أن نكتب هذه التتمة عن الحياة الأخرى.

وقبل أن نشرع فى تفسير الآيات المتعلقة بهذا الموضوع نعلق بمقدمة عن الجزاء الأخروى:

الحيـــاة:

الحياة تعلق الروح بالبدن واتصاله به[٤]

أو هى الصفة التى يكون الموصوف بها ذا علم وقدرة[٥].

---

(١) سورة الفرقان الاية: ١١.
(٢) سورة الفرقان الآيات: ١٢ - ١٤.
(٣) سورة الفرقان الآيات: ١٥ - ١٦.
(٤) من تفسير فتح البيان جـ٤ ص ٦١١.
(٥) من تفسير الفخر الرازى جـ٢٠ ص ٥٤.

هذه هى الحياة فى تعاريف العلماء، والواقع أن الله سبحانه وتعالى خلقنا فى الحياة الدنيا لنعرف كمال قدرته، وإحاطة علمه، فنعبده وحده لاشريك له، فانه خلقنا من بطون أمهاتنا، لا نعلم شيئ، ولا نقدر على شئ، ولا نملك شيئا، ولا نقدر على منع ضر، ولادفع شر، ثم مكنا الله سبحانه وتعالى من هذه الحياة الدنيا، وسخر لنا ما فى بحرها وبرها وجوها، وجعل لنا السلطان على دواب الماء وعلمنا مالم نكن نعلم.

ومع ذلك كفرنا، ولم نضع فى اعتبارنا: أنه لم يخلقنا إلا لنعبده وحده لاشريك لــه[1]، بل اندفعنا وراء شهواتنا، ووراء مصالحنا الدنيوية اندفاعا انسانا كل ما يتعلق بحق الله، سبحانه وتعالى، وجعلنا الحياة الدنيا هى كل مطلبنا، وهى الألم الذى تهفو إليه النفوس فى كل وقت وحين، ونسينا الحياة الآخرة التى هى الحيوان لو كنا نعلم.

روى الإمام أحمد فى مسنده – من حديث بشر بن جحاش القرشى – أن رسول الله ﷺ، بصق يوما فى كفه، فوضع عليها أصبعه، ثم قال: قال الله تعالى:

يا ابن آدم أنى تعجزنى وقد خلقتك من مثل هذه حتى إذا سويتك وعدلتك مشيت بين بردين، وللأرض منك وئيد، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت التراقى قلت: أتصدق وأنى أوان الصدقة[2].

والواقع: أن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى، فينسى أصله ويكذب بالحسنى، ويجهل أنه راحل من هذه الدنيا إلى حياة الأخرى.

عن أبى الدرداء رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال:

«لولا ثلاث ما طأطأ ابن آدم رأسه، الفقر، والمرض، والموت، وإنه مع ذلك لوثاب[3].

وفى شرح الصدور للسيوطى بسنده، إلى ابن أبى شيبه فى مصنفه، والامام أحمد فى كتاب الزهد، عن حبيب بن الشهيد، عن الحسن، قال:
لما خلق الله تعالى آدم وذريته قالت الملائكة:

إن الأرض لا تسعهم،

---

(١) وماخلقت الجن والانس لا ليعبدون.
(٢) مسند الامام أحمد بن حنبل جـ٤ ص١٢٠.
(٣) أنظر تفسير القرطبى جـ١٨ ص٢٠٦.

قال إنى جاعل موتا،

قالوا: إذا لايهنأ لهم العيش.

قال: إنى جاعل أملا[١]

وعن أنس رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنتان: الحرص، وطول الأمل.

وعن الامام على كرم الله وجهه يرفعه:

إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل[٢].

فان اتباع الهوى يصد عن الحق وطول الأمل يقرب الدنيا ويبعد الآخرة ولا يدرى الإنسان أن الموت أقرب إليه من حبل الوريد.

ويوضح لنا ذلك الإمام الحسن البصرى بقوله:

من أراد الدنيا على الآخرة عاقبه الله بست عقوبات:

ثلاث فى الدنيا، وثلاث فى الآخرة.

أما التى فى الدنيا، فأمل ليس له منتهى، وحرص غالب ليس له حد، وأخذ منه حلاوة العبادة،

وأما التى فى الآخرة:

فهول يوم القيامة، الحساب الشديد، والحسرة الطويلة[٣]

وقد بين سيدنا رسول الله ﷺ، أن طول الأمل فى الدنيا مذموم، ويؤدى إلى أن ينسى الإنسان آخرته ويغتر بدنياه:

كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد نفسك فى أهل القبور[٤]

الموت:

يقول الله تعالى:

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[٥].

---

(١) أخرجا الامام أحمد وابن أبى شيبة.

(٢) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

(٣) فى الصحيحين، والنسائى، وأحمد.

(٣) من كتاب المنبهات لمؤلفه أحمد محمد الحجى.

(٤) روى أوله، وآخره الامام أحمد والترمذى وابن ماجه، فى رواية: وعد نفسك من أهل القبور، كما جاء فى مجمع الزوائد.

(٥) سورة الزمر الآية: ٤٢.

وقد بين لنا العلماء حقيقة الموت أخذا من النصوص الشرعية، والبراهين العقلية، فهو ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن ظاهرا وباطنا، ومفارقة وحيلولة بينهما، وتبدل من حال إلى حال، وانتقال من دار إلى دار، بخلاف النوم، فانه انقطاع الروح عن ظاهر البدن من بعض الوجوه(١).

يقول الإمام ابن عباس فى تفسير قوله تعالى:

﴿الله يتوفى الأنفس﴾ ... الآية

تلتقى أرواح الأحياء وأرواح الأموات فى المنام فيتسائلون ما شاء الله، ثم يمسك الله أرواح الأموات، ويرسل أرواح الأحياء إلى أجل مسمى، لايغلط شيء منها، فذلك قوله تعالى:

﴿إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾(٢)

حقيقة الــروح:

اختلف العلماء فى حقيقة الروح، فريق أمسك عن الكلام والبحث فيها واعتبرها سراً من أسرار الله سبحانه وتعالى، استأثر الله بعلمه ولم يؤته أحدا من البشر، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾(٣) .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه قال:

كنت مع النبى ﷺ فى قرب المدينة، وهو متكئ على عسيب، فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح،

فقال بعضهم لا تسألوه، فقالوا يامحمد ما الروح؟

فمازال متكئا على العسيب فعلمت أنه يوحى إليه، فقال:

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»(٤)

ومن هذه الطائفة أيضا الإمام الجنيد رضي الله عنه، يقول:

(١) انظر شرح الصدور، وبشرى المكئيب للسيوطى ص١ – ص١٢.
(٢) أخرجه بن مردوية، عبد ابن حميد وابن جرير والمنذر والطبرانى. فى الأوسط، وأبو الشيخ فى العظمه.
(٣) سورة الاسراء الآية: ٨٥.
(٤) أخرجه ابن أبى حاتم فى الصحيحين.

الروح شيئ استأثر الله تعالى بعلمه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز لعباده البحث عنه بأكثر من أنه موجود.

وقد ثبت هذا الرأى عن الإمام ابن عباس رضى الله عنهما، أنه كان لايفسر الروح، فعن عكرمة قال:

سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن الروح، قال:

الروح من أمر ربى لا تنالوا هذه المسألة، فلا تزيدوا عليها، قولوا كما قال الله تعالى وعلم نبيه:

«وما أوتيتم من العلم إلا قليلا»[١].

أما الطائفة الثانية التى عرفت الروح فيعبر عنها الإمام ابن القيم بقوله فى كتابه الروح:

والصحيح أن الروح جسم مخالف بالماهية، لهذا الجسم المحسوس وهو – أى الروح – جسم نورانى علوى خفيف، حى متحرك شفاف ، ينفذ فى جوهرالأعضاء، يسر فيها سريان الماء فى العود الأخضر، وسريان الماء فى الورد، والدهن فى الزيتون، والنار فى الفحم، فمادامت هذه الأعضاء صالحة لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقى هذا الجسم اللطيف متشابكا بهذه الأعضاء وأفادها هذه الآثار من الحس والحركة، والإرادة.

وإذا فسدت هذه الأعضاء بسبب ينافى الروح كاستيلاء الأخلاط الغليظة عليها ، وخرجت عن قبول تلك الأثار فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح. آ.هـ.

والواقع أن الرأى الأول هو الرأى الراجح فى نظرنا، وهو يمثل الجو الإسلامى العام، فالله سبحانه وتعالى اعتبرها من أمره، ولم يبين ماهيتها، ولم يخبر بهذا رسوله ﷺ، فلا ندرى حقيقتها ولا كنهها.

(١) أخرجه ابن أبى حاتم كما فى شرح الصدور.

البعــث

ادعى المشركون والملحدون على مر العصور أنه لايوجد بعث بعد هذه الحياة الدنيا، فكان قولهم دائما:

﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا﴾(١)

﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾(٢)

﴿مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾(٣)

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾(٤)

وكان رد الله سبحانه وتعالى مبطلا لزعمهم وزيف ادعائهم:

﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾(٥).

فالبعث كائن لا محالة، وهو النشأة الآخرة، التى يرجع فيها الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى، فيحاسب على حياته التى أمضاها، ففيه يكون سعادة الإنسان أو شقاؤه خالدا فى أحدهما ومؤديا ماعليه وقد بين لنا القرآن كيفية البعث عند الموت، وكيفيته عند قيام الساعة، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾(٦).

ويقول : ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾(٧)

ويقول : ﴿فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾(٨)

ويقـول : ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾(٩) ويقـول: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(١٠).

---

(١) سورة التغابن الآية: ٧. (٢) سورة الرعد الآية: ٥. (٣) سورة يس الآية: ٧٨.
(٤) سورة الجاثية الاية: ٢٤. (٥) سورة غافر الآية: ١٧. (٦) سورة الروم الآية: ٢٧.
(٧) سورة المؤمنون الآية: ١٦. (٨) سورة يس الآية: ٥١. (٩) سورة الإسراء الآية: ٥١.
(١٠) سورة القيامة الآيات: ٣، ٤.

ويقول : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[١].

وقد ذكرت لنا الأحاديث النبوية الشريفة كثيرا مما يتعلق بهذا الشأن ، نذكر منها:

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:

جاء العاصى بن وائل إلى رسول الله ﷺ بعظم حائل ففته بيده فقال:

يامحمد أيحى الله هذا بعد ما أرى؟

قال: نعم يبعث الله هذا ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم، فنزلت الآيات من آخر سورة يس:

﴿أولم ير الإنسان﴾ إلى آخر السورة[٢].

وعنه رضى الله عنهما قال:

قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال:

«يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده، وعدا علينا أنا كنا فاعلين»[٣].

وعن السيدة عائشة رضوان الله عليها قالت: فقلت الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض؟

قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك.

نفخة الصور الأولى:

وهى نفخة الفزع ، والتى بها تنتهى أحوال العالم:

﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[٤].

ويوضح لنا الحديث الشريف التالى: ما يحدث من هول ذلك اليوم:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ :

(١) سورة الأنبياء الآية: ١٠٤.
(٢) أخرجه بن جرير وابن المنذر وأبو حاتم والاسماعيلى فى معجمه والحافظ ابن مردوية والضياء فى المختارة والبيهقى فى البعث كما فى اللوامع جـ٢ ص١٥٨.
(٣) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحهما.
(٤) سورة النمل الآية: ٨٧.

إن الله لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه اسرافيل فهو واضعه على فيه شاخصا ببصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر.

قلت يارسول الله وما الصور؟

قال: القرن،

قلت: أى شيء هو؟

قال: عظيم إن عظم دارة فيه كعرض السماء والأرض فينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع ، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين.

فيأمر الله اسرافيل بالنفخة الأولى، فيقول: أنفخ نفخة الفزع، فينفخ فيفزع أهل السماء والأرض إلا من شاء الله، فيأمره فيمدها ويطيلها، ولا يغتر وهى التى يقول الله تعالى:

﴿وَمَا يَنظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾[1].

فيسير الله الجبال فتمر مر السحاب، فتكون سرابا وترتج الأرض بأهلها رجا فتكون كالسفينة الموقرة فى البحر تضربها الأمواج، وكالقنديل المعلق بالعرش تؤرجحه الأرواح، وهى التى يقول الله عنها:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾[2].

فتميل الأرض بالناس على ظهرها فتذهل المراضع، وتضع الحوامل وتشيب الولدان، وتطير الشياطين هاربة من الفزع حتى تأتى الأقطار فتتلقاها الملائكة، فتضرب وجوهها فترجع ويولى الناس مدبرين، وينادى بعضهم بعضا، وهو الذى يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[3].

(١) سورة ص الآية: ١٥.
(٢) سورة النازعات الآيات: ٦، ٧.
(٣) سورة غافر الآيات: ٣٢، ٣٣.

فبينما هم على ذلك إذ تصدعت الأرض، فانصدعت من قطر إلى قطر فرأوا أمرا عظيماً، ثم نظروا إلى السماء فإذا هى كالمهل ثم انشقت فانتثرت نجومها وانخسفت شمسها وقمرها.

قال رسول الله ﷺ، والأموات يومئذ لا يعلمون بشئ من ذلك.

قلت يارسول الله من استثنى الله تعالى فى قوله:

«إلا من شاء الله»؟

قال أولئك الشهداء - إنما يتصل الفزع إلى الأحياء، وهم أحياء عند ربهم يرزقون، وقاهم الله فزع ذلك اليوم، وآمنهم منه، وهو عذاب يبعثه الله على أشرارخلقه، يقول الله:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾(١).

﴿فيمكثون فى ذلك ما شاء الله﴾(٢)

النفخة الثانية:

وهى نفخة الصعق، وهى المشار إليها فى قوله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾(٣)

ويوضحها بقية الحديث المتقدم ذكره عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

ثم يأمر الله اسرافيل فينفخ نفخة الصعق فيصعق أهل السموات والأرض إلا من شاء الله، فيقول الله - وهو أعلم فمن بقى؟

فيقول أى رب بقيت أنت الحى القيوم، الذى لا يموت، وبقيت حملة العرش، وبقى جبريل ، وميكائيل، وبقيت أنا فيقول الله تعالى:

---

(١) سورة الحج الآيات: ١ -٢.

(٢) من حديث طويل وهو مخرج فى تفسير ابن جرير والطبرانى فى المطولات وفى مسند أبى يعلى وفى البعث للبيهقى وفى المطولات لأبى موسى المدنى وفى كتاب الطاعة والعصيان لعلى ابن معبد وعبد بن حميد أبى الشيخ العظمة كلهم عن أبى هريرة، ينظر فى ذلك النهاية لابن كثير جـ١ ص١٧١ اللوامع جـ٢ ص١٦١.

(٣) سورة الزمر الآية: ٦٨.

فليمت جبرول وميكائيل فيموتان، ثم يأتى ملك الموت إلى الجبار فيقول: «رب قد مات حملة العرش، فيقول: وهو أعلم فمن بقى؟ فيقول أنت الحى القيوم، الذى لا يموت، وبقيت أنا، فيقول أنت خلق من خلقى خلقتك لما رأيت، فمت فيموت، فإذا لم يبق إلا الله الواحد القهار وطوى السماء والأرض كطى السجل للكتب، وقال:

أنا الجبار، لمن الملك اليوم، ثلاث مرات، فلم يجبه أحد ثم يقول لنفسه: لله الواحد القهار،

وتبدل الأرض غير الأرض والسموات فيبسطها ويمدها مد الأديم لاترى فيها عوجا ولا أمتا «الحديث»[١]

الحشر:

والحشر معناه الجمع أى جمع أجزاء الإنسان بعد التفرقة وإيحاء الأبدان بعد موتها وحضورها للحساب.

يقول الله تعالى:

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾[٢]، أى زمرا تسوقهم الملائكة ومما يشرح ذلك قول رسول الله ﷺ:

يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة، شاخصة أبصارهم ينتظرون فصل القضاء.[٣]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه:

يعرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم فى الأرض سبعين ذراعا ويلجمهم العرق حتى يبلغ آذانهم[٤]

وعن المقداد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

إذا كان يوم القيامة أدنيت الشمس من العباد حتى تكون قدر ميل أو ميلين قال:

فتصهرهم الشمس فيكونون فى العرق كقدر أعمالهم، منهم من يأخذه إلى عقبيه، ومنهم من يأخذه إلى حقويه، ومنهم من يلجمه إلجاما[٥].

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم بروايات أخرى، وأخرجه بنحوه أيضا ابن ماجه وأبو داود باب الرؤية.

(٢) سورة النبأ الآية: ١٨.

(٣) أخرجه ابن أبى الدنيا بالطبرانة من عدة طرق احدها صحيح والحاكم وقال صحيح الإسناد.

(٤) ورد فى الصحيحين.

(٥) مسلم ومثله عن أبى بكر بن أبى الدنيا من رواية المقداد بن الأسود كما النهاية لابن كثير جـ١ ص٢٢٣.

ومن أوصاف بعض من يحشر يوم القيامة التى ذكرها سيدنا رسول الله ﷺ وصف المتكبرين.

عن جابر رضي الله عنه مرفوعا:

يبعث الله يوم القيامة ناسا فى صور الذر يطؤهم الناس بأقدامهم فيقال ما هؤلاء فى صور الذر؟

فيقال: هؤلاء المتكبرون فى الدنيا[1]،

وعن أبى هريرة رضي الله عنه مرفوعا:

يجاء بالجبارين والمتكبرين يوم القيامة رجال فى صور الذر، يطؤهم الناس من هوانهم على الله، حتى يقضى بين الناس ، قال:

ثم يذهب بهم إلى نار الأنيار، قيل يارسول الله وما نار الأنيار؟

قال: عصارة أهل النار[2].

النفخة الثالثة:

وهى نفخة البعث والنشور ويقول عنها الله سبحانه وتعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾[3]

ويقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[4]

﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[5]،

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[6].

ولأبى هريرة حديث فى ذلك:

إن الله يرسل مطرا على الأرض فينزل عليها أربعين يوما حتى يكون فوقهم اثنى عشر زراعا فيأمر الله تعالى الأجساد أن تنبت كنبات البقل حتى إذا تكاملت أجسادهم، كما كانت، قال الله تعالى:

---

(١) رواه البزار.
(٢) رواه الامام أحمد فى كتاب الزهد وكتاب لإبن كثير جـ١ ص٢٢٧.
(٣) سورة يس الآية: ٥١.
(٤) سورة الزمر الآية: ٦٨.
(٥) سورة ق آية: ٤١.
(٦) سورة ق الآية: ٤٢.

«ليحى حملة العرش، ليحى جبريل، وميكائيل، واسرافيل، وعزرائيل، ثم يأمر الله تعالى اسرافيل فيأخذ الصور فيضعه على فيه، ثم يدعو الأرواح فيؤتى بها تتوهج أرواح المؤمنين نورا، والأخرى ظلمة فيقبضها جميعا، ثم يلقيها فى الصور ثم يأمره، أن ينفخ نفخة البعث فتخرج الأرواح كلها كأنها النحل، قد ملأت مابين السماء والأرض، ثم يقول الله تعالى:

«وعزتى وجلال لترجعن كل روح إلى جسدها، فتدخل الأرواح من الخياشيم، ثم تمشى مشى السم فى اللديغ، ثم تنشق الأرض عنهم سراعا فأنا أول من تنشق عنه الأرض فتخرجون منها، إلى ربكم تنسلون، أى تخرجون من الأجداث أحياء، فيقول الكافرون والمنافقون حينئذ:

﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾[١]

ويقول المؤمنون:

﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[٢]

٢) الحساب:

والحساب هو تعريف الله عز وجل الخلائق، مقادير الجزاء على أعمالهم وتذكيره اياهم ما قد نسوه من ذلك[٣].

وقد ثبت فى القرآن الكريم يقول الله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤]

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[٦].

---

(١) سورة يس الآية: ٥٢.
(٢) الحديث شواهد مخرجه فى الصحيحين غيرهما، كما تؤيده الآيات القرآنية الكثيرة.
(٣) قاله الثقلى كما فى اللوامع جـ٢ ص١٧١.
(٤) سورة الحجر الآيات: ٩٢ - ٩٣.
(٥) سورة الرعد الآية: ١٨.
(٦) سورة الكهف الآية: ٤٩.

وقـول الله تعـالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١].

وأصح الأقوال أن الله تعالى يحاسب عباده فى شأن أعمالهم وثوابها وعقابها.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع خصال:

عن عمره فيما أفناه، وعن علمه وما عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه»[٢].

وعن عبدالله بن أنيس رضي الله عنه أنه سمع النبى ﷺ يقول:

يحشر الله العباد يوم القيامة، أو قال الناس: عراة غرلا بهما قال قلنا: ومابهما؟

قال: ليس معهم شئ، ثم يناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب: أنا الملك، أنا الديان، لا ينبغى لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحد من أهل الجنة حق حتى أقضيه منه، ولاينبغى لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد من أهل النار عنده حق حتى أقضيه منه حتى اللطمة.

قال: وكيف وانما نأتى عراة غرلا بهما؟

قال: الحسنات والسيئات[٣]

وعن الحسن قال: سمعت أبا موسى الأشعرى رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ:

يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضه تطاير الصحف:

«فمن أوتى كتابه بيمينه وحوسب حسابا يسيرا دخل الجنة، ومن أوتى كتابه بشماله دخل النار»[٤].

---

(١) سورة الزلزلة الآيات: ٧، ٨.
(٢) رواه الامام أحمد عن أبى الدنيا.
(٣) رواه الإمام أحمد والترمذى وأبو بكر.
(٤) الامام أحمد والترمذى وابن أبى الدنيا ولكنه ضعيف انظر هامش العقيدة الطحاوية.
(٥) العقيدة الطحاوية.

الميـــزان

وإذا نقص الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فإذا كان بعد المحاسبة، إذ المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لاظهار مقاديرها ليكن الجزاء بحسبها:

ويقول الله تعالى فى ذلك

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١).

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾(٢)

ويوضح ذلك: ما روى عبدالله بن عمر عن أبيه رضى الله عنهما من حديث جبريل عليه السلام عن الإيمان قال:

يامحمد ما الإيمان؟

قال أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة، والنار، والميزان، وتؤمن بالبعث، بعد الموت، وتؤمن بالقدر، خيره وشره.

قال: إذا فعلت ذلك فأنا مؤمن؟

قال: نعم،

قال: صدقت(٣).

وعن أبى مالك الأشعرى رضي الله عنه قال: قال : قال رسول الله ﷺ :

«الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان»(٤)

وفى خاتمة صحيح البخارى رضي الله عنه قوله ﷺ :

(١) سورة الأنبياء الآية: ٤٧.
(٢) سورة الأعراف الآية: ٨.
(٣) رواه البيهقى فى الشعب.
(٤) فى صحيح مسلم.

«كلمتان خفيفتان على اللسان حبيبتان إلى الرحمن ثقيلتان فى الميزان سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم».

وعن أنس رضي الله عنه قال: سألت النبى ﷺ أن يشفع فى يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قلت يارسول الله، فأين أطلبك؟

قال: أطلبنى أول ما تطلبنى على الصراط،

قلت: فان لم ألقك على الصراط؟

قال: فاطلبنى عند الميزان.

قلت فان لم ألقك؟

قال: فأطلبنى عند الحوض، قال: فانى لا أخطئ هذه الثلاثة المواطن[1] هـ.

وصح «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصى لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة»[2].

حقيقة الجنة

والجنة التى وعد المتقون هى دار الثواب أعدها الله لهم وهى فى الأصل مأخوذة من الجن بمعنى الستر وتطلق على البستان الذى سترت أشجاره أرضه وعلى الأرض التى بها شجر ونخل، كماتطلق على نفس الشجر ثم صارت علما على دارالثواب التى فيها من أنواع النعيم مالا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وجمعت الجنة جمع قلة لقلتها عددا مع اشتمال كل واحد منها على درجات متفاوته بحسب تفاوت درجات الأعمال.

وقد ورد أنها سبع جنات هى الفردوس والمأوى والخلد والنعيم ودار السلام ودار الإجلال وهذا رأى ابن عباس.

(١) أخرجه الترمذى وحسنه والبيهقى.
(٢) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

وذهب آخرون إلى أنها أربع فقط بدليل قوله تعالى فى سورة الرحمن ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ هما النعيم والمأوى.

ثم قال تعالى: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ (عدن والفروس).

وقيل الجنة واحدة والأسماء المتقدمة صادقة عليها والحق الذى يجب الإيمان به أن الجنة هى دار الثواب التى وعدها الله عباده الصالحين.

أما أنها واحدة أو أكثر فهذا بحث لايترتب عليه كبير فائدة ولم يرد فى ذلك نص صريح أو مستند صحيح.

وقد وصف الله سبحانه وتعالى الجنة بقوله: ﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾.

ويتحدث عن النعيم الذى يلاقيه أهلها بقوله:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾

﴿مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾

﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾

ويتحدث عنهم أيضا بقوله:

﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾

﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾
﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾
﴿ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴾
وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴾
﴿ لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ﴾
﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾
﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً ﴾
﴿ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ﴾
﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾
﴿ لأَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾

حقيقة جنهم:

ولقد أخبر سبحانه أنه أعد للمنافقين والمشركين جهنم لتكون لهم دار عذاب مقيم خالدين فيها وجاء هذا العقاب جزاء لهم لسوء صنيعهم وساءت جهنم لهم مصيرا.

وجهنم اسم من أسماء النار الأخروية وتسمى أيضا سعيراً وتسمى لظى وتسمى سقر، وتسمى الهاوية وتسمى الجحيم، وتسمى الحطمة.

وقيل أن هذه أسماء لطبقات متفاوته فى النار لكل طبقة طائفة خاصة، وليس لهذا القول مستند فى اختصاص كل اسم بطبقة معينة، ولا فى اختصاص كل طبقة بطائفة وكونها درجات متفاوتة فى أنواع العذاب لايستلزم أن هذه أسماء لطبقات مختلفة،

فالواجب اعتقاده أن لله تعالى دار عقاب أعدها للمنافقين والمشركين ليخلدوا فيها وسيعذب بها من شاء من عصاة المؤمنين قبل أن يدخلهم الجنة.

وقد صرح القرآن الكريم أن للنار سبعة أبواب لكل باب طائفة خاصة من العصاة (وإن جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم).

وقد عين قوم لكل باب فريقا من العصاة يدخلون منه، ولا سبيل إلى القطع فى مثل ذلك.

وجود الجنة والنار

وقد ذهب الجمهور إلى أن الجنة والنار موجودتان الآن لأن هذا هو المتبادر من قوله تعالى فى صفة النار:

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً﴾.

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

وقوله تعالى فى صفة الجنة:

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، حيث عبر فى جميعها بالماضى وهو «أعدت»،

وقوله تعالى:

﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

وقوله تعالى عن الرسول ﷺ:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ ولا مقتضى للعدول عن هذا الظاهر، ويرى بعض المعتزلة أن الجنة والنار سيوجدان يوم الجزاء ولا وجود لهما الآن وقد افترقت مسالك هذا الفريق فى الاستدلال فمنهم من سلك مسلكا عقليا محتجا بأن الجنة والنار دار الجزاء والجزاء انما يكون فى الدار الآخرة بعد البعث فالحكمة تقتضى ايجادهما يومئذ، أما إيجادهما الآن فهو خال عن الحكمة فيكون عبثا، والله تعالى متنزه عن العبث فى أفعاله.

والجواب أن الحكمة فى ايجادهما الآن لا تنحصر فى الجزاء فيجوز أن يكون لايجادهما الآن حكمة لا نعلمها كما هو الشأن فى كثير من أفعاله تعالى حيث

يعجزالعقل عن ادراك حكمته وعدم الاطلاع على الحكمة لا يقتضى عدمها فيجب التسليم بما ورد فى الآثار، ومن هذا الفريق من سلك طريق النقل محتجا بقوله تعالى:

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾، فلو كانت الجنة والنار موجودتين الآن للحقهما الهلاك وقد ضمن لهما عز وجل البقاء والخلود، وقال فى وصف الجنة:

﴿أكلها دائم وظلها﴾ وهذا الدوام ينافى طروء العدم عليهما فوجب ألا توجد الجنة والنار إلا بعد البعث حتى لايعتريهما الفناء ويجاب بأن المراد بالهلاك فى قوله تعالى:

﴿وكل شيء هالك إلا وجهه﴾ الهلاك الحكمى بمعنى أن الممكن لما كان وجوده ضعيفا بالنسبة إلى واجب الوجود جل شأنه لاستفادة وجود الممكن من غيره كان فى حكم الهالك المعدوم وهذا أولى من الأجوبة الأخرى مثل: المراد بالهلاك، الهلاك الصورى الذى هو تفرق الأجزاء لحظة وهو لا ينافى دوام الذات ومثل قولهم: المراد بدوام أكل الجنة الدوام البدلى لاستحالة دوام مأكول بعينه.

ولا أدرى كيف تمسك هذا الفريق من المعتزلة بهذه الآية مع امكان تأويلها وتمشيها مع الآيات الأخرى والأحاديث الكثيرة.

ولو تأمل المنكرون وجود الجنة والنار قليلا، وأنصفوا فى حكمهم وقرأوا السنة بامعان لوجدوا فى كثير من الأحاديث الصحيحة التصريح بوجودهما الآن، ولاعترفوا بأنه ليس هنالك ما ينافيه عقلا، أو لم يسمعوا قوله ﷺ فى حديث الاسراء الذى أخرجه البخارى وغيره:

«ثم أدخلت الجنة فإذا فيها حبائل اللؤلؤ وإذا ترابها المسك» هذه هى مقدمة تفسير الآيات ذكرناها لتكون مدخلا لهذا التفسير[1].

(١) ينظر فى هذا الموضوع كتب التوحيد التفسير الحديث حيث فصلت فيه تفصيلا كبيرا وكذلك تفسير سورة الفتح للدكتور أحمد السيد الكومى، وكتاب السفينة الماخرة فى البرزخ والحياة الآخرة.

تفسير الآيات

كان من رد الله سبحانه وتعالى على المشركين اخباره لهم عن أمرهم فى الآخرة، ومصيرهم الذى سيلقونه فيها، مما يزيد من قيمة رده ﷺ على المشركين، ويبين مقدار ماسينالهم من العذاب فيها إذا هم استمروا فى لجاجهم وعنادهم، يقول الله تعالى:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيراً﴾[1].

كأن الله سبحانه وتعالى يقول: ما منعهم من الإيمان بك، وبما جئت به من الحق، الاتكذيبهم بالساعة لكسلهم عن الاستعداد لها وحبا فى حياتهم الدنيا ليفعلوا فيها مايشاؤون ، دون احساس بمسئولية الساعة وتبعاتها.

ويجوز أن يكون الكلام هنا انتقالا إلى حكاية نوع آخر من أباطيلهم متعلق بأمر المعاد، وماقيل كان متعلقا بأمر التوحيد، والنبوة، ويقول فى ذلك الإمام الألوسى:

«ولايضر فى ذلك العود إلى ما يتعلق بالكلام السابق، واختلاف أساليب الحكاية لاختلاف المحكى، وما ألطف تصدير حكاية مايتعلق بالآخرة ببل الانتقالية»[2]

ويمكن أن تحمل الآية على المعنيين، على أننا نرجع المعنى الأول، لأن المقام مقام رد على شبه المشركين، وبيان تهافتهم، وتشارك فى ذلك رأى الفخر الرازى حيث يقول:

فهذا جواب ثالث من تلك الشبهة، كأنه سبحانه قال: ليس ما تعلقوا به شبهة علمية فى نفس المسألة، بل الذى حملهم على تكذيك تكذيبهم بالساعة استثقالا للاستعداد لها.

ويحتمل أن يكون المعنى: أنهم يكذبون بالساعة فلا يرجون ثواباً ولا عقاباً، ولا يتحملون كلفة النظر والفكر، فلهذا لا يتفقون مما يورد عليهم من الدلائل قال: ﴿واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا﴾[3]

---

(١) سورة الفرقان الآية: ١١.

(٢) تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم السبع المثانى للإمام الألوسى جـ١٨ ص٢١٨.

(٣) الفخر الرازى جـ٢٤ ص٥٥.

لبيان ما لهم فى الآخرة، بسبب تكذيبهم بسيدنا رسول الله ﷺ، وعدم إيمانهم بما جاءوا منها تكذيبهم بالساعة، فقد أعد الله سبحانه وتعالى سعيرا، أى ناراً شديدة الإيقاد.

يقول الإمام الألوسى: «أى هيئنا لهم نارا عظيمة شديدة الاشتعال، شأنها كيت، كيت، بسبب تكذيبهم بها، على مايشعر به وضع الموصول موضع ضميرهم، أو لكل من كذب بها كائنا من كان، وهم داخلون فى ذلك دخولا أوليا[1].

ويقول الفخر الرازى قوله:

«وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا»، صريح فى أنه تعالى أعد جهنم[2].

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيراً﴾[3].

زيادة بيان لمقدار العذاب الذى سينال المشركين نتيجة أعمالهم وطغيانهم وإنكارهم، وإذا رأتهم هنا صفة للسعير، وإسناد الرؤية إليها لا يمنع أن تكون حقيقة ولا داعى لتأويلها، وهذا هو الرأى المعتمد عند الألوسى حيث يقول:

وإسناد الرؤية إليها حقيقة على ماهو الظاهر وكذا نسبة التغيظ والزفير فيما بعد، إذ لا امتناع فى أن يخلق الله تعالى النار حية مغتاظة زافرة على الكفار، فلا حاجة إلى تأويل الظواهر الدالة على أن لها إدراكا كهذه الآية: وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[4].

وقوله ﷺ- كما فى صحيح البخارى-

«شكت النار إلى ربها فقالت: رب أكل بعضى بعضا، فأذن لها بنفسين: نفس فى الشتاء، ونفس فى الصيف».

إلى غير ذلك، وإذا صح ما أخرجه الطبرانى، وابن مردويه من طريق مكحول، عن أبى أمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده بين عين جهنم»

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى جـ ١٨ ص٢١٨.
(٢) الفخرا لرازى جـ ٢٤ ص ٥٣.
(٣) سورة الفرقان الآية: ١٢.
(٤) سورة ق الآية: ٣٠.

قالوا يارسول الله هل لجهنم من عين؟

قال نعم أما سمعتم الله تعالى يقول:

إذا رأتهم من مكان بعيد، فهل تراهم إلا بعينين؟».

كان ما قلناه هو الصحيح وإسنادها إليها لا إليهم للإيذان بأن التغيظ والزفير منها لهيجان غضبها عليهم عند رؤيتها إياهم[1].

ويشارك الإمام الألوسى فى الرأى، الإمام الفخر الرازى، حيث يقول: «مذهب أصحابنا أن البنية ليست شرطاً فى الحياة، فالنار على ما هي عليه يجوز أن يخلق الله الحياة، والعقل والنطق فيها.

وعند المعتزلة ذلك غير جائز، وهؤلاء المعتزلة ليس لهم فى هذا الباب حجة إلا استقراء العادات، ولو صدق ذلك لوجب التكذيب بانخراق العادات فى حق الرسل، فهؤلاء قولهم متناقض، بل إنكار العادات لا يليق إلابأصول الفلاسفة، فعلى هذا قال أصحابنا قول الله تعالى فى صفة النار: ﴿وإذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا﴾

يجب إجراؤه على الظاهر، لأنه لا امتناع في أن تكون الجنة جنة رائية مغتاظة على الكفار.

فإذا رأتهم النار «من مكان بعيد» وهو أقصى ما يمكن أنه يرى منه «سمعوا لها تغيظا وزفيرا»، أى سمعوا لها صوت تغيظ، وقد يكون على الحقيقة أى صوت تغيظ، وقد يكون ما عبر عنه الفخر الرازى بقوله:

«والمعنى علموا لها تغيظا وسمعوا لها زفيرا، وهذا قول قطرا وهو كقول الشاعر متقلدا سيفا ورمحا، أو المراد تغيظ الخزنة»[2].

أما الزفير فهو إخراج النفس بعد مدة، والزفير هنا على حقيته يقول الإمام الألوسى:

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للإمام الألوسى جـ ٢٤ ص ٢٣٠.
(٢) الفخر الرازى جـ ٢٤ ص٥٦.

والأخبار ظاهرة فى أن النار هى التى تزفر وأن الزفير[١] على حقيقته ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾[٢].

ثم يأتى وصف الله تعالى لموقف الكافرين فى جهنم عنه مايلقوا فيها، أى إذا ألقوا فيها فى مكان ضيق، والضيق هنا صفة للمكان، لبيان زيادة الكرب وشدته، على عكس وصفه للجنة بالسعة، بأن عرضها السموات والأرض[٣].

ويقول الألوسى نقلا عن ابن عباس:

أنها تضيق عليهم كما يضيق الزج فى الرمح.

ومقرنين المقصود بها مقيدين رغم ما هم فيه من العذاب الشديد.

يقول الإمام أبو حيان التوحيدى: مقرنين قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل.

وقيل يقرن مع كل كافر شيطانه فى سلسلة ، وفى أرجله الأصفاد[٤].

وتكون نتيجة وجودهم فى مكان ضيق، وقرنهم بالأصفاد والعذاب الرهيب الذى يعانونه أن «دعا هنالك ثبورا»، أى يدعو فى ذلك المكان الرهيب ثبورا، أى هلاكا فيتمنون الهلاك ليسلموا مما هو أشد منه.

يقول أبو حيان

والظاهر دعاء الثبور، وهو الهلاك فيقولون وثبوراه، أى يقال ياثبور فهذا أوانك[٥].

فيكون الرد عليهم:

﴿لاتدعوا اليوم ثبورا واحدا﴾.

تنبيه على خلودهم فى العذاب، ولاينالون ما يتمنونه من الهلاك المنجى يقول الإمام الألوسى:

كأنه قيل فماذا يكون عند دعائهم المذكور، فقيل: يقال لهم ذلك، والمراد به إقناطهم عما علقوا به أطماعهم من الهلاك، وتنبيههم على أن عذابهم الملجئ لهم إلى ذلك

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى جـ١٨ ص٢٢٠.

(٢) سورة الفرقان الآية: ١٣.

(٣) كما جاء فى قوله تعالى: «سارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين».

(٤) البحر المحيط جـ٦ ص٤٨٤. (٥) البحر المحيط جـ٦ ص٤٨٤.

أبدى لاخلاص لهم منه، على أبلغ وجه، حيث أشار إلى أن المخلص مما هم فيه من العذاب عادة غير مخلص، ومايخلص غير ممكن فكأنه قيل: «لاتدعوا اليوم هلاكا واحدا، فانه لا يخلصكم»[١].

«وادعوا ثبورا» وادعوا هلاكا «كثيرا» لا حد لكثرته ترون فيه العذاب أشتاتا وألوانا.

يقول الفخر الرازى:

ومعنى ادعوا ثبورا كثيرا، أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا، إنما هو ثبور كثير، إما لأن العذاب أنواع وألوان لكل نوع منها ثبور لشدته وفظاعته أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا غيرها، أو لأن العذاب دائم خالص عن الشوب فلهم فى كل وقت من الأوقات التى لانهاية لها ثبور، أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعا من الخفة فان المعذب إذا صاح وبكى وجد بسببه نوعان من الخفة فيزجرون عن ذلك ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم ليزداد حزنهم وغمهم نعوذ بالله منه[٢].

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيراً ﴿١٥﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْداً مَّسْئُولاً﴾[٣].

ويقارن سبحانه وتعالى موقف الكافرين فى الآخرة بموقف المؤمنين باستفهام يراد به التوقيف والتوبيخ وتفضيل الجنة على النار.

قال ابن عطية:

وحيث كان الكلام استفهاما جاز فيه مجئ لفظه للتفضيل بين الجنة والنار فى الخير، لأن الموقف جائز له أن يوقف محاورة على ماشاء ليرى هل يجيبه بالصواب أو بالخطأ، وإنما منع سيبويه وغيره من التفضيل، إذا كان الكلام خبرا لأن فيه مخالفة، وأما إذا كان استفهاما فذلك سائغ ، انتهى.

---

(١) تفسير روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى جـ١٨ ص ٢٢٢.
(٢) الفخر الرازى جـ٢٤ ص٥٦.
(٣) سورة الفرقان الآيات: ١٥، ١٦.

وما ذكره يخالفه قوله فشر كما الخير كما الغداء.

وقوله: ﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾[(١)]، فان هذا خير.

وكذلك قولهم: العسل أحلى من الخل، إلا أن تقيد الخير بأنه إذا كان واضحا الحكم فيه للسامع بحيث لايحتاج فى ذهنه ولايتردد أيهما أفضل، فانه يجوز، وضمير التى محذوف، أى وعدها ، وضمير مايشاؤون كذلك، أى مايشاؤونه، وفى قوله: مايشاؤونه دليل على أن حصول المرادات بأسرها لاتكون إلا فى الجنة وشمل قوله: جزاءومصيرا، الثواب ومحله- كا قال- ﴿نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾[(٢)].

وفى ضده: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[(٣)].

لأنه بطيب المكان يتضاعف النعيم كما أنه برداءته يتضاعف العذاب وعدا أى موعودا مسئولا سألته الملائكة فى قولهم:

﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾[(٤)] قال محمد بن كعب:

والناس فى قولهم: ﴿رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾[(٥)].

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾[(٦)].

وقال معناه ابن عباس وابن زيد:

وقال الفراء: «وعدا مسئولا» أى واجبا، يقال لأعطيتك ألفا وعدا مسئولا، أى واجبا، وإن لم يسأل، قيل: وما قاله الفراء محال. أ.هـ.

وليس محالا إذ يكون المعنى أنه ينبغى أن يسأل هذا الوعد الذى وعدته أو يصدد أن يسأل، أى من حقه أن يكون مسئولا.

وعلى ربك أى بسبب الوعد، صار لابد منه[(٧)].

(١) سورة يوسف الآية: ٣٣.
(٢) سورة الكهف الآية: ٣١.
(٣) سورة الكهف الآية: ٢٩.
(٤) سورة غافر الآية: ٨.
(٥) سور آل عمران الآية: ١٩٤.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٠١.
(٧) البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى جـ٦ ص٤٨٦.

ويقول الفخر الرازى فى تعليقه على الجنة:

شرط نعيم الجنة أن يكون دائما إذ لو انقطع لكان مشوبا بضرب من الغم، ولذلك قال المتنبى:

«أشد الغم عندى فى سروره تيقن عنه صاحبه انتقالا».

ولذلك اعتبر الخلود فيه فقال: ﴿لهم فيها ما يشاؤون خالدين﴾.

وقوله تعالى: ﴿لهم فيها مايشاؤون﴾، كالتنبيه على أن حصول المرادات بأسرها لايكون إلا فى الجنة، فأما فى غيرها فلا يحصل ذلك، بل لابد فى الدنيا من أن تكون راحاتها مشوبة بالجراحات، ولذلك قال عليه السلام:

«من طلب مالم يخلق أتعب نفسه ولم يرزق»، فقيل: وما هو يارسول الله؟ فقال: «سرور يوم».

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنبَغِي لَنَا أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾[2].

ويوم يجمع الله سبحانه وتعالى الكافرين يوم القيامة، ومعهم ما عبدوهم من دون الله سواء الأصنام أو غيرها من المعبودات التى لاتعقل، فيقدر الأصنام التى لاتعقل على هذا المقالة:

أما الذين يعقلون مثل سيدنا عيسى عليه السلام والعزيز والملائكة، فانهم يستطيعون الرد لأنهم يعقلون، وقد اختار صاحب البحر المحيط، بأن المراد المعبودات التى تعقل يقول:

وقال الجمهور من عبد معبود يعقل ممن لم يأمر بعبادته: كالملائكة، وعيسى، وعزيز، وهو الأظهر كقوله:

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٦ ص٢٥٦.
(٢) سورة الفرقان الآيات: ١٧ - ١٩.

﴿أأنتم أضللتم﴾ وما بعده من المحاورة التى ظاهرها أنها لاتصدر إلا من العقلاء وجاء ما يشبه ذلك منصوصا فى قوله: ثم تقول للملائكة: «أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون؟ أأنت قلت للناس: اتخذونى وأمى إلهين من دون الله؟

وسؤاله تعالى- وهو عالم بالمسئول عنه- ليجيبوا بما أجابوا به فيبكت عبدتهم بتكذيبهم إياهم فيزيد حسرتهم ويسر المؤمنون بحاله، ونجاتهم من فضيحة هؤلاء، وليكون ذلك فى القرآن لطفا للملكلفين[1].

ثم يسأل الله سبحانه وتعالى - وهو أعلم بما يسأل عنه.

﴿أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾.

وهذا السؤال موجه للمعبودين من دون الله سبحانه وتعالى ليبين لعبدتهم موقف المعبودين منهم، وأنهم كانوا يعبدون مالا ينفع ولا يضر وأن هذه العبادة هى الضلال بعينه.

فكان جواب المعبودين من دون الله:

﴿سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآبائهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا﴾.

إن المعبودين يتبرأون من عابديهم وينزهون الله سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك فى عبادته، أو بعباده، فكيف يقع منهم هذا، وهم ينزهون الله سبحانه وتعالى عن الند والنظير، ويقول الزمخشرى:

سبحانك تعجب منهم قيل لأنهم ملائكة وأنبياء معصومون فما أبعدهم عن الإضلال الذى هو مختص بابليس وحزبه.

فانه لاينبغى لنا ونحن المعصومون المنزهون من عبادك أن نتولاهم ونتخذهم أتباعا لنايعبدوننا من دونك، ولم نطلب ذلك منهم على الإطلاق، ولكنهم كفروا بسبب جريان النعم فى أيديهم وفى يد آبائهم، وأطلت أعمارهم، ومع وجوب شكرها عليهم، والإيمان برسالات الله سبحانه وتعالى.

(١) تفسير البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى جـ٦ ص٤٨٨.

صارت هذه النعم سببا لإغراقهم فى الشهوات، وبعدهم عن الذكر، أى ذكر الله سبحانه وتعالى والإتيان بما أمر به من الأوامر والبعد عما نهى عنه من النواهى (وكانوا قوما بورا)،

يقول صاحب البحر المحيط

والبور: قيل مصدر يوصف به الواحد والجمع.

وقيل جمع بائر كعائذ وعوذ.

قيل معناه هلكى.

وقيل فسدى.

وهى لغة الأزد، يقولون أمر بائر، أى فاسد، وبارت البضاعة فسدت.

وقال الحسن: لاخير فيهم من قولهم أرض بور، أى معطلة، لانبات فيها.

وقيل بورا عميا عن الحق[1]:

ثم يبين الله سبحانه وتعالى للكافرين موقف معبوداتهم منهم بقوله:

﴿فقد كذبوكم بما تقولون فما تستطيعون صرفا ولانصرا﴾.

لقد كذبوا الكافرين باتخاذهم إياهم معبودين، ومن أدل الدلائل على ذلك: أنهم مااستطاعوا صرف العذاب عنهم، ولانصرهم فى موقف يتطلب نصرة الأولياء وعدم خذلانهم، بل إن الأمر وصل إلى درجة التبرؤ من هؤلاء الأولياء، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن أن يكون له شريك فى ملكه.

ثم يعقب الله سبحانه وتعالى بقوله:

﴿ومن يظلم منكم نذقه عذابا كبيرا﴾.

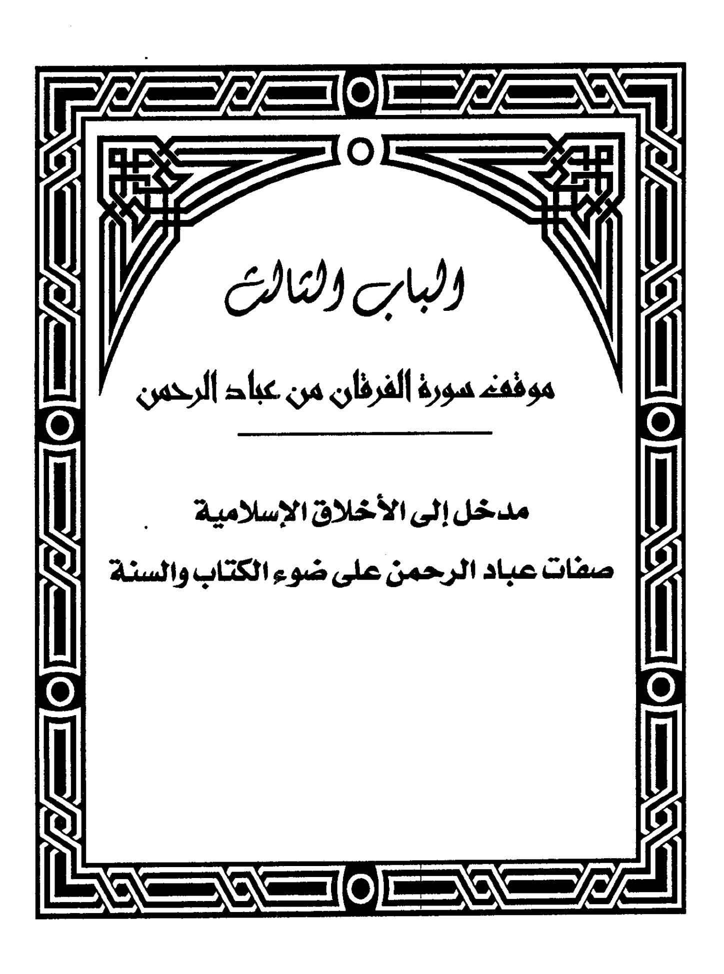
والظلم هنا المقصود به: الإشراك بالله سبحانه وتعالى، وهو قول ابن عباس والحسن وابن جريج كما قال: لك صاحب البحر المحيط[2].

والظلم هنا الظاهر أنه عام على اعتبار دخول المعاصى فى الظلم، فيكون خطابا للمؤمنين وللكافرين فيذوق الظالم إذا كان كافرا أو مؤمنا عاصيا عذابا شديدا فى جهنم يتناسب مع حالته.

---

(١) البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى جـ٦ ص ٤٨٨.

(٢) تفسير البحر المحيط لأبى حيان التوحيدى جـ٦ ص ٤٩٠.



الباب الثالث

موقف سورة الفرقان من عباد الرحمن

مدخل إلى الأخلاق الإسلامية

صفات عباد الرحمن على ضوء الكتاب والسنة

الفصل الأول

عباد الرحمن
مدخل إلى الأخلاق الإسلامية

إن الحديث عن الأخلاق الإسلامية هو حديث عن المقربين، والوصول إلى القرب من الله تعالى، ليس بالأمر السهل، إنه يحتاج إلى كثير من أجل تزكية النفس، ولن يصل الإنسان إلى تزكية النفس إلا إذا تحرر من متاع الدنيا، ومتاع الدنيا بينه الله تعالى بقوله:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[1].

ويعقب الله على ذلك بقوله:

﴿والله عنده حسن المآب﴾

والعدول عن متاع الدنيا إلى حسن المآب عند الله سبحانه وتعالى وهو عدول عن النفس فى اتجاه نحو الكمال – له ثمنه من الجد فى العبادة، والأخذ بالعزائم.

إن ثمنه هو ما عبر عنه الإمام الغزالى فى إجمال مجمل:

تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى[2].

وكل ذلك يتعارض مع مازين للإنسان من متاع الدنيا:

لابد منذ المبدأ من الإرادة الرياضية – على حد تعبير ابن سينا– إرادة صارمة فى محاولة فى القرب من الله تعالى: مصدر الكمال، ومصدر التجليات، ولابد من اتجاه الكيان الإنسانى – فى صورة قوية إلى الحق سبحانه وتعالى.

(١) سورة آل عمران الآية: ١٤.
(٢) إحياء علوم الدين للإمام الغزالى.

والحديث عن الأخلاق الإسلامية - إذن إنما هو حديث عن : ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين، وهو إذن حديث لقليل من الآخرين إنه حديث للمجتبين من عباد الله:

﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ ﴾[١]

متى بدأ هذا الاتجاه فى الإسلام:

إنه بدأ مع شرق حياة رسول الله ﷺ:

إن الأنبياء يصطنعهم الله تعالى لنفسه[٢]، ويصنعهم على عينه[٣]، وهم جميعا بأعينه[٤].

ونحن حينما نقرأ سيرة رسول الله ﷺ نجد حديثا من احاديثه ﷺ يلخص سيرته (قبل) مولده، إنه ﷺ يقول:

إن الله تعالى خلق الخلق فجعلنى فى خير فرقتهم وخير الفرقتين، ثم تخير القبائل فجعلنى فى خير قبيلة، ثم تخير البيوت فجعلنى فى خير بيوتهم فأنا خيرهم نفسا وخيرهم بيتا[٥].

أما بعد مولده ﷺ فإننا نقرأ فى السيرة الشريفة هذه الحادثة الرمزية حادثة شق الصدر.

وهذا الحادث وقع لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه منذ الطفولة المبكرة لقد كان صلوات الله وسلامه عليه إذ ذاك فى بادية بنى سعد عند مرضعته وبينما هو يلعب مع الغلمان - على ما يروى الإمام مسلم - أتاه جبريل، فأخذه فأضجعه فشق عن قلبه فاستخرجه فاستخرج منه علقة فقال:

هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه.

---

(١) سورة الشورى الآية: ١٣.
(٢) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى «اصطنعتك لنفسى».
(٣) يقول الله تعالى عن سيدنا موسى: «ولتصنع على عينى».
(٤) قال الله تعالى عن سيدنا محمد ﷺ «واصبر لحكم ربك فانك بأعيننا».
(٥) رواه الترمذى عن العباس بن المطلب بمسند صحيح.

وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعنى مرضعته- أن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو ممتقع اللون، وكان ذلك وهو ابن أربع سنين تقريبا، فلما كان ابن عشر سنين تكرر حادث شق الصدر، فقد روى الإمام أحمد وابن حيان، والحاكم، وابن عساكر، عن أبى بن كعب أن أبا هريرة رضي الله عنه كان جرئيا أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره فقال:

يارسول الله، ما أول ما رأيت فى أمر النبوة؟

فاستوى رسول الله ﷺ جالسا وقال:

لقد سألت أبا هريرة، أنى لفى صحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسى وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟

قال : نعم.

فاستقبلانى بوجوه لم تر لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إلى يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدى لا أجد لأحدهما مسا.

فقال أحدهما لصاحبه: اضجعه، فأضجعانى بلا قسر ولاهصر، وقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدره.

فهوى أحدهما إلى صدرى ففلقه فيما أرى بدون دم ولا وجع، فقال له:

أخرج الغل والحسد، فأخر شيئا كهيئة العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له:

أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذى أخرج يشبه الفضة، ثم هز ابهام رجلى اليمنى فقال: أغدوا وأسلم.

فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ورحمة للكبير.

وأن المغزى الواضح لهذه الحادثة إنماهو تزكية للنفس فى بواكير الحياة الإنسانية، وفى بواكير الحياة الروحية، وذلك أنه إذا استخرج حظ الشيطان من القلب أصبح القلب طاهرا، ليس للشيطان عليه من سبيل.

مراحل الطريق إلى الله:

وأول مراحل الطريق إلى الله: التوبة الصادقة، التى تنتزع - فى قوة - حظ الشيطان من القلب.

وتمضى السنون برسول الله ﷺ، وليس للشيطان عليه من سبيل.

إنه فى طهر الملائكة ﷺ إلى أن كانت الليلة المباركة: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١).

وهى ليلة القدر، يقول تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ (٢).

وكان ذلك فى رمضان - يقول سبحانه:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾(٣).

وكانت الكلمات الأولى من الوحى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ (٤)

وكانت اقرأ رمزا لكل الأعمال التى يأتيها الإنسان، وذلك أنه يجب على الإنسان أن تكون أعماله (باسم ربك) مايأتى منها وما يدع.

ومما يبين الاتجاه هذا الذى بدأ منذ مشرق الرسالة، قول الله فيما بعد:

﴿وَلا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ﴾(٥).

فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه فسق محرم على المؤمن.

---

(١) سورة الدخان الآيات: ٣ - ٦.
(٢) سورة القدر بتمامها.
(٣) سورة البقرة الاية: ١٨٥.
(٤) سورة العلق الآية: ١.
(٥) سورة الأنعام الآية: ١٢١.

ويقول تعالى:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾[1].

«فما أهل به لغير لله فسق، ومـاذبح على النصب فسق، و كل مـا كان لغير الله فـهو فسق محرم كما جاءت به الآيات الكريمة ، وكانت على الطريق المشروع.

أما الطيبات: فهى مـا اتجه الإنسان بها إلى الله سبحانه ، إنها مـا كانت باسم الرب، مـا كـانت باسم التـربيـة الآلهيـة، مـا كانت بـاسم المربى، ويشـرح الله تعالـى ذلك فى الآيات الكثـيرة التى نذكـر منهـا بـحسب التـرتيب القرآنى مـبينا فـيهـا الاتجـاه إلى الله وإسلام الوجه له سبحانه:

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾[3].

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[4].

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾[5].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[6].

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾[7].

ويجمل الله تعالى كل ذلك فيقول:

(١) سورة المائدة الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة الآية: ١١٢.
(٣) سورة النساء الآية: ١٢٥.
(٤) سورة الأنعام الآية: ٧٩.
(٥) سورة لقمان الآية: ٢٢.
(٦) سورة الروم الآية: ٣٠.
(٧) سورة الروم الآية: ٤٢.

﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾(١).

أن تكون الحياة: نوما ويقظة، قولا وصمتا، حركة وسكونا، خالصة لله تعالى، بل والممات أيضا يكون خالصا لله فى سبيله،

وينبثق عن كل ذلك فى صورة حتمية:

فضيلة الإخلاص:

ولقد تحدث الإسلام – قرآنا وسنة – عن الإخلاص لله وحده فى صورة مستفيضة.

ومن ذلك الآيات القرآنية الكريمة الآتية:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾(٢).

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾(٣).

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(٤).

وفى السنة المطهرة:

ما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لاشريك له، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فارقها والله عنه راض»(٥).

وعن معاذ بن جبل أنه قال – حين بعث إلى اليمن – يارسول الله أوصنى؟

قال ﷺ:

«أخلص دينك يكفك العمل القليل»(٦).

ولقد سئل رسول الله ﷺ – فيما رواه البيهقى– عن الإيمان ، فقال: (الإخلاص).

---

(١) سورة الأنعام الآيات: ١٦٢ – ١٦٣.
(٢) الزمر: ٢ – ٣.
(٣) سورة غافر: ١٤.
(٤) سورة البينة الآية: ٥.
(٥) رواه ابن ماجه والحاكم.
(٦) قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين.

ويروى الامام مسلم رضي الله عنه عن أبى هريرة رضوان الله عليه إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لاينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[١].

وروى البزار -باسناد لاباس به- أن رسول الله ﷺ، قال - فيما يرويه عن ربه- ان الله تبارك وتعالى يقول:

«أنا خير شريك فمن أشرك معى شريكا فهو لشريكى، يأيها الناس أخلصوا أعمالكم فان الله تعالى لايقبل من الأعمال الا ماخلص له ولا تقولوا هذا لله وللرحم فانها للرحم وليس لله منها شيء ولا تقولوا: هذه لله ولوجوهكم فإنها لوجوهكم وليس لله منها شيء»[٢]

وكل ما ذكر تجمعه كلمة واحدة هى الاسلام.

وسواء نظرنا لكلمة اسلام من الوجهة اللغوية، أو نظرنا إليها من الوجهة الدينية، فانها تشتمل على كل المعانى التى ذكرناها.

أما من الوجهة اللغوية، فيقول ابن الأنبارى «المتوفى ٣٢٨هـ»:

المسلم: معناه المخلص لله عبادته، من قولهم: سلم الشيء لفلان خلص له، فالاسلام معناه اخلاص الدين والعقيدة لله تعالى.

أما من الوجهة الدينية، فقد سئل رسول الله ﷺ عن الاسلام فقال:

أن يسلم الله وجهك، وان يسلم المسلمون من لسانك ويدك،

ولقد سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان فقال: الايمان: الاخلاص.

ولايخرج كل ذلك عن كلمة الاخلاص: لا إله إلا الله.

وكلمة الاخلاص توضحها سورة الاخلاص.

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، الذى يستعان به ويلجأ إليه، ويقصد فى اليسير من الأمور والعظيم منها، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد».

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه، وابن ماجه فى سننه.

(٢) أخرجه النسائى والبيهقى.

«يتناسق مع كلمة الاخلاص، وسورة الاخلاص، موضحا ومفسرا قوله تعالى:
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

ويتناسق مع كل ذلك موضحا أيضا ومفسرا:
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

كل مافى الكون من: حركة وسكون، وقول وعمل، وفكر وحال: الكيف من كل ذلك والكم والزمن والمكان.

«وهو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن».

وتأتى أحاديث مستفيضة فى بيان كلمة الاسلام، منها:

ماروى عن رسول الله ﷺ -فيما رواه عن رب العزة سبحانه.

«ياعبادى: انى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا.

ياعبادى: كلكم ضال الا من هديته فاستهدونى أهديكم.

ياعبادى كلكم جائع الا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم.

ياعبادى: كلكم عار الا من كسوته فاستكسونى أكسكم.

ياعبادى: انكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم.

ياعبادى: انكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى.

ياعبادى: لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم: كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم مازاد ذلك فى ملكى شيئا.

ياعبادى: لو أن أولكم وآخركم وانسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل انسان مسألته مانقص ذلك مما عندى الا كما ينقص المخيط اذا أدخل البحر»

---

(١) آل عمران آية: ٢٦.

ياعبادى: انما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم اياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

كنت خلف النبى ﷺ، يوما فقال: ياغلام انى أعلمك كلمات:

«احفظ الله يحفظك – احفظ الله تجده تجاهك».

إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله.

واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك الا بشيء قد كتبه الله لك.

وان اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك الا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف[1].

وفى رواية:

«احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، و أن مع العسر يسرا»

وكل هذا من معانى : «لا إله إلا الله».

ولا إله إلا الله: هى التوحيد والاسلام طابعه وشعاره هو التوحيد.

التوحيـــد:

توحيد الله فى ذاته، وتوحيده فى قوله:

«أما ذاته فهى أحديته، وأما أفعاله فهو سبحانه في حكمته السامية، يخلق ما يشاء ويختار ماكان لهم الخيرة فى أمرهم[2] وليس لأحد من الأمور معه شىء، لامعقب لحكمه، ولا راد لقضائه، وهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين، وإليه يرجع الأمر كله وإليه المصير.

---

(١) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.
(٢) القصص آية: ٦٨.

والاسلام اذن هو اسلام الوجه لله، انه اسلام الذات لله، وهو:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وهو:

«لا إله إلا الله» وهو «التوحيد».

واذا كان الإمام الشبلى يعرف التصوف بقوله:

بدؤه معرفة الله، ونهايته توحيده[1].

فان هذا هو المراد فى الخلق الاسلامى،

ان بدأه معرفته تعالى على أساس من العلم - وفى جو من المعرفة الصادقة، معرفته: أحدا عالما مريدا قادرا.

معرفته: جليلا جميلا - معرفته: هيبة وأنسا، تذوب من هيبته الجبال ويأنس به عباده الذين أنعم عليهم،

ونهايته توحيده: «لا إله إلا الله».

وتوحيد الله سبحانه يتفاوت فيه الناس إلى ملايين ملايين الدرجات،

ان منهم من يقول: «لا إله إلا الله».

ومنهم من يقتنع بأن «لا إله إلا الله».

ومنهم من يؤمن بأن «لا إله الإ الله».

ومنهم من يعتقد أن «لا إله إلا الله».

ولكن الذروة، ذروة الايمان والاسلام، ذروة العقيدة، وذروة السلوك أيضا هى: «أشهد أن لا إله إلا الله».

وهؤلاء الذين يشهدون أن: «لا إله إلا الله» انما يشهدونها مع ملائكته سبحانه:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

(١) المنقذ من الضلال للدكتور عبدالحليم محمود، وينظر فى ذلك الرسالة القشيرية للإمام أبى القاسم القشيرى.

(٢) آل عمران آية: ٧٨.

انهم يشهدون التوحيد، وشهادة التوحيد هى قمة الايمان، وهى قمة التدين هم بطبيعة الأمور قلة:

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾.

وإذا كان الامام الكتانى يعرف التصوف فيقول أنه: صفاء[1]

فان تعريفه يتناسق مع: «أشهد أن لا إله إلا الله».

وهذه القمة هى الهدف الأخير، وهى الغاية التى تعز على من رامها الا بالجهد المتواصل، ومع توفيق الله سبحانه لايصل إليها إلا من اجتباهم الله تعالى.

إنه لايصل إليها إلا المقربون، ومع صعوبتها الشامخة، فان باب الله مفتوح أمام الذين يسيرون على صراطه ليدخلوا فى اطار من أنعم عليهم،

«أشهد أن لا إله إلا الله: كيف نصل إليها؟

كيف نصل إلى هذا الهدف؟ كيف نرتقى إلى هذه القمة؟

ان الله سبحانه وتعالى يأمر فيقول:

«ففروا إلى الله»[2]

ويذكر سبحانه قول سيدنا ابراهيم،

﴿إنى ذاهب إلى ربى﴾[3].

«إنى مهاجر إلى ربى»[4]

كيف نهاجر إلى الله؟

يقول رسول الله ﷺ:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه».

ولقد سئل رسول الله ﷺ فى حديث طويل رواه الامام أحمد باسناد صحيح:

---

(١) المنقذ من الضلال تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود، ينظر التعرف لمذهب أهل التصوف.

(٢) الذاريات آية: ٥٠.

(٣) الصافات آية: ٩٩.

(٤) العنكبوت: ٢٦.

(٥) أخرجه البخارى وأبو داود والنسائى عن ابن عمر وقال حديث صحيح.

«أى الإيمان أفضل؟

قال: الهجرة،

فقيل له: وما الهجرة؟

قال: أن تهجر السوء،

فقيل له: أى الهجرة أفضل؟

فقال: الجهاد» .

وعن أم أنس رضى الله عنها أنها قالت: يارسول الله أوصنى:

قال: «أهجرى المعاصى فإنها الهجرة، وحافظى على الفرائض فإنها أفضل الجهاد، وأكثرى من ذكر الله فانك لاتأتين الله بشىء أحب إليه من كثرة ذكره» .[(١)]

وفى رواية لهما عن أم أنس:

«واذكرى الله كثيرا فإنه أحب الأعمال إلى الله أن تلقاه بها»[(٢)]

وتبدأ هذه الهجرة بالنية:

يقول رسول الله ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(٣)] .

أن يهجر الإنسان السوء فى النية، أن يصبح القلب سليما:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله لاينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[(٤)] وأن يهجر السوء فى الأعمال فتصحب أعماله دائما مجردة عن الإثم، وأن يجاهد فذلك أفضل الهجرة.

(١) رواه الطبرانى باسناد جيد.
(٢) قال الطبرانى: أم أنس هذه يعنى الثانية ليست أم أنس بن مالك.
(٣) متفق عليه.
(٤) أخرجه الإمام مسلم.

والجهاد فى سبيل الله هو جهاد أوسع وأشمل ماتحتمله الكلمة: إنه جهاد النفس لتتزكى،

وجهاد الأسرة لتستقيم،

وجهاد فى المجتمع ليهتدى إلى التى هى أقوم،

وجهاد الأعداء فى كافة المجالات،

والمؤمنون «أشداء على الكفار رحماء بينهم».

ولقد فسر رسول الله ﷺ الجهاد بكل هذه الألوان منه، وذلك أول الطريق:

والذهاب إلى الله هجرة دائمة إليه، إنه هجرة:

من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان.

ومن ظلمات البدعة إلى نورر السنة.

ومن ظلمات الغفلة إلى نور اليقظة.

ومن ظلمات الحظوظ إلى نور الحقوق.

ومن ظلمات طلب الدنيا إلى نور طلب الآخرة،

ومن ظلمات المعصية إلى نور الطاعة.

ومن ظلمات الكثائف إلى نور اللطائف.

ومن ظلمات الهوى إلى نور اليقين.

ومن ظلمات الدعوى إلى اشراق نور التبرى من الحول والقوة،

ومن ظلمات الكون إلى شهود المكون،

ومن ظلمات التدبير إلى إشراق نور التفويض، إلى غير ذلك مما يحصره العدد،

والنهج الذى ارتضاه الله سبحانه وتعالى لهذه الأمة بالذات هو:

«ففروا إلى الله».

وتعليل الفرار:

(١) أنظر لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى.

«انى لكم منه نذير مبين»

ويقول الإمام الصاوى عن ذلك:

قوله تعالى: «ففروا إلى الله» مفرع على ماعلم من توحيد الله، والمعنى: حيث علمتم أن الله واحد لاشريك له، وأنه الضار النافع المعطى المانع، فالجأوا إليه، وأهرعوا إلى طاعته،

والفرار مراتب:

ففرار العامة من الكفر والمعاصى إلى الإيمان والطاعة.

وفرار الخاصة من كل شاغل عن الله: كالمال والولد، إلى شهود الله والانهماك فى طاعته، فلا يصرف جزء من أجزائه لغير الله، فكما أن الله فى خلق العبد واحد، فليكن العبد فى إقباله على ربه واحدا، بحيث لايجعل فى قلبه غير حب ربه، «وفى ذلك فليتنافس المتنافسون»،

كيف يفر الإنسان إلى الله؟

ماهو المنهج؟

إن هذا المنهج رسمه الله سبحانه وتعالى فى كثير من آيات القرآن الكريم، موجزا أحيانا فيكون:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

أو: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾[2].

أو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾[3].

(١) النحل آية: ٩٧.
(٢) الأعراف آية: ٩٦.
(٣) فصلت آية: ٣٠ - ٣٢.

ونحب أن نتحدث فى شىء من التفصيل الموجز عن منهج أجمله القرآن فى آيات محددة من الكتاب الكريم.

يقول تعالى فى سورة الزمر: تلك السورة التى أخرج النسائى عن عائشة – رضى الله عنها– أن رسول الله ﷺ كان يقرؤها كل ليلة:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[١].

عن أبى عبد الرحمن المزنى يقول سمعت ثوبان مولى رسول الله ﷺ يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول.

«ما أحب أن لى الدنيا ومافيها بهذه الآية:

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾. إلى آخر الآية فقال رجل يارسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبى ﷺ، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات»[٢].

وجاء فى مسند الإمام أحمد «أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ شيخ كبير يدعم على عصا له فقال:

يارسول الله: إن لى غدرات وفجرات: فهل يغفر لى؟ فقال ﷺ:

«ألست تهشد أن: لا إله إلا الله؟»

فقال: بلى وأشهد أنك رسول الله»

قال ﷺ: قد غفر لك غدراتك وفجراتك»[٣].

إن الله سبحانه وتعالى يفتح الطريق واسعا أمام الطالبين مغفرته، الراجين رحمته، لأن لايقنط أحد من رحمة ربه، فانه:

(١) الزمر آية: ٥٣.
(٢) تفرد به الإمام أحمد فى مسنده.
(٣) أخرجه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه.

«لايقنط من رحمة ربه إلا الضالون»،

ولا ييأس من روحه تعالى، فإنه:

«لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون».

فإذا كان الحج المبرور يطهر الإنسان من ذنوبه حتى يخرج منها، كيوم ولدته أمه كما نصت السنة المطهرة على هذا، وروت الكتب الصحاح، فإن الجو الإسلامى كله مفعم بفتح أبواب الرحمة أمام عباد الله المخلصين:

﴿من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه﴾.

﴿من صام رمضان إيمان واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه﴾[1] والإسلام يجب ماقبله.

وتبين لنا سورة الزمر فى آياتها الكريمة مقدار رحمة الله الواسعة وترسم لنا الطريق لذلك،

يقول سبحان وتعالى:

﴿ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴾[2].

فالطريق إلى مغفرة الله ورحمته هو التوبة الخالصة النصوح، وهى الإنابة إلى الله سبحانه، وتعالى أى: التوبة فى أسمى درجاتها، وإسلام الوجه لله سبحانه وتعالى.

وبعد أن يندم الإنسان على ذنوبه ويخرج منها ويتبرأ ترسم له الآية التى تتلو ذلك طريقه:

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾[3].

(١) أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ومسلم فى صحيحيهما.
(٢) الزمر آية: ٥٤.
(٣) الزمر آية: ٥٥.

وأحسن ما أنزل الينا من ربنا هو القرآن الحكيم – إنه:

﴿يهدى للتى هى أقوم، ويبشر المؤمنين﴾.

مهيمن على غيره، مبين للحق فيما يختلف فيه أهل الكتاب السماوية ثم يتلو ذلك آيات ثلاث تبين موقف الإنسان الذى لم يتب أو الذى تاب ولم يتبع:

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾[1].

«أو تقول: لو أن الله هدانى لكنت من المتقين

«أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحسنين».

وكل ذلك لاجدوى منه، والرد عليه واضح حاسم من الله سبحانه وتعالى.

﴿ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2].

ويبين الله حالة هؤلاء يوم القيامة فيقول:

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[3].

لاشك أن فيها مثوى للمتكبرين مثوى يختلف ويتفاوت باختلاف درجاتهم فى الكبرياء والمعاصى وتفاوتهم فيها،

ويختم الله سبحانه هذه الآيات التى ترسم المنهج وتبين المصير بالنسبة للذين تابوا، وأنابوا، واتبعوا الذكر الذى نزل علهيم من ربهم بقوله تعالى:

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4]

فى هذا المنهج الواضح نتبين رحمة الله الواسعة الشاملة العامة، التى لاتضيق بمن لجأ إليها، فلا يأس ولا قنوط من غفران الله سبحانه وتعالى:

ويكفينا قوله ﷺ (أنا نبى التوبة)[5].

---

(١) الزمر آية: ٥٦ – ٥٨.

(٢) الزمر آية: ٥٩.

(٣) الزمر آية: ٦٠.

(٤) الزمر آية: ٦١.

(٥) جزء من حديث صحيح أخرجه أحمد ومسلم عن أبى موسى وأخرجه الطبرانى ونصه: أنا محمد وأحمد، والمقفى والحاشر ونبى التوبة، ونبى الرحمة.

فإذا كانت التوبة هى أول الطريق، فإن لها من المكانة فى الجو الإسلامى مايتناسب مع تأثيرها فى حسن الخلق.

وبعد: فإن الآيات القرآنية التى أجملت المنهج تحدثت بعد التوبة عن:

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ﴾.

﴿ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾.

ولقد رسم الرسول ﷺ منهج العمل وبين ثمرته.

روى الإمام البخارى بسنده عن رسول الله ﷺ فيما رواه عن ربه:

«من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضت عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصرة الذى يبصر به، ويديه التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى أعطيته، ولئن استعاذنى لأعيذنه».

والتوبة الصادقة تثمر العمل، ولكن هذا العمل يتفاوت فى درجاته، ولقد أبان الله سبحانه وتعالى درجات من العاملين:

«فمنهم ظالم لنفسه،

ومنهم مقتصد،

ومنهم سابق بالخيرات».

وهؤلاء السابقون بالخيرات بين الله تعالى مالهم عنده فقال:

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾

﴿ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾[1].

ولقد بين الله سبحانه فى سورة الواقعة طبقات الناس بالنسبة للاتباع والهداية، فقال سبحانه:

---

(١) فاطر آية: ٣٣ - ٣٥.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلاثَةً﴾ (أى أصنافا ثلاث)

(أ) ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾

(ب) ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾

(جـ) ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۝١٠ أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾أ.هـ

وهؤلاء المقربون ليسوا بالكثيرين، إنهم -على حد التعبير القرآنى- ثلة من الأولين وقليل من الآخرين.

ويتحدث الله سبحانه وتعالى عن النعيم الذى أعد للمقربين فيقول بعد ذكرهم فى السوورة نفسها فى الآية الخامسة عشرة وما بعدها:

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾[1]

﴿مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾[2]

﴿لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلا يُنزِفُونَ﴾[3].

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾

﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا﴾

﴿إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا﴾

أما أصحاب اليمين فإنهم:

---

(١) موضوعة: أى مصفوفة أو شبكة بالدر والياقوت أو الذهب.

(٢) معين: أى نمر جارية.

(٣) لاينزفون: أى لا تذهب عقولهم.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ﴾.

وهنا لم يقل القرآن الكريم وقليل من الآخرين كما ذكر فى المقربين، وذلك لأن المقربين صفوة الصفوة وهم بحكم ذلك أقل عددا.

ويصف الله سبحانه وتعالى -فى السورة نفسها- النعيم الذى أعده لأصحاب اليمين فيقول- فى الآية الثامنة والعشرين وما بعدها:

﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾(1).

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾(2)

﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾

﴿وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ﴾

﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾

﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾

﴿إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً﴾

﴿فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا﴾

﴿عُرُبًا أَتْرَابًا﴾

﴿لأَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾

ثم يذكر الله سبحانه وتعالى أصحاب الشمال وما اعد لهم من عذاب فيقول:

فى الآية الثانية والأربعين وما بعدها- بعد قوله:

﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾:

﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾(3)

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾(4)

---

(١) أى لاشوك فيها أو موقر بالثمار، والسد: شجر النبق.

(٢) الطلح: شجر الموز، والمقصود: الذى نضد أى جعل طبقات متراصة من أسفله إلى أعلاه.

(٣) السموات: حر النار الذى يتعدد فى المسام والحميم: الماء الشديد الحرارة.

(٤) اليحموم: الدخان الأسود.

﴿لا بَارِدٍ وَلا كَرِيمٍ﴾
﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾
﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾
﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ۝٤٦ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٤٧ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ﴾[1]
﴿قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾
﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ﴾[2]
﴿لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾
﴿فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ﴾
﴿فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ﴾
﴿فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾
﴿هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾

وفى السورة الجميلة سورة الإنسان، والتى تسمى أيضا: سورة الأبرار يتحدث سبحانه وتعالى عن الأبرار فيقول فى الأسلوب القرآنى الجميل المعجز فى الآية الخامسة وما بعدها:

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾
﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾
﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾
﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾
﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا﴾
﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾
﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾

---

(١) الحنث العظيم: الذنب العظيم، من الأقاويل الباطلة والعقائد الفاسدة.
(٢) شجر الزقوم: من أخبث أشجار البادية فى المرارة والبشاعة.

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾(١)

﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾(٢)

﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ﴾

﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾(٣)

﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً﴾

﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾

﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾

﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾(٤)

﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ أ.هـ

ويتحدث الحق تبارك وتعالى عن الأبرار فى سورة المطففين فيقول: فى صورة من الأسلوب العالى فى الآية الثامنة عشرة وما بعدها:

﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾(٥)

﴿كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾

﴿يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾

﴿إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾

﴿عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾

---

(١) أى: لايرون فيهاحرا ولابردا.

(٢) أى: سهلت ثمارها لمتناوليها.

(٣) أى : قدرها لهم السقاة على قدر ريهم لايزيد ولاينقص وهو أكد للشارب.

(٤) الاستبرق الديباج الغليظ.

(٥) أى أن ديوان أعماله أهل الخير فى أعلا الدرجات كما أن كتاب الفجار فى أسفل الدرجات.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾
﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾
﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾
﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ﴾
﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾

ومهما كانت منزلة الأبرار من الرفعة والتفضل فإن المقربين يتفضل الله عليهم بأكثر.

يقول الإمام الألوسى عند قوله تعالى:

﴿وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾:

قال ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأبو صالح:

«يشرب بها المقربون صرفا وتمزج للأبرار»

ومذهب الجمهور:

أن الأبرار: هم أصحاب اليمين، وأن المقربين: هم السابقون كأنهم إنما كان شرابهم صرف التسنيم لاشتغالهم عن الرحيق المختوم بمحبة الحى القيوم، فهى الرحيق التى لايقاس بها رحيق والمدامة التى تواصى على شربها ذوو الأذواق والتحقيق:

على نفسه فليبك من ضاع عمره.. وليس له منها نصيب ولاسهم ونعود إلى التوبة من جديد:

إذا صدقت نقلت الإنسان مباشرة إلى «أهل اليمين»أهـ

ومن أهل اليمن من يلتزم أداء الواجبات وترك المنهيات، ويكتفى بذلك وهذا يصدق عليه قول رسول الله ﷺ:

(أفلح إن صدق)

روى الإمام البخارى بسنده عن طلحة بن عبيد الله يقول:

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولايفقه مايقول حتى دنا فاذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ.

«خمس صلوات فى اليوم والليلة»

فقال: هل على غيرها؟

قال: لا إلا أن تطوع،

قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، قال: هل على غيرها؟

قال: لا إلا أن تطوع،

قال: فأدبر الرجل وهو يقول:

«والله لأأزيد على هذا ولا أنقص؟

قال رسول الله ﷺ «أفلح إن صدق».

وهذا المؤمن وأمثاله والقريب منه، يستمرون طيلة حياتهم بتوفيق الله «من أهل اليمين».

ولكن التوبة الصادقة تقود الإنسان أحيانا إلى أداء الواجبات والانتهاء عن المنهيات ثم العمل فى قوة فى سبيل الله، فتكون التوبة ثمرة إراحة لاتلين فى الاتجاه إلى الله، وتكون ثمرة الإرادة الصادقة والتوبة النصوح: رياضة يتجه الإنسان بها خالصة إلى الله تعالى:

ويتوافر فى هؤلاء، ماعبر عنه ابن سينا عن العارفين، من أن طريقهم يتلخص فى:

«رياضة وإرادة»

والرياضة هنا: عبادة خالصة لوجه الله تعالى، مصحوبة عادة بصوم إنهم الذين:

﴿يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾(١)

وهم الذين:

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾،

ويعقب الله بسحانه وتعالى على وصفهم الطيب هذا بقوله:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٢)

---

(١) الكهف آية ٢٨.

(٢) السجدة آية: ١٦، ١٧.

وهم الذين:

﴿لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[1]

ولقد وصف الله سبحانه طريق المتجهين إليه عدة مرات فى القرآن الكريم:

وصف طريقهم ووصف ماينتظرهم فى الدنيا والآخرة من ذلك مايقوله سبحانه:

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]

والوصفان: الأول والثانى: يقف عندهما أصحاب اليمين،

أما المقربون فإنهم أيضا: حامدون،

وقد أمر الله تعالى بالحمد فقال سبحانه:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ﴾[3]

والحمد لله آخر دعاء أهل الجنة،

﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[4].

ولأهل الحمد بيوت فى الجنة، روى الإمام «الترمذى وحسنه» بسنده عن أبى موسى الأشعرى، رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا مات ولد العبد قال الله تعالى لملائكته:

«قبضتم ولد عبدى»؟

فيقولون: نعم

فيقول: فماذا قال عبدى؟

فيقول: حمدك واسترجع،

(١) النور: ٣٧ - ٣٨.
(٢) التوبة آية: ١١٢.
(٣) النمل آية: ٥٩.
(٤) يونس آية: ١٠.

فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدى بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد» أ.هـ.

وروى الإمام مسلم بسنده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها» أ.هـ.

وكما يختم الإنسان عمله بالحمد، فإنه يبدأه أيضا بالحمد، عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال:

«كل أمر ذى بال لايبدأ فيه بالحمد فهو أقطع»[1]

والحامدون هم أول من يدعى إلى الجنة:

أخرج ابن مردويه، وأبو الشيخ، والبيهقى فى الشعب، عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ :

أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون على السراء والضراء وجاء عن عائشة رضى الله عنها قالت:

كان النبى ﷺ اذا أتاه الأمر يسره، قال:

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، واذا أتاه الأمر يكرهه قال. الحمد لله على كل حال

والمقربون أيضا سائحون:

والواقع أن الاختلاف فى معنى السياحة هنا لامبرر له، وذلك أنها تتضمن كل ماقيل ويتصف المقربون بكل ماقيل فيها:

إن السائحين هم الصابرون، وقد جاء عن عائشة رضى الله عنها:

«سياحة هذه الأمة الصيام».

لأنه رياضة روحية ينكشف بها كثير من أحوال الملك والملكوت، فشبه الاطلاع عليها بالاطلاع على البلدان، والأماكن النائية، اذ لايزال المرتاض يتوصل من مقام إلى مقام إلى مقام ويدخل من مدائن المعارف إلى مدينة بعد أخرى على مطايا الفكر[2]

---

(١) حديث حسن رواه أبو داود وغيره.

(٢) تفسير الألوسى جـ١ ص٣١.

والسائحون هم المهاجرون:

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد: أن السائحين هم المهاجرين وليس فى أمة محمد ﷺ سياحة إلا الهجرة.

وأخرج ابن أبى حاتم، وأبو الشيخ، عن عكرمة: أنهم طلبة العلم، لأنهم يسيحون فى الأرض لطلبه،

والسائحون هم المجاهدون:

أخرج الحاكم وصححه، والطبرانى، وغيرهما، عن أبى أمامة، أن رجلا استأذن رسول الله ﷺ فى السياحة فقال:

«إن سياحة أمتى الجهاد فى سبيل الله تعالى».

والمقربون راكعون ساجدون:

إنهم راكعون ساجدون فى صلواتهم وهاتان الصفتان رمزان للخضوع والخشوع لله تعالى، وكما أن معانى السجود وضع الجبهة على الأرض فى الصلاة فان من معانيه الخشية، والخضوع، والسجود بهذه المعانى جميعا من سمات المقربين الأصيلة يقول سبحانه:

«واسجد واقترب»

أى اقترب من الله سبحانه وتعالى بسجودك، سجود الجبهة وسجود القلب الذى تسجد بسجوده الجوارح، وإن للقلب سجودا يعرفه الصوفية، وإذا سجد القلب سجدت الجوارح، ولايتأتى مع سجود القلب والجوارح أن يقترف الإنسان المعصية.

وإذا سجد القلب فمعنى ذلك حسنت الخاتمة بتوفيق الله تعالى، وذلك أنه اذا سجد فانه لايرفع من سجوده إلا بلقاء الله تعالى، ومادام ساجدا فانه هو والجوارح فى جو دائم من رضاء الله تعالى، لأنه هو والجوارح فى جو دائم من خشية الله تعالى.

يقول رسول الله ﷺ:

«أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد»[1]

(١) وتمام الحديث: فأكثر وافية من الدعاء، وهو حديث صحيح أخرجه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه، والنسائى عن أبى هريرة رضي الله عنه.

وكثرة السجود طريق إلى الجنة:

روى الإمام مسلم هذا الحديث اللطيف الطريف الرائع:

عن أبى فراس ربيعة بن كعب الأسلمى -خادم رسول الله ﷺ وهو من أهل الصفة رضي الله عنه قال:

كنت أبيت مع رسول الله ﷺ فآتيه بوضوئه وحاجته فقال: سلنى؟

فقلت أسألك مرافقتك فى الجنة،

فقال: أو غير ذلك؟

قلت هو ذاك،

قال ﷺ: «أعنى على نفسك بكثرة السجود»

وذلك يعني: أعنى على نزغاتك وأهوائك بسلوكك طريق الخشية وآصل مظهر له السجود، فإذا ما وصل الإنسان إلى السجود فقد وصل إلى منتهى التواضع لله سبحانه وتعالى، إنه وصل إلى العبودية فى أظهر مظاهرها ووصل فى الوقت نفسه إلى أقرب مايكون العبد من ربه وعندئذ يترتب على ذلك مسئوليته فتكون:

«الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر»

وفى ذلك يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام مسلم بسنده عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه قال: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»[1]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

ما من نبى بعثه الله فى أمة قبلى إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تختلف من بعدهم خلوف، يقولون مالا يفعلون ويفعلون مالا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل[2].

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه وعن أبى سعيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه.

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى من عوامل خيرية الأمة الاسلامية: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فقال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(١)

ولقد لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان عدة من الرسل منهم داود وعيسى بن مريم عليهما السلام، لأنهم ماكانوا ينهون عن المنكر فقال سبحانه:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾(٢)

وثمرة السجود الحقيقى إذن:

«الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر»

وإنه لمن الملاحظ الواضح أن المدارس الصوفية الصادقة التى تسمى الطرق مهمتها الأولى: الدعوة إلى الله المتضمنة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر،

هؤلاء المقربون من دورهم الأصيل ماعبر الله عنه سبحانه بقوله:

«والحافظون لحدود الله»

ورسول الله ﷺ يقول:

لاتزال طائفة من أمتى قوامة على أمر الله لايضرها من خالفها»(٣)

وفى رواية: «لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»(٤)

ولكن الأسلوب القرآنى المعجز بدأ كل هذه الصفات بأعظم صفة للمقربين، انه سبحانه قبل أن يشرح فى تعداد صفاتهم التى بدأها بقوله: (التائبون).

قال:

---

(١) آل عمران آية: ١١٠.
(٢) المائدة آية: ٧٨، ٧٩.
(٣) رواه ابن ماجه.
(٤) رواه الحاكم فى المستدرك.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1]

إن المؤمن فى عقد الإيمان باع نفسه وماله لله، وهذا العقد بينه وبين الله:

فالمؤمن هو البائع؟

والشارى هو الله؟

والمبيع هو النفس والمال.

والثمن هو الجنة، أى هذا النوع من النعيم الذى بلغ من النفاسة إلى مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولاخطر على قلب بشر؟

أما مكان التسليم فإنه المعركة، ورسول الله ﷺ يقول.

«الجنة تحت ظلال السيوف»

وليس من شروط هذا العقد أن يستشهد المقاتل، كلا؟

فمن قاتل وانتصر وعاد سالما فله الجنة،..

ان الجنة للمقاتل سواء استشهد أو انتصر وعاد إلى بيته...

ولقد روى الحسن رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: -فيما يتعلق ببيع النفس-:

«إن فوق كل بر بر حتى يبذل العبد دمه، فإذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك».

وقال الشاعر -عن بيع النفس-:

الجود بالمال جود فيه مكرمة والجود بالنفس أقصى غاية الجود؟

وقال الحسن: مر أعرابى على النبى ﷺ وهو يقرأ هذه الآية:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ....﴾

فقال: كلام من هذا؟

قال: كلام الله،

(١) التوبة آية: ١١١.

قال: بيع والله مربح، لانقيله ولانستقيله، فخرج إلى الغزو واستشهد ولقد سجل الله هذا العقد فى التوراة والإنجيل فقال:

«وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به».

ولأجل ذلك حينما سمع الصحابة هذه الآية الكريمة قالوا:

«ربح البيع لا نقيل ولانستقيل»

أما التقدير الصادق لهذا العقد، فإنه الذى قرره الله سبحانه وتعالى بقوله (وذلك هو الفوز العظيم).

وإذا وقف أهل اليمين –بعد التوبة– عند المعاهدة المفروضة أو عندها وعند سنتها الراتبة فإن المقربين– وقد ذكرنا من صفاتهم مع العبادة المفروضة،

إنهم:

الحامدون، السائحون، الراكعون، الساجدون، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، والحافظون لحدود الله،

وقد يتساءل إنسان:

أليس للمقربين صفات أخرى غير هذه؟

والواقع أن للمقربين صفات جميلة أخرى كثيرة، ولكن صفاتهم فى جوهرها الأصيل تنطوى فى صفة «الساجدون» حين نفهم من السجود:

سجود القلب، وسجود الجوارح بسجوده، وكل هذه الصفات تتبلور فى تفسير رسول الله ﷺ للإسلام:

«أن يسلم لله قلبك، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»

وتتبلور فى: إياك نعبد وإياك نستعين

وتتبلور فى: التوحيد الذى يتناسق معه الشبلى فيعرف التصوف بأنه:

بدؤه معرفته ونهايته توحيده[1]

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود.

ولكنها تتبلور فى صورة هى قمتها وهى:

أشهد أن لا إله إلا الله

هذه الشهادة التى معها الامام الكتانى يعرف التصوف بأنه: صفاء ومشاهدة[1]

ومن اجتباهم الله تعالى تقودهم توبتهم العميقة إلى: الذكر،

وإذا كان لأركان الإسلام نفلها وسنها: صلاة التطوع وصيام التطوع... الخ فان نفل:

الركن الأول منها: الذكر، ذكر الله تعالى بكل طرقه، وذكره سبحانه عن طريق الصلاة على رسوله ﷺ، وذلك أنه سبحانه وتعالى أمر بها،

والركن الأول هو:

أشهد أن لا إله إلا الله سبحانه وتعالى، وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله ﷺ.

وكما أن الركن الأول أهم الأركان وأساسها، فان نفله أهم السنن،

ومن هنا كان اهتمام الاسلام بالذكر اهتماما لاحدود له،

يقول الإمام القشيرى وهو من زعماء الصوفية وكتابهم:

والذكر ركن قوى فى طريق الحق سبحانه،[2]

ثم يستدرك الإمام ليكون أكثر دقة، فيقول:

«بل هو العمدة فى هذا الطريق»

ثم يحسم الأمر حسما فيقول:

«ولايصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر»

أما عن حدود الذكر فان الإمام القشيرى يقول:

«ومن خصائص الذكر: أنه غير مؤقت، بل ما من وقت من الأوقات إلا والعبد مأمور بذكر الله، إما فرضا، واما ندبا،

والصلاة وإن كانت أشرف العبادات فقد لاتجوز فى بعض الأوقات، والذكر بالقلب مستدام فى عموم الحالات» أ.هـ

---

(١) المنقذ من الضلال للإمام الغزالى تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود.

(٢) الرسالة القشيرية للإمام القشيرى تحقيق الدكتور عبدالحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف.

وللإمام الصاوى الرجل العالم الصالح صاحب الحاشية المباركة على تفسير «الجلالين» توجيهات نفيسة فيما يتعلق بالذكر، إنه يقول:

«ولا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه، فربما ذكر مع غفلة يجر لذكر مع حضور، لأنهم شبهوا الذكر بقدح الزناد، فلايترك الإنسان القدح لعدم إيقاده من أول مرة مثلا، بل يكرر حتى يوقد فاذا ولع القلب نارت الأعضاء فلا يقدر الشيطان على وسوسته، لقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا﴾[1].

وخفت العبادة على الأعضاء، فلا يكون على الشخص كلفة فيها، قال العارف:

إذا رفع الحجاب فلا ملالة بتوفيق الإله ولامشقة

ويكفى الذاكر من الشرف، قول الله تعالى فى الحديث القدسى:

«أنا جليس من ذكرنى»[2]

وقوله تعالى:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3]

ويقول الإمام النووى:

«الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان»

والأفضل منه ماكان بالقلب واللسان جميعا، فان اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل، ثم لاينبغى أن يترك الذكر باللسان مع القلب خوفا من أن يظن به الرياء، بل يذكر بهما جميعا ويقصد وجه الله تعالى وقد قدمنا عن الفضيل رحمه الله:

«إن ترك العمل لأجل الناس رياء»

ولو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس، والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لانسد عليه أكثر أبواب الخير، وضيع على نفسه شيئا عظيما من مهمات الدين، وليس هذا طريقة العارفين.

(١) الأعراف آية: ٢٠١.
(٢) رواه الديلمى عن عائشة مرفوعا، وأخرجه أبو الشيخ عن محمد بن نصر الحارثى ورواه الحاكم وصححه عن أنس بلفظ قال الله تعالى: عبدى أنا عند ظنك بى، وأنا معك إذا ذكرتنى، وروى أحمد وابن ماجه بسند صحيح: أنامع عبدى ماذكرنى.
(٣) الأنفال: ٤٥، الجمعة: ١٠، حاشية الصاوى على الجلالين جـ١ ص٩٣.

وهؤلاء جميعا يتابعون القرآن الكريم، ويتناسقون معه، وذلك أن القرآن الكريم لم يعين للذكر وقتا معينا.

وذلك أن جميع الأوقات صالحة للذكر يقول تعالى:

﴿وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة﴾ يخلف كل واحد الآخر ﴿لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا﴾.

لقد جعل الله سبحانه جميع آناء الليل والنهار صالحة للذكر

يقول ابن عباس فى قوله تعالى:

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾[1]

يقول: أى بالليل والنهار، فى البر والبحر، والسفر والحضر، والغنى والفقر، والمرض والصحة، والسر والعلانية.

والآيات فى القرآن كثيرة تبين أن ذكر الله مستحب فى جميع الأمكنة والأزمنة وفى هذا المعنى يقول فى أوصاف أولى الألباب:

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾[2].

وأما عن ذكر اللسان وذكر القلب فإن صاحب الرسالة القشيرية يقول:

«فاذا كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه: فهو الكامل فى وصفه فى حال سلوكه».

وإذا كان المسلمون يتابعون القرآن ويتناسقون معه فى موضوع الذكر فإنهم فى كل ذلك يقتدون برسول الله ﷺ ويتخذونه قدوة وهو إمام كل المقبلين على طريق الله تعالى ولم يصل ولن يصل إنسان إلى الله تعالى منذ أرسل صلوات الله وسلامه عليه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إلا عن طريقه ﷺ.

ولرسول الله ﷺ عن الذكر، أوقاته وأمكنته وصيغه وثوابه وأنواره، وتجليات الله، بسببه على الذاكرين... أحاديث مستفيضة كلها أنوار وتجليات كلها أقباس من نور القرآن.

---

(١) النساء آية: ١٠٣. (٢) آل عمران آية: ١٩١ - ١٩٤.

الفصل الثاني

صفات عباد الرحمن على ضوء الكتاب والسنة

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾[1]

بعد أن ذكر الله في الآية السابقة جعله الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا، ناسب بعد ذلك أن يتكلم على أوصاف المؤمنين ومدى طاعتهم لله سبحانه وتعالى، وشكرهم وذكرهم وحسن عبادتهم واجتنابهم للمحرمات.

وعباد الرحمن. مبتدأ خبره أولئك يجزون الغرفة»، أو خبره الموصول بعده، وعباد جمع عبد، كبحار جمع بحر، من العبودية وهى الرضا بما يفعله الرب،

وقال الراغب: العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ويمكن اعتبار المعنيين فى تفسير العبادة، لأن الرضا بما يفعله الرب هو غاية التذلل.

«الذين يمشون على الأرض هونا» وهو صفة لمصدر محذوف، أى مشيا هونا، أوحال من فاعل يمشون، أى يمشوا هينين فى غاية التواضع والسكينة، لايخفقون بنعالهم، ولايضربون الأرض بأرجلهم غرورا وخيلاء.

والهون مصدر بمعنى اللين، ووضعه موضع الصفة زيادة فى المبالغة.

«وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» لما بين الله حال المؤمن فى خاصة نفسه ذكر حاله مع أفراد المجتمع، وأن الحلم هو مثال من أمثلة الأخلاق الإسلامية التى يجب أن تتبع، والمراد أنه إذا هاجمهم أحد من الناس أو اعتدى عليهم لم يردوا السيئة بالسيئة، ولم يعتدوا عليه اعتداء بهيميا، ولكنهم دائما خلقهم الحلم والترفع مع الإيمان والثقة فى أن الله سينتقم من هؤلاء الجاهلين، وفى هذا مافيه من السعادة فى الآخرة والأولى، وليس معنى ذلك أن الحلم يؤخذ به فى جميع الأمور وجميع الحوادث فان الغضب لأمور الشريعة والدين وللعرض والكرامة يجب على الانسان فان تعرض المؤمن للهوان والضياع فالغضب لهذا مما يوجب عليه.

وسلاما: مصدر وضع موضع التسليم، ومؤكد لفعله المضمر، والتقدير نسلم منكم تسليما، والمعنى اى واجههم السفهاء بالسيء من القول والفحش من اللسان، قالوا لهم: سلاما، أى تسلما منكم وهو سلام متاركة وبعد، لاسلام تحية،

(١) الفرقان آية: ٦٣.

لقد تضمنت الآية الكريمة صفتين من أهم صفات المؤمنين وأجلها: أولاهما: السكينة، والثانية: التواضع، ونجد ذلك فى كثير من الأحاديث النبوية التى تنص على ذلك وتحث عليه فذكر منها:

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

كأنى أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكى نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول:

«اللهم اغفر لقومى فانهم لايعلمون»[١]

وعن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها قالت: ماضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة ولا خادما إلا أن يجاهد فى سبيل الله وما نيل منه شىء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شىء من محارم الله تعالى فينتقم لله تعالى»[٢].

وعن عياض رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله أوحى إلى أن تواضعوا حتى لايفخر أحد على أحد، ولايبغى أحد على أحد»[٣]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ما انقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبدا يعفوا الا عزا وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»[٤]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

«لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة:

قال: «إن الله جميل يحب الجمال

الكبر بطر الحق وغمط الناس»[٥]

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال: احتجت الجنة والنار،

«فقالت النار: فى الجبارون والمتكبرون،

وقالت الجنة: فى ضعفاء الناس ومساكينهم، فقضى الله بينهما أنك الجنة رحمتى أرحم بك من أشاء، وإنك النارعذابى أعذب بك من أشاء ولكليتكما على ملؤها»[٦]

---

(١) أخرجه الشيخان فى صحيحيهما. (٢) رواه مسلم فى صحيحه. (٣) أخرجه مسلم فى صحيحه.
(٤) أخرجه مسلم. (٥) رواه مسلم. (٦) أخرجه الإمام مسلم.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(١)

ثم يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾(٢)

البيتوتة: أن يدركك الليل، نمت أو لم تنم، قال الزجاج:

كل من أدركه الليل قيل: بات وإن لم ينم، كما يقال: بات فلان قلقا،

وقياما: جمع قائم كصيام جمع صائم، أو مصدر أجرى مجراه،

وسجدا: جمع ساجد كضرب فى ضارب وهو خبر ليبيتون

قال العلامة الجمل فى حاشيته على الجلالين.

ويضعف أن تكون تامة، أى يدخلون فى البيات، وسجدا حال، ولربهم متعلق بسجدا: وقدم للفاصلة والتخصيص، أى يبيتون ساجدين قائمين لربهم سبحانه،

وذكروا هذا الوصف دون لفظ الجلالة للإشارة إلى قيامهم بخدمة سيدهم وغامرهم باحسانه ومرميهم.

وتخصيص البيتوتة: لأن العبادة فى الليل أحمز وابعد عن الرياء.

وعندى أن تقديم سجدا على قياما: لأن السجود أكمل درجات الخشوع ولأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد.

وهذا الوصف من الآية للمؤمنين هو وصف لحالتهم مع ربهم بعد أن وصف فيما سبق حالهم فى تعاملهم مع الخلق، فإن كل هم هؤلاء العباد هو إحراز رضا الله سبحانه وتعالى، والتقرب منه، سواء فى معاملتهم مع الناس أو مع الله سبحانه وتعالى، بخلاف غيرهم الذين يقضون الليل فى اللهو والفراغ، والبعد عن الله سبحانه وتعالى.

أورد الشيخان عن السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له:

«لم تصنع هذا يارسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟

قال: أفلا أكون عبدا شكورا؟

(١) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

(٢) الفرقان آية: ٦٤.

وروى الشيخان عن سالم بن عبد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال:

«نعم الرجل عبد الله، لو كان يصلى من الليل، قال سالم: فكان عبد الله بعد ذلك لاينام من الليل إلا قليلا».

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، قال قال رسول الله ﷺ.

ياعبد الله لاتكن مثل فلان، كان يقوم الليل فترك قيام الليل[1].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال:

أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام[2].

وعن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ، كان ينام أول الليل، ويقوم آخره فيصلى[3].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال:

«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يوما ويفطر يوما»[4]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»[5].

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يفطر من الشهر حتى نظن ألا يصوم منه، ويصوم حتى نظن ألا يفطر منه شيئا،

وكان لاتشاء أن تراه من الليل مصليا إلا رأيته، ولا نائما إلا رأيته[6]،

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[7].

بعد أن مدح الله سبحانه وتعالى عباده بقيام الليل وسجودهم له، ذكر خوفهم وخشيتهم من عقابه وعذابه فهم لم يغتروا بعبادتهم إياه، ولم يروى فيها سببا لدخولهم الجنة، بل يرون أن النجاة من عذاب الله يكون بفضل الله وبرحمته.

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح.
(٣) رواه البخارى ومسلم.
(٤) أخرجه البخارى ومسلم.
(٥) رواه مسلم.
(٦) رواه البخارى فى صحيحه.
(٧) الفرقان آية: ٦٥، ٦٦.

والغرام –كما في الصحاح– الشر الدائم والعذاب، وقوله تعالى:
«إن عذابها كان غراما»
قال أبو عبيد:
أي هلاكا ولزاما أ.هـ
وقال الزمخشري: أي هلاكا وخسرانا ملحا لازما.
والمعنى والذين يقولون في أغلب أوقاتهم طالبين من الله ومتضرعين إليه سبحانه وتعالى، أن لايكون جزاؤهم جهنم، فقد قال الله سبحانه وتعالى معبرا عن هذا المعنى.
﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾[1]
وهذا مدح لهم لأنه تحقيق لإيمانهم بالجزاء،

أحاديث في وصف عذاب جهنم:

أخرج الترمذي والبخاري في تاريخه عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ.
لجهنم سبعة أبواب منها باب لمن سل السيف على أمتي،
وروى الطبراني في الأوسط: أن جبريل جاء النبي ﷺ: فقال:
ياجبريل مالي أراك متغير اللون؟
فقال: ماجئتك حتى أمر الله عز وجل بمنافخ النار، فقال ﷺ:
ياجبريل: صف لي النار أو انعت جهنم:
فقال جبريل: إن الله تبارك وتعالى أمر بجهنم فأوقد عليها ألف عام حتى ابيضت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت، ثم أمر فأوقد عليها ألف عام حتى اسودت، فهي سوداء مظلمة لايضيء شررها ولايطفأ لهبها،
والذي بعثك بالحق نبيا: لو أن قدر ثقب ابرة: فتح من جهنم لمات من في الأرض كلهم جميعا،
والذي بعثك بالحق: لو أن خازنا من خزنة جهنم برز إلى أهل الدنيا لمات من في الأرض كلهم جميعا: من قبح وجهه ونتن ريحه،
والذي بعثك بالحق: لو أن حلقة من حلق سلسل أهل النار الذي نعت الله في كتابه: وضعت على جبال الدنيا: لارفضت: ومما تقارن: حتى تنتهي إلى الأرض السفلى، فقال رسول الله ﷺ:

(١) المؤمنون آية: ٦٠.

«حسبى ياجبريل: لا يتصدع قلبى فأموت»

قال: فنظر رسول الله ﷺ، إلى جبريل وهو يبكى: فقال تبكى ياجبريل وأنت من الله بالمكان الذى أنت به؟

فقال: ومالى لا أبكى: وأنا أحق بالبكاء: لعلى أكون فى علم الله: على غير الحالة التى أنا عليها:، وما أدرى لعلى أبدل بما ابتلى به ابليس، فقد كان من الملائكة، وما أدرى لعلى ابتلى بما ابتلى به هاروت وماروت.

قال: فبكى النبى ﷺ: وبكى جبريل: فمازالا يبكيان حتى نودى: أن ياجبريل ويامحمد: ان الله قد آمنكما أن تعصياه: فارتفع جبريل، وخرج رسول الله ﷺ: فمر بقوم من الأنصار يضحكون ويلعبون،

فقال: أتضحكون وتلعبون ووراءكم جهنم، فلو تعلمون ما أعلم: لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا: ولما أسقم الطعام والشراب ولخرجتم إلى الصعدات: تجأرون إلى الله عز وجل:

«فنودى: يامحمد: لاتقنط عبادى: إنما بعثتك مبشرا ولم أبعثك معسرا»

فقال ﷺ سددوا وقاربوا»

وأخرج أحمد والطبرانى وابن حيان: فى صحيحه: والحاكم وصححه:

«أن فى النار حيات كأمثال أعناق البخت:

تلسع احداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفا»

وأن فى النار عقارب كأمثال البغال الموكفة تلسع احداهن اللسعة فيجد حرها أربعين سنة»

وأخرج الترمذى وابن حبان فى صحيحه: والحاكم وصححه: عنه ﷺ: فى قول الله تبارك وتعالى (كالمهل) قال: كعتر الزيت:

فاذا قرب إلى وجهه سقط فروة وجهه فيه»

وأخرج الترمذى: وقال حسن صحيح غريب:

ان الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الحميم حتى يخلص إلى جوفه فيسلت مافى جوفه حتى يمرق من قدميه: وهو الصهر: ثم يعاد كما كان: والحميم الماء الحار: الذى يحرق»

وقال الضحاك: الحميم يغلى منذ خلق السموات والأرض إلى يوم القيامة يسقونه: ويصب على رؤوسهم،

وقيل مايجتمع من دموع أعينهم فى حياض النار فيسقونه:

وقيل غير ذلك: وهو المذكور فى قوله تبارك وتعالى:

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾[1]

وأخرج أحمد والترمذى، وقال غريب، والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم: عن رسول الله ﷺ فى قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾[2]

قال يقرب إلى فيه: فيكرهه، فاذا أدنى منه: شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه: فاذا شربه قطع أمعاه: حتى يخرج من دبره، قال الله عز وجل:

﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾.

وقال جل ذكره:

﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ﴾[3]

وأخرج الترمذى: وقال حسن صحيح: أنه ﷺ: قرأ هذه الآية:

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[4] فقال ﷺ: لو أن قطرة من الزقوم قطرت فى دار الدنيا: لافسدت على أهل الدنيا معايشهم فكيف بمن يكون طعامه:

وفى رواية: فكيف بمن له طعام غيره؟

وصح عن ابن عباس رضى الله عنهما: فى قوله تعالى وطعاما ذا غصة شوك: يأخذ بالحلق: لايدخل ولايخرج.

أخرج الشيخان: مابين منكبى الكافر مسيرة ثلاثة أيام: للراكب المسرع والمنكب: مجمع رأس الكتف والعضد:

وأخرج مسلم: ضرس: أوقال: ناب الكافر مثل أحد: وغلظ جلده مسيرة ثلاث:﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَاماً﴾[5]

(١) سورة محمد آية: ١٥. (٢) سورة إبراهيم آية: ١٦، ١٧.
(٣) سورة الكهف آية: ٢٩. (٤) آل عمران اية: ١٠٢. (٥) الفرقان آية: ٦٧.

لقد مدح الله فى الآية الماضية عباد الرحمن بأنهم يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار، وأنهم يرجون رحمة ربهم ويخافون عذابه وهم يعتبرون هذه الدنيا وسيلة إلى غيرها من نعيم الآخرة، وصفهم الله سبحانه وتعالى بأنهم لايهتمون بهذه الدنيا فلم يسرفوا فيها، والمقصود بالاسراف هنا جميع أنواع الاسراف فى الملذات الحلال أى حبها حبا شديدا لدرجة الإسراف فيها.

«ولم يقتروا»: الاقتار هنا يشمل حب الدنيا أيضا، فان البخل حب للأموال ومحاولة الخلود فى الحياة الدنيا، والابقاء عليها إلى أبد الآبدين:

ولكنهم وسط بين هؤلاء وهؤلاء، لم يسرفوا فى محرم، ولافى شهوات ولم يقتروا على حلال ولا على صدقة وزكاة،

وتساعد على هذا المعنى الأحاديث التالية:

أخرج أحمد والطبرانى عن أبى الدرداء: عن النبى ﷺ قال: «من فقه الرجل رفعه فى معيشة»

وأخرج بن ماجة فى سننة عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(إن من السرف: أن تأكل كل ما اشتهيت)، ومما يساعد على المعنى قوله تعالى:

﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[1]

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[2]

﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً﴾[3]

واذا كانت هذه الآيات فيها دلالة قوية ومبينة على أن الاسلام هو دين الوسيطة، فان الأحاديث التالية، تبين معنى الآية التى فى أيدينا بتوضيح لايدع مجالا لشك، وتبين النموذج الذى يجب أن يحتذى اسلاميا بالنسبة للفظ «قواما».

روى البخارى رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ:

«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟

قالوا: يارسول الله، مامنا أحد الا ماله أحب إليه قال:

(١) الإسراء آية: ٢٩.
(٢) الفرقان آية: ٦٧.
(٣) الإسراء آية: ١١٠.

«فان ما له ماقدم، ومال وارثه ما أخذ»

وروى الشيخان عن عدى ابن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«اتقوا النار ولوبشق تمرة»

وروى الشيخان عن جابر رضي الله عنه قال ماسئل رسول الله ﷺ شيئا قط فقال: لا

وروى الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ما من يوم يصبح العباد فيه الا وملكان ينزلان فيقول أحدهما:

«اللهم أعط منفقا خلفا»

ويقول الآخر: اللهم اعط ممسكا تلفا»

وعنه أن رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: انفق يأبن آدم ينفق عليك «متفق عليه»

وروى الشيخان، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما أن رجلا سأل رسول الله ﷺ: أى الإسلام خير؟

فقال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»

وروى الشيخان عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال:

لاحسد الا فى اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه حكمة فهو يقضى بها ويعلمها»،

عن أبى أمامة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ:

«يا ابن آدم ان تبذل الفضل خير لك وأن تمسكة شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى»[1].

﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[2].

والذين لايشركون بالله سبحانه وتعالى إلها آخر، يجعلونهم شركاء له فى العبادة، ولايقتلون أحدا إلا اذا كان يستحق القتل شرعا، كما فى حالة الجهاد فى سبيل الله

(١) أخرجه أحمد فى مسنده، والطبرانى فى المعجم الكبير.
(٢) الفرقان آية: ٦٩ – ٧١.

ولايطؤون فرجا محرما عليهم، والزنا فى عرف اللغة والشرع: ادخال المكلف الطائع حشفته فى قبل مشتهاة حالا أو ماضيا بلا ملك أو شبهته أو تمكينه من ذلك أو تمكينها فى دار الإسلام فعلم أنه لازنا للصبى والمجنون -أى موجب للحد- ومن أكرهه السلطان، ولا للمولج فى دبر أو فى فرج صغيرة غير مشتهاة أوميته أو بهيمة، ولمن كان فى دار الحرب، ولا لمن زنى مع شبهة، وهو من أمهات الكبائر، ولذا قرنه الله بالشرك وقتل النفس فى هذه الآية.

وقد جاء الله سبحانه وتعالى بنفى هذه الجملة من المعاصى عن المؤمن كمناسبة لما ذكره الله سبحانه وتعالى عن المؤمنين من الاعتدال فى النفقة فكان الاعتدال بالبعد عن المعاصى هو الأولى ذكره بعد ذلك.

يقول العلامة زادة فى حاشيتة على البيضاوى:

كأنه جواب عما يقال: ما الفائدة فى نفى القبائح عن الموصوفين بالخصال المرضية السابقة، مع أنهم يبعد منهم ارتكاب هذه القبائح فلا وجه إذن لنفيها عنهم، لأنه انما يحسن نفى صفة عن أحد إذا كانت الصفة المنفية مما يتوهم ثبوتها له؟

وتقرير الجواب أن الاتصاف بالفضائل السابقة لايستلزم الاجتناب عن هذه القبائح، فان الموصوف بتلك الصفات قد يتدين بالشرك ويقتل النفس بغير الحق ويتلبس بالزنى،

فبين الله أن المرء لايصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن حتى يجتنب الكبائر أيضا، الا أنه خص من الكبائر أمهاتها، وأشعر بذلك أن الأجر المذكور فى قوله: «أولئك يجزون الغرفة» موعود للجامعين بين ذلك»

«وفى هذا النفى تعريض بما كان عليه الكفار، كأنه قيل وعباد الرحمن هم: الذين لايدعون مع الله، وأنتم تدعون، ولايقتلون نفسا بغير حق وأنتم تقتلون، ولايزنون وأنتم تزنون ويحسن النفى تعريضا وإن لم يكن النفى عنه مظنة لثبوت المنفى له»

ويقول الإمام الألوسى:

«والمراد من نفى هذه القبائح عنهم التعريض بما كان عليه أعداؤهم من قريش وغيرهم وإلا فلا حاجة إليه بعد وصفهم بالصفات المتقدمة من حسن المعاملة، وإحياء الليل بالصلاة، ومزيد خوفهم من الله لظهور استدعائها واستلزامها نفى ماذكر عنهم.

ومن هذا يعلم حل ماقيل الظاهر عكس هذا الترتيب وتقديم التحلية على التخلية، فكأنه قيل: الذين طهرهم الله وبرأهم مما أنتم عليه من الإشراك، وقتل النفس المحرمة، كالموءدة والزنى.

وقيل: إن التصريح بنفى الإشراك مع ظهور إيمانهم لهذا، أو لاظهار كمال الاعتناء والإخلاص وتهويل أمر القتل والزنا بنظمهما فى ملكه.

وقد صح فى رواية الشيخين والترمذى عن ابن مسعود قال: سألت رسول الله ﷺ، أى الذنب أكبر، قال:

«أن تجعل الله تعالى ندا وهو خلقك»

قلت ثم أى؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»

قلت ثم أى؟ قال أن تزانى حليلة جارك، فأنزل الله تصديق ذلك:

«والذين لايدعون الآية».

وأخرج الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما أن ناسا من أهل الشرك قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، ثم أتوا محمدا ﷺ فقالوا:

«إن الذى تقول وتدعو إليه لحسن لوتجبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزلت:

«والذين لايدعون الآية» ونزلت:

«قل ياعبادى الذين أسرفوا الآية»

وجاز أن يقال فى وجه تقديم التحلية على التخلية: كون الأوصاف المذكورة فى التخلية أوفق بالعبودية التى جعلت عنوان الموضوع لظهور دلالتها على ترك الأنانية، ومزيد الانقياد، والخوف والاقتصاد فى التصرف، بما أذن المولى بالتصرف فيه، ولايأبى هذا قصد التعريض مما ذكر فى التخلية ويؤيد هذا القصد»

التعقيب بقوله عز وجل: «ومن يفعل ذلك الآية» أ.هـ.

فإذا فعل أحد هذه الأمور التى تقدمت يلاقى عذابا عظيما فيضاعف له هذا العذاب ويخلد فيه مهانا، بالذنوب التى اقترفها، لأنه ضاعف الذنوب فضوعفت له العقوبة،

ومن تاب عن الشرك، وآمن بالله وبرسوله، وكتابه، وعمل عملا صالحا، بدل الأعمال السيئة التى اقترفها، فأولئك يتجاوز الله عن سيئاتهم التى عملوها ويغفرها لهم، وكان الله غفور يعفوا عن السيئات، رحيما بتبديلها بالحسنات، ومن تاب عن جميع المعاصى وعمل صالحا يكفر به عن سيئاته، فإنه يرجع إلى الله وإلى عصمته وسبل هدايته وإرشاده، ينجيه من عقاب الله ومن عذابه.

التـــوبة

وإذا كان لنا أن نتعرض بشىء من التفصيل لموضوع التوبة باعتبارها التى يكفر بها الله سبحانه وتعالى ماراتكبه عباده العاصون من الذنوب فإننا نذكر الآيات القرآنية التى تتعلق بهذا،

التوبه: كالتوب والمتاب، مصدر تاب، أى رجع إلى الله تعالى، وتحول عن المعصية إلى الطاعة: قال تعالى:

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾[1] وقال

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[2]

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً﴾[3] وهى واجبة على العبد الظاهر قوله تعالى:

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[4] وهى ماحية للذنوب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[5].

الأحاديث المتعلقة بالآيات:

الشرك: عن زيد بن أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ: قال:

«من غير دينه، فاضربوا عنقه» أخرجه مالك: قال:

«الأمر عندنا، أن من خرج من الإسلام إلى الردة: أن يستتاب فإن تاب، وإلا قتل،

قال: «ومعنى قوله ﷺ: «من ترك دينه فاقتلوه » أى من خرج من الإسلام إلى غيره، لامن خرج من دين غير الاسلام إلى غيره كمن خرج من يهودية إلى نصرانية، أومجوسية ومن فعل ذلك من أهل الذمة: لم يستتب ولم يقتل،

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن ناسا من عكل وعرينة قدموا على النبى ﷺ: وتكلموا بالإسلام وقالوا يارسول الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف: واستوخموا المدينة فأمر لهم بذود وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه: فيشربوا من ألبانها فأبوا لها فانطلقوا حتى إذا كانوا بناحية الحرة، كفروا بعد اسلامهم: وقتلوا راعى النبى ﷺ، واستاقوا الذود، فبلغ ذلك

(١) غافر آية: ٣. (٢) الرعد آية: ٣٠.
(٣) النساء آية: ١٧. (٤) النور آية: ٣١. (٥) التحريم آية: ٨.

النبى ﷺ، فبعث الطلب فى آثارهم فأمر بهم، فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم، وتركوا فى ناحية الحره: حتى ماتوا على حالهم.[1]

القتــل:

وعند سعيد بن العاص رضي الله عنه، عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ،

«لايزال المؤمن فى فسحة من دينه مالم يصب دما حراماً»

وقال عمر رضي الله عنه:

«ان من ورطاط الأمور التى لامخرج لمن أوقع نفسه فيها سفك الدم الحرام بغير حل»[2].

وأخرج أبو هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«الإيمان قيد الفتك، لايفتك مؤمن»[3]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من نفس تقتل ظلما الا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل»[4]

وعن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لايحل دم امرىء مسلم، شهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله عدى ثلاث

«الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينة، المفارق للجماعة[5]

الزنا: روى عن بعض الصحابة: أنه قال: اياكم والزنا فان فيه ست خصال: ثلاث فى الدنيا، وثلاثة فى الآخرة،

فأما التى فى الدنيا: فنقصان الرزق، وقطع الأجل، وسواد الوجه، وأما التى فى الآخرة فغضب الله وشدة الحساب، ودخول النار.

وروى أن موسى عليه السلام قال يارب: بمالى من زنى؟ قال الله تعالى ألبسه درعا من النار، لو وضع على جبل شاهق لأصبح رماداً.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن البى ﷺ: أنه قال:

---

(١) أخرجه الخمسة. (٢) أخرجه البخارى فى صحيحه.

(٣) أخرجه البخارى فى التاريخ، وأبو داود وحسنه، والحاكم فى المستدرك. عن أبى هريرة، وأخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن الزبير وعن معاوية.

(٤) أخرجه الخمسة. (٥) أخرجه الخمسة.

«من لاط لايجد رائحة الجنة، وإن رائحتها التوبه من مسيرة خمسمائة عام.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال:

لاينظر الله تعالى إلى رجل أتى رجلا أوامرأة فى دبرها[١].

وقد صح عن النبى ﷺ: أنه قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به[٢].

وجاء فى الحديث الشريف عن ابن عمر رضي الله عنه:

قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ: فقال يامعشر المهاجرين خمس خصال: اذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن «لم تظهر الفاحشة فى قوم قط: حتى يعلنوا بها إلافشى فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا[٣].... الحديث

وعن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«لعن الله سبعة من خلقه: من فوق سبع سموات: وردد اللعنة على واحد منهم ثلاثا:، ولعن كل واحد منهم لعنة تكفيه قال:

ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من عمل عمل قوم لوط، ملعون من عمل عمل قوم لوط ملعون من ذبح لغير الله، ملعون من أتى شيئا من البهائم، ملعون من عق والديه ملعون من جمع بين امرأة وابنتها، ملعون من غير حدود الأرض، ملعون من ادعى لغير مواليه».

التوبة: عن أبى هريرة رضي الله عنه: قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«والله انى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة»[٤].

عن أبى حمزة أنس بن مالك الأنصارى أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضل فى أرض فلاة[٥].

وفى رواية لمسلم: «الله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة

(١) أخرجه الترمذى فى سننه.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذى فى سننيهما وابن ماجة وأحمد والحاكم والبيهقى.
(٣) أخرجه الحاكم والبيهقى.
(٤) أخرجه البخارى فى صحيحه.
(٥) أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما.

فأضحى فى ظلها وقد أيس من راحلته فبينما هو كذلك: إذ هو بها: قائمة عنده، فأشد بخطامها ثم قال من شدة الفرح:

«اللهم أنت عبدى وأنا ربك: أخطأ من شدة الفرح»[1].

﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾[2].

ذكر الله سبحانه وتعالى نوعين من الذنوب يجتنبهما المؤمن ويبتعد عنهما عباد الرحمن، بعد أن ذكر حكم التوبة من السيئات.

هاتان الصيغتان هما: شهادة الزور، وعدم الاهتمام باللغو والتجاوز عنه، وقد ركز الله سبحانه وتعالى على شهادة الزور نظرا لدخولها فى كثير من الأحكام الشرعية التى تحتاج إلى الشهادة كالزنا والقتل والسرقة وغيرهم،

وأيضا ركزت الآية على اللغو الذى يدخل فيه الكذب، والقول الفاحش وانتهاك حرمات المسلمين.

والمعنى المراد:

والذى لايشهدون شهادة الزور، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه لينصب على أنه صفة له.

ولا يحضرون مواضع الكذب أو الفناء مأخوذ من الشهود والأول من الشهادة:

لأنه مساعدة لأهل الباطل على ما هم فيه ووجودهم معهم دليل على استحسانه والرضا به، وعلى المؤمن أن يترفع بنفسه عن مخالطة أهل الشر ومشاركتهم فى باطلهم، لأن من حام حول الحمى: يوشك أن يقع فيه[3].

ويصح أن يكون المراد من الزور: كل شيء باطل، مائل عن الحق، من الازورار كالشرك، والكذب، والغناء، والنياحة وغيرها، أى لا يشهدون مجالسا ومجامعها.

وإذا مرووا: مصادفة واتفاقا بما يجب أن يلقى ويهمل لعدم نفعه وخيريته مروا منصرفين عنه غير ملتفتين إليه، صيانة لسمعهم ونفوسهم، أن تتجه إلى ما لاخير فيه

---

(١) مسلم فى صحيحه. (٢) الفرقان آية: ٧٢.

(٣) عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لايعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن لكل ملك حمى ألا وإن حمى الله محارمه ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب.

من اللغو الذى يسبب الانقطاع عن الله تعالى، فهم يكرمونها من تعرفه والوقوف عليه، وعدم الخوض فيه، لأن ترك ذلك من حسن إسلام المرء:

وأصل الكلمة من قولهم ناقة كريمة إذا كانت تعرض عند حلبها تكرمه كأنها لاتبالى بما يؤخذ منها: لغزارة لبنها.

وأخرج ابن أبى حاتم، وابن عساكر، عن ابراهيم بن ميسرة، قال بلغنى: أن ابن مسعود رضي الله عنه: مر بلهو معرضا ولم يقف، فقال النبى ﷺ:

لقد أصبح ابن مسعود وأمسى كريما ثم تلى ابراهيم ابن ميسر:

وإذا مروا باللغو مروا كراما وقيل اللغو، هو ما يستهجن من القول: وكرمهم إذا مروا به: التعبير عنه عند ذكره بطريق الكتابة والإيحاء إليه، من غير تصريح بلفظه الذى وضع له: كلفظ النكاح، والفرج، وغير ذلك مما تنبو عنه الأسماع وتنفر منه:

وقيل المراد باللغو «الزور، وهو الأمر بالباطل: ذكر تارة بأنه زور لبطلانه، ومرة أخرى بأنه لغو لأنه لافائدة فيه، وأصل الكلام: وإذا مروا به فوضع الظاهر موضع المضمر: أى والذين لايحضرون الباطل: وإذا مروا به اتفاقا أعرضوا عنه.

وأنت تعلم أن شهادة الزور نوع من الكذب الفاحش الذى يدخل فى المعاصى كلها، ومرتكبه فاسد المروءة، خبيث الطبيعة، خبيث الغرض آثم قلبه، يبدل الحق باطلا والباطل حقا، ليبيع دينه وكرامته وآخرته بدنيا ذاهبة، وعرض يسير، وسيرة سيئة فى الناس، فأهون به وبمكانته الذليلة الوضيعة عند الله والناس.

وإنك لتعجب كثيرا لهذه الفئة التى كثر سوادها، والتى تنصب نفسها لأداء هذه الشهادة الفاجرة، ويتكلف بعضهم الصلاة والتقوى ليتصيد قلوب العامة وأموالهم حتى إذا دعى لأداء هذه المهمة جاد بنفسه لنصرة الضلال، وخطى هذه الخطوات فى سبيل الشيطان،

وأما الاشتغال باللغو فهو مضيعة للوقت الذى هو رأس مال المؤمن، وعليه أن يستغله فى طاعة الله من قبل أن يأتيه الموت، فيضيع من يده أو يقول: رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب، فأصدق وأكن من الصالحين، ولو علم العبد قيمة ما ينفقه من الزمن على الكلام الذى يحبط عمله -كالغيبة، والتفوه بما يقبح ذكره والتصريح به- لما فرط فى

لحظة واحدة من عمره، ولما تبرع للهو وإخوان السوء بشىء من هذا المال الذى هو فى قدرة على استثماره وتنميته

وهذه أحاديث فيما اشتملت عليه الآية:

١ - عن أبى بكر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟

قلنا بلى يارسول الله: قال الاشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فمازال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[١]

٢ - وعن أيمن بن خريم بن فاتك قال: قال رسول الله ﷺ:

عدلت شهادة الزور إشراكا بالله تعالى، ثم قرأ:

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ﴾[٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:

«المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: والمهاجر من هجر مانهى الله عنه»[٣]

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت الناس الذى يحب أن يؤتى إليه»

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ:

ما كان المؤمن بالطعان ولا الفاحش ولاالبذئ»

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ما كان الفحش فى شىء إلا شانه ولا كان الحياء فى شىء إلا زان»[٤]

وعن صفوان بن سليم رضي الله عنه قال: قلنا يارسول الله:

«أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم»

قلنا أفيكون بخيلا؟ قال: نعم:

قلنا أفيكون كذابا؟ قال: لا[٥]

وعن مالك أنه بلغه أن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه أبو داود والترمذى، والآية رقم ٣٠، ٣١ من سورة الحج.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه الترمذى وقال حديث حسن.
(٥) رواه الترمذى وقال حديث حسن.

لايزال العبد يكذب ويتحرى الكذب، فينكت فى قلبه نكتة سوداء حتى يسود قلبه، فيكتب عند الله من الكذابين،[1].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال:

،إن الصدق يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا،

وان الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا،[2]

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: قال رسول الله ﷺ:

،ويل للذى يحدث بالحديث ليضحك منه القوم، فيكذب، ويل له،[3]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

،يكون فى آخر أمتى أناس دجالون كذابون: يحدثونكم بمالم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم يضلونكم ويفتنونكم،[4]

وعن ابن عباس رضى الله عنهما، قال:

،نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم والتحريش بينها إغراء بعضها ببعض،،

وعن بردة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

،من لعب بالنرد شير: فإنما صبغ يده فى دم خنزير،

،النرد شير، هى المعروفة اليوم بالطاولة،

وعن عائشة رضى الله عنها: أنها أرسلت إلى قوم سكان فى دارها عندهم نرد: لأن لم تخرجوها وإلا أخرجتكم من دارى، وأنكرت ذلك عليهم، أخرجه مالك:

وعن محمد بن المنكدر قال:

بلغنى أن الله تعالى يقول يوم القيامة:

---

(١) رواه مالك فى الموطأ.
(٢) مالك فى الموطأ.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذى.
(٤) أخرجه الإمام مسلم فى صحيحه.
(٥) أخرجه أبو داود والترمذى.

«أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم عن اللهو، ومزامير الشيطان؟ أدخلوهم فى رياض المسك، ثم يقول للملائكة عليهم السلام أسمعوهم حمدى، وأخبروهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون»[1].

قوله تعالى:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾[2].

اعلم أنه تعالى وصف عباده فى الآية السابقة المعرضون عن الدنيا التى تحول دون اقبالهم على ربهم، ولذلك فهم لايشهدون الزور وهم يكرمون أنفسهم عن سماع اللغو إذا مروا به.

وفى هذه الآية تغنهم بأنهم متوجهون إلى عمل الآخرة التى يريدونها، ويسعون لها سعيها.

فالآية الأولى منبتة عن أنهم لا يرجون حرث الدنيا ونصيبها وهذه تفيد أنهم يبتغون حظ الآخرة وجزاءها.

والمعنى: والذين إذا ذكروا بآيات القرآن المشتملة على العبر والمواعظ لم يعملوا عمل الكافرين والمنافقين، من عدم الانتفاع بها والاستفادة منها، بل يقبلون عليها كل الإقبال لتعيها آذانهم وترعاها أبصارهم، فالنفى متوجه إلى القيد كما هو الأكثر عند العرب والمراد إثبات الغرور ونفى أن يكونوا عند حصوله منهم صما وعميانا، والتعبير به دون لم يكبوا لإفادة شد تأثرهم بالقرآن، فهم حين يسمعونه يخرون عليه متدبرين فيه، متأثرين به، والخرور السقوط على غير نظام، وترتيب، ويجوز أن يراد بالآية معناها اللغوى، أى العلامة الدالة على قدرة الله المنبتة فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، كما فى قوله تعالى فى حق أضدادهم.

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾[3].

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾[4].

تقدم فى الآية السابقة، أن الله تعالى وصف المؤمنين بأنهم حريصون على مرضاته وطاعته، وذكر هنا أنهم يسألونه تعالى أن يقر أعينهم بصلاح أزواجهم

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود.
(٢) الفرقان آية: ٧٣.
(٣) يوسف آية: ١٠٥.
(٤) الفرقان آية: ٧٤.

وذريتهم وأن يجعلهم أئمة فى الدين فهم يطلبون السعادة لأتباعهم بعد ما حصلوها لأنفسهم.

وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص عن عاصم:

ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا، بالجمع وقرأ باقى السبعة وذريتنا بالإفراد ذهابا إلى قصد الجنس.

والمعنى : والذين يقولون فى دعائهم: ربناهب لنا من جهة أزواجنا وذرياتنا سرورا عظيما، وفرحا جزيلا، بأن توفقهم للعمل الصالح، والإخلاص فيه ابتغاء وجهك، ورجاء ثوابك، وخوفا من عقابك ليكون عونا لنا على عبادك، ولتطيب الحياة بالسكون إليهم، والعيش معهم، قانتين لربهم مطيعين، وليقوى طمعنا فى أن يكونوا معنا فى الجنة، كقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1].

ولأن استجابة هذا الدعاء منا مع تذكيرهم والقيام على إصلاحهم وإرشادهم تحقق لنا الخروج من عهدة التقصير، لأننا مسئولون عنهم ومطالبون بعهدهم، والمراد: أن عباد الرحمن لايريدون أن تقر أعينهم بأن تحوز أزواجهم وذريتهم مظاهرالدنيا من المال والجمال، ولكن الذى يملأ قلوبهم بشراً وحبورا أن يكونوا على جانب عظيم من الدين متمسكين لاتحيدون عنه، ولايخطئون طريقه.

ولاشك أن فى ذلك هناءة الأسرة ورفاهيتها والفوز بشرف الآخرة والأولى، ومن ابتدائية متعلقة تهب، أى هب لنا من جهتهم أو بيانية بناء على صحة تقدم المبين بالكسر وهو الأزواج والذرية على المبين بالفتح وهو قرة أعين، والقرة مأخوذة من القر، وهو البرد ، لأن دمعة السرور باردة بخلاف دمعة الحزن فهى حارة، أو من القرار إذا المسرور بالشرف يستقر نظره فيه لاينتقل عنه إلى ما دونه.

والتنكير للتعظيم ، أى قرة عظيمة الشأن، وتنكير أعين لأنه لاطريق لتنكير المضاف إليه، للقاعدة المستمرة من أن المضاف إلى واحد من المعارف يكون فى مرتبته والمتتبع لأسلوب القرآن يرى أنه يجمع العين بمعنى الباصرة على أعين دائما، وبمعنى الجارية على عيون كذلك.

(١) الطور آية: ٢١.

«واجعلنا للمتقين إماما»

أى اجعلنا أئمة يقتدى بهم فى الدين، بأن تعلمنا وتوفقنا لصالح العمل، حتى نصلح لرياسة المسلمين وقيادتهم إلى الله على منهج القرآن والسنة.

وإنما قال: اماما بالأفراد للدلالة على الجنس كما فى قوله تعالى:

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾[1] أو المراد واجعل كل واحد منا إماما.

وإنما لم يقل: وعباد الرحمن الذين يمشون ويبيتون لربهم إلى آخره. ويقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم باسقاط الموصولات السبعة، للدلالة على أن ما ذكر فى الصلة من الأمور الهامة الجليلة التى يجب أن نقصد لذاتها، وأن يجعل لها موصوف مستقل بها غير تابعة لما قبلها عناية واهتماما بشأنها.

وذكر العاطف فى قوله: والذين يبيتون وما بعده، لجعل الاختلاف العنوانى بمثابة الاختلاف الذاتى.

﴿أُوْلَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾[2].

لما ذكر سبحانه وتعالى أوصافها الحسنة، وأثنى عليهم ببلوغ النهاية فى الطاعة، وإحراز شرف العبودية، والتى يجب أن يسمى إليها ويتنافس فيها، بين ما أعده لهم من الجزاء، وحسن المثوبة، والكرامة فى الدار الآخرة، على صبرهم عن الشهوات، وعلى مشاق التكاليف، لينبه على أن صفقتهم رابحة . وأنهم لهم تجارة لن تبور، وأنهم هم الفائزون.

وقرأ حمزة ، والكسائى، وشعبة، عن عاصم:

«ويلقون فيها تحية وسلاما» بفتح الياء والقاف، بينهما لام ساكنة.

وقرأ الباقون: يلقون بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف مفتوحة.

والمعنى فأولئك الذين تقدم نفتهم بما لامزيد عليه من الخلال الكريمة، الدالة على منزلتهم، وخضوعهم لله تعالى، يجزون الغرفة بما صبروا، أى يدخلون أعلى منازل الجنة، جزاء لهم بسبب صبرهم عى امتثال الأوامر واجتناب النواهى، ورياضة النفس، وجهاد الأعداء ، وأذى المشركين وغير ذلك.

(١) من الآية رقم ٥ من سورة الحج. (٢) الفرقان آية: ٧٥، ٧٦.

والغرفة الدرجة العالية من المنازل، وكل بناء مرتفع، وهى اسم جنس قصد به الجمع، ليوافق قوله تعالى:

﴿وهم فى الغرفات آمنون﴾[1]، وقيل الغرفة اسم الجنة وأولئك مبتدأ ، وما فيه من معنى البعد للتنبيه عى علو درجتهم، وبعد منزلتهم فى الفضل، ويجزون خبره، والجملة لامحل لها من الإعراب مستأنفة لبيان أنواع إحسان الله تعالى عليهم، بعد وصفهم بما ذكروا على القول الثانى وهى فى محل رفع خبر لعباد الرحمن على القول الأول، والباء سببية، وما مصدرية، وحذف مفعول صبروا ليعلم كل ما تقدم، وغيره ليكون ذلك أبلغ فى مدحهم، وأدل على مزيد انقيادهم له تعالى.

وإنما لم يقل فعلوا لأن ما معنا أدخل فى باب الثناء عليهم لأنهم عالجوا أنفسهم على فعل الخير وترك الشر، حتى ذلت لهم وإنقادت.

(ويلقون فيها تحية وسلاما) أى دعاء بالتعمير ودوام البقاء ، وسلاما من الآفات والعلل، التحية من قولهم: حياك الله وأبقاك، وهى مشتقة من الحياة، والمراد: أن الله تعالى يجمع لهم بين سكنى الجنة والانتفاع بما فيها.

وبين هذه المقالات السارة، وفاعل التحية والسلام: إما الله عز وجل لقوله تعالى:
﴿سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾[2].

وأما الملائكة كقوله تعالى:
﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[3].

واما بعضهم مع بعض كما هو الظاهر من قوله تعالى:
﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ﴾[4].

والغرض من هذا الكلام: إدخال الفرح على قلوبهم، وتهنئتهم بما وصلوا إليه من الدرجات العلى، لا أن الداعى يطلب لهم ما ليس حاصلا، إذ بقاؤهم فى الجنة ثابت من غير تحية ولا دعاء، ونعيمهم دائم خالص من شائبة الضرر «خالدين فيها» حال من فاعل يلقون مفيد: لأن ما هم فيه من الخير والتكريم بدعاء الملائكة لهم بالسلام وتحيتهم أبدى لا انقضاء له:

---

(١) سبأ آية: ٢٧.
(٢) سورة يس آية: ٥٨.
(٣) الرعد آية: ٢٢، ٢٣.
(٤) يونس آية: ١٠.

«حسنت مستقرا ومقاما»، أى ما أحسنها، أو حسنت بمعنى نعمت، وفيها ضمير مبهم تقديره هى، والتأنيث باعتبار الجنة، ومستقرا ومقاما نصبا على التميز.

هذه أحاديث فيما أعده الله للمؤمنين فى الجنة.

وفقنا الله للعمل لها:

عن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه: عن النبى ﷺ قال:

«أن أهل الجنة ليراءون أهل الغرف من فوقهم: كما تراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم

«قالوا يارسول الله، تلك منازل الأنبياء لايبلغها غيرهم؟

قال بلى، والذى نفس بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين[1].

وعن أبى سعيد الخدرى، وأبى هريرة رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

إذا دخل أهل الجنة الجنة، ينادى مناد: أن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا،

وان لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدا،

وأن لكم أن تشيبوا فلا تهرموا أبدا،

وان لكم أن تنغمسوا فلا تيئسوا أبدا»[2].

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ان أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمن، فيتمنى ويتمنى فيقول له: هل تمنيت فيقول: نعم،

فيقول له: فان لك ما تمنيت ومثله معه»[3]

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال:

«ان الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فسيقولون لبيك: ربنا وسعديك والخير فى يديك،

فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: ومالنا لانرضى، يارينا فقد أعطيتنا ما لم تعطه أحدا من خلقك؟

---

(١) متفق عليه.
(٢) أخرجه الإمام مسلم.
(٣) رواه مسلم فى صحيحه.

فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ ، فيقولون: وأى شىء أفضل من ذلك؟
فيقول: أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا»[١]

وعن جرير بن عبدالله ﷺ: قال كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال: انكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر: لاتضامون فى رؤيته[٢].

وعن صهيب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ: قال:
«اذا دخل أهل الجنة الجنة: يقول الله تبارك وتعالى: «تريدون شيئا أزيد بكم؟
فيقولون: ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة؟ وتنجنا من النار؟
فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم[٣]

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
«أن أهل الجنة ليتراءون بالغرف فى الجنة كما تراءون الكوكب فى السماء»[٤].

وعنه رضي الله عنه قال:
شهدت من النبى ﷺ مجلسا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال فى آخر حديثه:
«فيها ما لاعين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»، ثم قرأ:
﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[٥].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :
«انى لأعلم آخر أهل النار خروجا منها، وآخر أهل الجنة دخولا الجنة رجلا يخرج من النار جوا، فيقول الله عز وجل:
«اذهب فادخل الجنة، فيأتيهما : فيخيل إليه أنها ملئ: فيرجع: فيقول الله عز وجل:
«اذهب فادخل الجنة، فان لك مثل الدنيا عشرة أمثالها، أو ان لك مثل عشرة أمثال الدنيا».

فيقول : أتسخر؟ أو تضحك بى؟ ، وأنت الملك؟

قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ: ضحك حتى بدت نواجذه، فكان يقول ذلك أدنى أهل الجنة منزلة[٦].

---

(١) متفق عليه. (٢) متفق عليه.
(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه. (٤) متفق عليه.
(٥) أخرجه البخارى فى صحيحه والآية رقم ١٦، ١٧ من سورة السجدة.
(٦) متفق عليه.

وعن أبى موسى رضي الله عنه: أن النبى ﷺ قال:

«ان للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة بحوفة طولها فى السماء ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضا»[1].

وعن أبى سعيد الخدرى رضي الله عنه، عن النبى ﷺ قال:

«ان فى الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام ما يقطعها»[2]

وعن أبى هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ: قال: لقاب قوسين فى الجنة خير ما تطلع عليه الشمس أو تغرب»[3].

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

«ان فى الجنة سوقا يأتونها كل جمعه: فتهب ريح الشمال فتحسر فى وجوههم وثيابهم فيزدادوا له حسنا وجمالا فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنا وجمالا:

فيقول لهم أهلوهم: والله ازددتم حسنا وجمالا، فيقولون: «وأنتم والله، لقد ازددتم بعدنا حسنا وجمالا»[4].

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[5].

لما ذكر الله سبحانه وتعالى فيما تقدم جزاء المؤمنين ووصفهم قبل ذلك بالصفات المنبئة عن العبودية الحقه، والإخلاص فى خدمته تعالى وامتثال أوامره، والبعد عما نهاهم عنه.

عقب ذلك بذكر أن ما يدعوهم إليه من العبادة، ليس لمنفعة ترجع إليه، اذ هو الغنى عنهم، وعن طاعتهم، بل وعن كل مخلوق كائنا من كان وانما يرشدهم بهذا الدين إلى ما يفيدهم، ويحقق لهم السعادة الأبدية.

فعلى جميع الناس أن يعقلوا هذه الرحمة، ويقدروها حق قدرها، فيعبدوه وحده، لايشركوا به شيئا.

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده، ومسلم فى صحيحه، والبخارى فى صحيحه، والترمذى فى سننه عن أنس، وأخرجه البخارى ومسلم عن سهل بن سعد، وأخرجه أحمد في مسنده والبخارى ومسلم والترمذى عن أبى سعيد، وأخرجه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه فى سننه عن أبى هريرة.

(٣) متفق عليه. (٤) أخرجه مسلم فى صحيحه.

(٥) الفرقان آية: ٧٧.

ويتبعوا هذا النور الذى أنزل لهدايتهم وصلاح أمرهم فى الدنيا والآخرة:

والمعنى: قل يا «محمد» لكل الناس متحدثا معهم عما حصل من جنسهم من خير وشر، حتى يتبين لهم أن السبب فى ظفر البعض بتلك الخيرات الكثيرة والمقامات الرفيعة، هوتمسكهم بالإسلام وما يحث عليه من فضائل .

«مايعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم» أى أى شىء يعبؤ بكم، وأى اعتداد يعد بكم، لولا دعائكم له تعالى، فانكم انما خلقتم لطاعته، والاقرار له بالألوهية والوحدانية.

كما قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

والا فقد شاركتم البهائم فى هذا الوجود الخسيس القاصر على جمع الطعام والشراب، وتلبية الشهوات وعواطف الشر، ونبذ العقل والتفكير فى أمر المعاش والمعاد، على ضوء الحكمة والبصر بعواقب الأمور، وأصل العبء الثقل:

«تقول ماعبأت بفلان، أى ما أعددت له ما يكون ثقلا على ، وما استفهامية منصوبة على المصدرية، كما مر تقديره وذكر الرب مضافا إلى ضميره عليه الصلاة والسلام لافادة، أن هذا الكلام من جملة تربيته تعالى لعباده، وأن الرسول ﷺ مأمور من قبله تعالى، بأن يقول: وليس إلا الاتباع والدعاء بمعنى العبادة، وهو مصدر مضاف إلى الفاعل.

وقال الزجاج: أى وزن يكون لكم عنده تعالى: لولا عبادتكم وجواب لولا محذوف، والتقدير لولا دعاؤكم لما اعتد بكم لدلالة ما قيل عليه.

وقيل المعنى: ما يصنع بكم ربى، لولا دعاؤه اياكم إلى الإسلام، فالدعاء معنى الدعوة، وهو مضاف إلى المفعول.

وقيل مايصنع بعذابكم، ولولا دعاؤكم، معه آلهة، كقوله تعالى:

﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ﴾[1].

وقيل : مايعبؤا بكم بعذابكم لولا دعاؤكم اياه، وتضرعكم إليه فى الشدائد، كقوله:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[3] ويصح أن تكون ما نافية ، أى لا يعبأ بكم: (فقد كذبتم) هو بيان الحال من كفر بين المخاطبين، بعد بيان حال من آمن

(١) الذاريات اية: ٥٦. (٢) أخرجه مسلم فى صحيحه. (٣) العنكبوت آية: ٦٥.

منهم، والمعنى: فقد كذبتم بما أنزلته عليكم أيها الكفرة، وعصيتم أمرى واتبعتم غير سبيل المؤمنين: ومثل ذلك من يقول الملك لمن خرج على أمره، أن من عبادتى أن أحسن إلى من يطيعنى، وقد عصيتنى، فسوف ترى ما سينزل بك من العقاب بسبب عصيانك ، فأنه تعالى قال:

«قد أعلمتكم بأن حكمى ألا اعتد بعبادى إلا لعبادتهم، فقد خالفتم بتكذيبكم حكمى.

فسوف يكون لزاما، أى يكون أثر التكذيب، أو جزاؤه لازما يحيق بكم، فلا مفر لكم منه ولا خلاص، وذلك فى الآخرة، وقيل اسم يكون هو العذاب وعدم التصريح بالاسم، لتفحيم شأنه والتنبيه على أنه من الهول والشدة بحيث لايمكن وصفه:

وقانا الله ونجانا من موجباته وعصمنا من الزيغ بعد الهداية والضلال بعد الهدى.

الفهـــرس

الموضـــوع | الصفحة

الباب الأول

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الباب الثاني

الفصل الأول

الفصل الثاني

إثبات النبوةالمحمدية عن طريق النظر فى سيرة الرسول ﷺ قبل البعثة

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الباب الثالث

الفصل الأول

الفصل الثاني